http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى
الموضوع : فقهى و تحليلى
القرن : الخامس عشر
الناشر : دار الفكر المعاصر
مكان الطبع : بيروت دمشق
سنة الطبع : ١٤١٨ ق
تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

و هذا إشارة إلى أن اتباع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لازم فيما لا يعقل معناه ، إظهارا للتعبد ، ولازم من باب أولى فيما يدرك بالعقل معناه.

التفسير والبيان :

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

أي وتاللّه لقد أعطينا لقمان « ١ » الحكمة وهي التوفيق

---

(١)

روى ابو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « اتخذوا السودان ، فإن

إلى العمل بالعلم والفهم ، وشكر اللّه وحمده على نعمه وأفضاله ، وحب الخير للناس ، واستعمال الأعضاء فيما خلقت له من الخير والنفع.

وهذا دليل على أن لقمان الحكيم هداه اللّه إلى المعرفة الصحيحة ، من غير طريق النبوة.

ومن يشكر اللّه على ما منحه وأعطاه ربه ، فيطيعه ويؤدي فرضه ، فإنما يحقق النفع والثواب لنفسه ، وينقذها من العذاب ، كما قال تعالى : مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها [فصلت ٤١/ ٤٦] وقال عز وجل : وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ [الروم ٣٠/ ٤٤].

ومن جحد نعمة اللّه عليه ، فأشرك به غيره ، وعصى أوامره ، فإنه يسيء إلى نفسه ، ولا يضر ربّه ، فإن

اللّه غني عن العباد وشكرهم ، لا يتضرر بذلك ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو المحمود في السماء والأرض بلسان الحال أو المقال ، وإن لم يحمده أحد من الناس.

ثم ذكر تعالى وصية لقمان (و هو كما ذكر ابن كثير لقمان بن عنقاء بن سدون) لابنه (و هو ثاران في قول السهيلي والطبري والقتبي) فقال :

(١٤٨/٢١)

وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ ، وَهُوَ يَعِظُهُ : يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ واذكر حين أوصى لقمان ابنه بوصية أو موعظة ، حرصا عليه لأن الأب يحب ابنه وهو أشفق الناس عليه ، فقال له : يا ولدي ، اعبد اللّه ولا تشرك به شيئا ، فإن الشرك أعظم الظلم ، أما إنه ظلم فلكونه وضع الشيء في غير موضعه ، وأما كونه أعظم الظلم فلتعلقه بأصل الاعتقاد وتسويته بين الخالق والمخلوق ، وبين المنعم وحده وبين غير المنعم أصلا ، وهي الأصنام والأوثان.

ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن »

قال الطبراني :

أراد الحبش (تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٤٧).

ج ٢١ ، ص : ١٤٦

و الآية عطف على معنى ما سبق ، وتقديره : ولقد آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا في نفسه ، وحين جعلناه واعظا لغيره.

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال : لما نزلت آية الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام ٦/ ٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقالوا : أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

ثم أمر اللّه تعالى ببرّ الوالدين ، جريا على عادة القرآن ، فإنه كثيرا ما يقرن اللّه تعالى في القرآن بين الأمر بعبادة اللّه واجتناب الشرك وبين الأمر ببرّ الوالدين ، كما في قوله سبحانه : وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً [الإسراء ١٧/ ٢٣] ، فقال :

(١٤٩/٢١)

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ، وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ أي وأمرنا الإنسان وألزمناه ببرّ والديه وطاعتهما ، وأداء حقوقهما ، ولا سيما برّ الأم التي حملته في ضعف فوق ضعف ، من الحمل إلى الطلق إلى الولادة والنفاس ، ثم الرضاع والفطام في مدة عامين والتربية ليلا ونهارا ، كما قال تعالى : وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ [البقرة ٢/ ٢٣٣] وقد بيّن الحديث النبوي أحقية الأم بالبرّ ، فأوصى بها ثلاث مرات ، ثم أوصى بالأب في المرة الرابعة ، فجعل له ربع المبرة.

لقد وصيناه ، أي أمرناه وعهدنا إليه بالشكر لي أي للّه على نعمتي عليك ، وبالشكر للوالدين لأنهما سبب وجودك ، ومصدر الإحسان إليك بعد اللّه تعالى. وقوله تعالى : أَنِ اشْكُرْ لِي لبيان علة الوصية أو وجوب امتثالها ، والْإِنْسانَ هنا في رأي الزمخشري تفسيرية ، والجملة بيان لفعل التوصية ، إذ هو متضمن معنى القول ، أي قلنا له : اشْكُرْ لِي.

ج ٢١ ، ص : ١٤٧

و كذا علة الأمر بطاعة اللّه وطاعة الأبوين أو السبب فيه : هو أن المصير أو المرجع إلي ، فسأجزيك على ذلك أوفر الجزاء في الآخرة. وهذا تهديد وتخويف من عاقبة المخالفة والعقوق والعصيان ، كما هو وعد بالجزاء الحسن على امتثال أمر اللّه وطاعته وبرّ الوالدين وصلتهما.

وهذه الآية وما بعدها من كلام لقمان الذي وصى به ابنه ، أخبر اللّه عنه بذلك ، فلما بيّن لقمان لابنه أن الشرك ظلم ونهاه عنه ، كان ذلك حثّا على طاعة اللّه ، ثم بيّن أن الطاعة تكون للأبوين ، وبيّن السبب في ذلك.

وقيل : هو من كلام اللّه قاله للقمان ، أي قلنا له : اشْكُرْ ، وقلنا له :

وَ وَصَّيْنَا ، وقيل : هذه الآية اعتراض بين وصية لقمان تؤكد النهي عن الشرك ، قال القرطبي :

والصحيح أن هذه الآية وآية العنكبوت السابقة :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً [٨] نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية التي حلفت ألا تأكل حتى يرتد سعد ، وعليه جماعة من المفسرين « ١ » . والمختار عند المفسرين أن هذه الآية إلى آخر الآيتين بعدها كلام مستأنف من اللّه تعالى ، جاء معترضا بين وصايا لقمان لابنه ، تأكيدا للنهي عن الشرك.

ثم قيّد اللّه طاعة الأبوين مستثنيا حقوقه تعالى ، فقال :

وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلا تُطِعْهُما أي وإن ألحّ والداك في الطلب ،

وحرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما في دينهما ، وتشرك بي في عبادتي غيري مما لا تعلم أنه شريك لي ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا تطعهما فيما أمراك به من الشرك أو المعصية ، فإنه لا طاعة لمخلوق في

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٦٣ ، البحر المحيط : ٧/ ١٨٦ وما بعدها.

ج ٢١ ، ص : ١٤٨

معصية الخالق. والمراد بنفي العلم نفي الشريك ، أي لتشرك بي ما ليس بشيء وهي الأصنام.

وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي لا يمنعك عدم طاعتك لأبويك في الشرك والمعصية من أن تصاحبهما في الدنيا بالمعروف ، بأن تحسن إليهما ، فتمدهما بالمال عند الحاجة ، وتطعمهما وتكسوهما ، وتعالجهما عند المرض ، وتواريهما عند الموت في القبور ، وتبرّ صديقهما ، وتفي بعهدهما. وقوله مَعْرُوفاً أي صحابا معروفا على مقتضى الكرم والمروءة ، أو مصاحبا حسا بخلق جميل ، وحلم واحتمال ، وبرّ وصلة.

(١٥١/٢١)

و قوله : فِي الدُّنْيا تهوين شأن الصحبة ، فهي لأيام محدودة ، وسنوات معدودة ، سريعة الزوال والانقضاء. والمعروف هنا : ما يعرفه الشرع ويرتضيه ، وما يقتضي به الكرم والمروءة في إطعامهما وكسوتهما والإحسان إليهما في القول والفعل.

وإياك والمحاباة في شأن الدين ، فالزم سبيل المؤمنين التائبين في دينك ، ولا تتبع في كفرهما سبيلهما فيه ، وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما في الدنيا.

ثم إليّ مرجعك ومرجعهما ، فأجازيك على إيمانك ، وأجازيهما على كفرهما ، وأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر. والجملة مقررة لما قبلها ومؤكدة لوجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما وطاعتهما في غير معصية.

ثم أخبر تعالى عن بقية وصايا لقمان الحكيم النافعة ، ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال :

١- يا بُنَيَّ ، إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ، يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ أي يا ولدي ، إن

ج ٢١ ، ص : ١٤٩

الحسنة والسيئة أو المظلمة والخطيئة ، لو كانت تساوي وزن أو مثقال حبة خردل ، ولو كانت في أخفى مكان كجوف صخرة ، أو في أعلى مكان كالسماوات ، أو في أسفل موضع كباطن الأرض ،

لأحضرها اللّه يوم القيامة حين الحساب ، ووزن الأعمال ، والمجازاة عليها خيرا أو شرا ، كما قال تعالى : وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً [الأنبياء ٢١/ ٤٧] وقال سبحانه : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة ٩٩/ ٧- ٨]. وقوله : فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ يراد به المبالغة والانتهاء في التفهيم.

(١٥٢/٢١)

إن اللّه لطيف العلم ، يصل علمه إلى كل شيء خفي ، فلا تخفى عليه الأشياء ، وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، خبير عالم بكنه الأشياء ، يعلم ظواهر الأمور وبواطنها.

والمقصود من الآية بيان سعة علم اللّه ، فهو يعلم الغيب والشهادة ، ويطلع على جميع أعمال عباده ، لموافاتهم بجزائها يوم القيامة.

٢- يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ ، إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي بعد أن منعه من الشرك ، وخوفه بعلم اللّه وقدرته ، أمره بصالح الأعمال اللازمة للتوحيد وهي الصلاة أي العبادة لوجه اللّه مخلصا ، وإقامتها أي أداؤها كاملة بحدودها وفروضها وأوقاتها ، وهي عماد الدين ، ودليل الإيمان واليقين ، ووسيلة القربى إلى اللّه وتحقيق رضوانه ، كما أنها تساعد على اجتناب الفحشاء والمنكر ، وصفاء النفس.

والأمر بالمعروف أي أمر النفس والغير بما هو معروف شرعا وعقلا ، كمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، مما يهذب النفس ويدعو إلى التحضر والتمدن ، كما قال تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها [الشمس ٩١/ ٩- ١٠].

ج ٢١ ، ص : ١٥٠

و النهي عن المنكر ، أي منع النفس والآخرين من المعاصي والمنكرات المحرّمة شرعا والقبيحة عقلا ، والتي تغضب اللّه ، وتوجب عذاب جهنم.

والصبر على الأذى والشدائد والأوامر الإلهية ، فإن الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر يؤذى عادة ، فطلب منه الصبر. وقد بدئت الوصايا بالصلاة لأنها عماد الدين وختمت بالصبر لأنه أساس المداومة على الطاعات ، وعماد رضوان اللّه ، كما قال تعالى : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ [البقرة ٢/ ٤٥].

(١٥٣/٢١)

إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي إن ذلك المذكور مما أمر اللّه به ونهى عنه ، ومنه الصبر على أذى الناس ، لمن الأمور الواجبة المعزومة ، أي المقطوعة قطع إيجاب وإلزام « ١ » ، ويكون المصدر « عزم » بمعنى المفعول.

وبعد أمره بما يكمل نفسه وغيره ، نهى عن أشياء وحذر من أشياء ، فقال :

١- وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلموك تكبرا واحتقارا ، والمعنى : لا تتكبر فتحتقر عباد اللّه ، ولا تتكلم وأنت معرض ، بل كن متواضعا سهلا هينا لينا منبسط الوجه ، مستهل البشر ، كما

جاء في الحديث النبوي الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري : « لا تحقرنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الإزار ، فإنها من المخيلة ، والمخيلة لا يحبها اللّه » .

٢- وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ أي لا تسر في الأرض مختالا بطرا متبخترا ، جبارا عنيدا ، فإن تلك المشية يبغضها ، واللّه يكره كل مختال معجب في نفسه ، فخور على غيره ، كما قال تعالى :

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا

---

(١) و

منه الحديث : « لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل »

أي لم يقطعه بالنية ، ومنه

الحديث الآخر : « إن اللّه يحب أن يؤخذ برخصة ، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه » .

ج ٢١ ، ص : ١٥١

[الإسراء ١٧/ ٣٧]. و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن ابن عمر : « من جرّ ثوبه خيلاء ، لا ينظر ا

و

و

ج ٢١ ، ص : ١٥٣ الكفائي ، وإجابة الأم في الصلاة النافلة إذا شقّ عليها الانتظار أو خيف هلاكها.

و تختصّ الأم بزيادة البرّ والطاعة لمعاناتها في سبيل تربية أولادها ، وبما أنها كما ذكرت الآية تعرضت لمراتب ثلاث من المشاق : الحمل ، والرضاع ، والوضع ، جعل لها ثلاثة أرباع المبرّة ، وللأب الربع ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم لرجل سأله فيما رواه البخاري وغيره : « من أبرّ ؟ قال : أمّك ، قال : ثم من ؟ قال : أمّك ، قال : ثم من ؟ قال : أمّك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

٣- أقصى مدة الرضاع في أحكام النفقات والتحريم بالرضاع عامان ، وقصر مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم على عامين هو رأي العلماء غير أبي حنيفة.

ورأى أبو حنيفة أن مدة الرضاع المحرم ثلاثون شهرا لقوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً.

واستنبط العلماء أيضا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر من مجموع آيتين ، قال تعالى في آية : وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ [البقرة ٢/ ٢٣٣] ، وقال في آية أخرى : وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً [الأحقاف ٤٦/ ١٥].

٤- الشكر للّه على نعمة الإيمان وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى ، وللوالدين على نعمة التربية ، قال سفيان بن عيينة : من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر اللّه تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

٥- آية وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً دليل على جواز صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعوة إلى الإسلام برفق. ويؤيده

أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البخاري

ج ٢١ ، ص : ١٥٤

و مسلم- وقد قدمت عليها أمها من الرضاعة ، أو خالتها- : « يا رسول اللّه ، إن أمي قدمت علي ، وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم »

قال ابن عطية : والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت لتقدم على أسماء لو لا حاجتها.

و والدة أسماء : هي قتيلة بنت عبد العزّى بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

ودلّ قوله تعالى : وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً على أن الولد لا يستحق القصاص على أحد والديه ، وأنه لا يحدّ له إذا قذفه ، ولا يحبس له بدين عليه ، وأن على الولد نفقة والديه عند الحاجة.

٦- قوله تعالى : وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ المراد به العموم ، كما هو ظاهر اسم الموصول ، فهو وصية لجميع العالم ، والمأمور الإنسان ، وهي سبيل الأنبياء والمؤمنين الصالحين. وأناب معناه : مال ورجع

إلى الشيء ، والمراد هنا :
تاب من الشرك ، ورجع إلى الإسلام ، واتبع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ورجع إلى اللّه بالتوحيد والإخلاص بالطاعة ، لا سبيل الوالدين اللذين يأمران بالشرك. وهذا الأمر باتباع السبيل دليل على صحة إجماع المسلمين ، وأنه حجة لأمر اللّه تعالى إيانا باتباعهم ، وهو مثل قوله تعالى : وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ [النساء ٤/ ١١٥].
٧- قوله سبحانه : ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. توعد من اللّه عزّ وجلّ ببعث من في القبور ، والرجوع إليه للجزاء والاعلام بصغير الأعمال وكبيرها.
٨- قوله تعالى : يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ .. قصد به إعلام قدرة اللّه تعالى ، وتخويف منه ورجاء ، فمهما تكن الحسنة أو الخطيئة أو الطاعات والمعاصي مثقال حبة خردل يأت بها اللّه ، لأن الحسّ لا يدرك ثقلا للخردلة ، إذ لا ترجّح ميزانا.
ج ٢١ ، ص : ١٥٥
و فسّر القرطبي الآية بأنه لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في أي مكان في العالم العلوي (السموات) والسفلي (الأرض) جاء اللّه بها ، حتى يسوقها إلى من هي رزقه أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض ، وعن اتّباع سبيل من أناب إلي. ومن هذا المعنى

قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لعبد اللّه بن مسعود فيما رواه البيهقي في القدر ، وهو ضعيف : « لا تكثر همّك ، ما قدّر يكن ، وما ترزق يأتك » .
وقد نطقت هذه الآية بأن اللّه تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا سبحانه لا شريك له.
٩- في الآية تعظيم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا يشمل جميع الطاعات والفضائل ، والحضّ على تغيير المنكر والصبر ، وإن نال الإنسان ضرر ، وفيه إشعار بأن المغيّر يؤذى أحيانا.
كما أن الصبر مندوب إليه عند التعرض لشدائد الدنيا كالأمراض وغيرها ، وعلى الإنسان ألا يخرج من الجزع إلى معصية اللّه عزّ وجلّ ، فإن من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره.
وإن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور ، أي مما عزمه اللّه وأمر به ، وجعله من الأمور الواجبة.
١٠- دلّ قوله تعالى : وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ على تحريم التكبر ، ومعنى الآية : ولا تمل خدك للناس

تكبرا عليهم ، وإعجابا بالنفس ، واحتقارا لهم ، وأقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، وإذا حدّثك أصغر الناس ، فاصغ إليه حتى يكمل حديثه ، كما كان يفعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

والخلاصة : لا تدبر عن المتكلم ، كما

روى مالك عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد اللّه إخوانا ، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »

فالتدابر والإعراض وترك

ج ٢١ ، ص : ١٥٦

الكلام والسلام من المحظورات.

١١- يحرم على الإنسان أن يمشي في الأرض متبخترا متكبرا ، بل يحرم التكبر في كل الحالات.

١٢- يندب للإنسان القصد أي التوسط في المشي ، وهو ما بين الإسراع والبطء ، فلا تدبّ دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثب الشيطان.

(١٥٧/٢١)

١٣- كما يندب إليه عدم التكلف في رفع الصوت ، والتكلم حسب الحاجة والمعتاد ، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي ، والمراد بذلك كله التواضع.

وقد شبّه رفع الصوت الزائد عن الحاجة بصوت الحمير ، والحمار ونهاقه مثل في الذمّ البليغ والشتيمة.

وفي الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية.

والآية أدب من اللّه تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم ، أو بترك الصياح جملة ، وقد نهى اللّه عنه ، لأنه من أخلاق الجاهلية وعاداتها ، فقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك.

وتلك إشارة إلى التوسط في جميع الأفعال والأقوال.

والخلاصة : جمعت وصية لقمان بين فضائل الدين والآخرة ومكارم الأخلاق في الدنيا ، واشتملت تسعة أوامر ، وثلاثة نواه ، وسبع علل أو أسباب :

أما الأوامر : فهي الأمر ببرّ الوالدين ، والشكر للّه وللوالدين ، ومصاحبة الوالدين في الدنيا بالمعروف ، واتباع سبيل الأنبياء والصالحين ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والاعتدال في المشي ، وإخفاض الصوت.

ج ٢١ ، ص : ١٥٧

و أما النواهي : فهي النهي عن الشرك ، والنهي عن تصعير الخد (الإعراض عمن تكلم تكبرا) والنهي

عن المشي مرحا (اختيالا وتبخترا).

والتعليلات أو الأسباب هي :

١- وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

٢- إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

٣- إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٤- إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

٥- إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

٦- إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ.

٧- إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ.

توبيخ المشركين على الشرك مع مشاهدة دلائل التوحيد [سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١)

الإعراب :

نِعَمَهُ ظاهِرَةً أراد : نعم اللّه ، جمع نعمة ، وظاهِرَةً حال. وقرئ : نعمة ، ونعمته.

ج ٢١ ، ص : ١٥٨

البلاغة :

ظاهِرَةً وَباطِنَةً بينهما طباق.

أَ وَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إنكار وتوبيخ ، مع الحذف ، أي : أيتبعونهم ولو كان الشيطان. إلخ ...

المفردات اللغوية :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ أي ألم تعلموا أيها المخاطبون أن اللّه ذلل لكم جميع ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ، بأن جعله أسبابا محصلة لمنافعكم.

وَما فِي الْأَرْضِ بأن مكنكم من الانتفاع به ، كالثمار والأنهار والدواب والمعادن وما لا يحصى.

وَ أَسْبَغَ أكمل وأوسع وأتمّ. نِعَمَهُ جمع نعمة : وهي كل نفع قصد به الإحسان. ظاهِرَةً وَباطِنَةً محسوسة ومعقولة ، ما تعرفونه وما لا تعرفونه ، فالظاهرة : كل ما يعلم بالمشاهدة كحسن الصورة وتسوية الأعضاء ، والباطنة : ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلا ، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ، ولا يهتدي إلى العلم بها!! وَمِنَ النَّاسِ بعض الناس كأهل مكة في صدر الإسلام. مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ في توحيده وصفاته. بِغَيْرِ عِلْمٍ مستفاد من دليل أو بغير حجة. وَلا هُدىً أي ولا هداية من رسول. وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أنزله ، بل بالتقليد. بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أي ما سار عليه الأسلاف ، وهو منع صريح من التقليد في الأصول كالاعتقاد. أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ أي أيتبعونهم ، ولو دعاهم الشيطان إلى موجبات عذاب جهنم ، وهو الإشراك أو التقليد ، وجواب لَوْ محذوف ، أي لا تبعوه ، والاستفهام للإنكار والتعجيب.

المناسبة :

بعد أن استدل اللّه تعالى بقوله : خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ على الوحدانية وذكر أن لقمان عرف ذلك بالحكمة ، لا بالنبوة ، عاد إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك ، مع مشاهدتهم دلائل التوحيد عيانا في عالم السموات والأرض ، وتسخير ما فيها لمنافعهم ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة.

ج ٢١ ، ص : ١٥٩

التفسير والبيان :

(١٦٠/٢١)

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً أي ألم تعلموا أيها الناس دلائل التوحيد الناطقة بوحدانية اللّه سبحانه في كل شيء ، وإنعامه عليكم ، فهو الذي ذلل لكم جميع ما في السموات من شمس وقمر ونجوم ، تستضيئون بها في الليل والنهار ، وما خلق فيها من سحاب ينزل منه المطر ، لسقي الإنسان والحيوان والنبات ، ويسر لكم جميع ما في الأرض من قرار ومعادن ، وأنهار وبحار ، وأشجار وزروع ، وثمار ، ونحو ذلك من المنافع الغذائية ، وأكمل وأتم عليكم نعمه الظاهرة والباطنة أي المحسوسة والمعقولة ، المعروفة وغير المعروفة ، ومنها إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وإزالة الشّبه والعلل والأعذار.

وقيل : الظاهرة : الإسلام ، والباطنة : الستر

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لابن عباس- وقد سأله عن هذه الآية- : « الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سيء عملك » .

وقيل : الظاهرة : ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم باللّه ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات.

ومع هذا كله ، ما آمن الناس كلهم ، فقال تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلا هُدىً ، وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أي وبالرغم من ثبوت الألوهية بالخلق والإنعام ، فهناك فريق من الناس يجادل في توحيد اللّه وصفاته وإرساله الرسل ، كزعماء الوثنية في مكة وغيرها ، بغير دليل معقول ، ولا مستند أو حجة صحيحة على يد رسول ، ولا كتاب مأثور صحيح ينير الطريق الحق.

ج ٢١ ، ص : ١٦٠

فقوله : بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ معناه : لا من علم واضح ، من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب مبين واضح.

(٢١/١٦١)

و إنما حجتهم الوحيدة هو التقليد الأعمى ، واتباع الهدى والشيطان ، لذا تعالى :

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ ، قالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد اللّه : اتبعوا ما أنزل اللّه على رسوله من الشرائع المطهرة ، لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين فيما اعتقدوه من دين. وهذا في غاية القبح ، فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يدعوهم إلى كلام اللّه الهادي إلى الحق والخير ، وهم يأخذون بكلام آبائهم.

وهذا منع صريح من التقليد في أصول العقيدة ، لذا وبخهم اللّه على سوء مقالتهم فقال :

أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ ؟ أي أيتبعونهم بلا دليل ، ولو كان اعتقادهم قائما على الهوى وتزيين الشيطان الذي يدعوهم إلى عذاب جهنم ، واللّه يدعو إلى النجاة والثواب والسعادة ؟ !

وهذا كقوله تعالى :

أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [البقرة ٢/ ١٧٠] أي ولو كان آباؤهم المحتجون بصنيعهم على ضلالة ، فلا عقل عندهم ولا هداية معهم ؟ ! وهم خلف فيما كانوا فيه.

وهذا استفهام على سبيل التعجب والإنكار ، يتضمن التهكم عليهم ، وتسفيه عقولهم ، والسخرية من آرائهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

ج ٢١ ، ص : ١٦١

١- الدليل على وحدانية اللّه الخلق والإنعام ، فإنه خلق السموات بما فيها من شمس وقمر ونجوم وملائكة ، وذللها للناس ، جالبة لهم المنافع ، وخلق الأرض وما فيها من جبال وأشجار وثمار ومعادن وماء وهواء وبخار وذرة وما لا يحصى ، وكلها لنفع الإنسان. وأكمل النعم وأتمها على بني آدم ، سواء كانت ظاهرة مشاهدة محسوسة ، كالصحة وكمال الخلقة والمال والجاه والجمال ، وشرائع الإسلام ، أو معقولة مجردة كالمعرفة والعقل وحسن اليقين باللّه تعالى ، وسواء كانت معروفة أو ستعرف علميا مع تطور الاكتشافات العلمية المتجددة في كل عصر.

٢- بالرغم من كثرة الأدلة الدالة على توحيد اللّه من الخلق والإنعام ، فإن فريقا من الناس كالنّضر بن الحارث وأبيّ بن خلف يجادلون أو يخاصمون في التوحيد بغير حجة عقلية أو نقلية من سنة رسول أو بيان كتاب مضيء نيّر ، وإنما الحجة هي الشيطان فيما يلقى إليهم ، وإلا تقليد الأسلاف ، كما قال تعالى :

وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ [الأنعام ٦/ ١٢١].

٣- إذا أمر المشركون باتباع ما أنزل اللّه على رسوله من الآيات البينات والشرائع المطهرة ، لم يجدوا جوابا إلا التمسك بتقليد الآباء والأجداد ، وبما يزين لهم الشيطان من الوساوس والأهواء ، فإنهم يتبعونه على ضلال.

سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر [سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

ج ٢١ ، ص : ١٦٢

البلاغة :

وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ مجاز مرسل في وَجْهَهُ من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى تشبيه تمثيلي ، شبّه من تمسك بالإسلام بمن أراد الصعود إلى قمة جبل ، فتمسك بأوثق حبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر.
عَذابٍ غَلِيظٍ استعارة الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للمادة الكثيفة ، فاستعير للمعنى.
المفردات اللغوية :
وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ أي يفوض أمره إليه ، ويقبل على طاعته ، ويخلص عبادته إليه. وَهُوَ مُحْسِنٌ متقن عمله. فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى تعلق بأوثق وأمتن ما يتعلق به ، وهو الطرف الأوثق الذي يؤمن انقطاعه ، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرا الحبل المتدلي منه. وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ مرجعها إذ الكل صائر إليه.
وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ أي فلا يضرك في الدنيا والآخرة ، ولا تهتم بكفره. إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ أي مصيرهم إلى اللّه في الدارين. فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا نجازيهم بأعمالهم بالإهلاك والتعذيب. عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي بحديث النفس الكائن في الصدور كما أنه عليم بما في غيرها ، فمجاز عليه. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا نمتعهم في الدنيا أيام حياتهم تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. نَضْطَرُّهُمْ نلزمهم في الآخرة. إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ ثقيل عليهم ، وهو عذاب النار ، لا يجدون عنه محيصا.
المناسبة :

(١٦٤/٢١)

بعد بيان حال الكافر المجادل في اللّه جهلا وعنادا ، أبان اللّه تعالى حال المسلم ، وأخبر بأن منتهى الأمور صائرة إليه ، ثم أردفه بتسلية الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على ما يلقاه من إعراض المشركين عن دعوته عنادا ، وهددهم بالعقاب الشديد في الدنيا والآخرة ، مع التنبيه بأن عذاب الآخرة أشد وأثقل.
ج ٢١ ، ص : ١٦٣
التفسير والبيان :
وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ، وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أي ومن يخلص العبادة والعمل إلى اللّه ، وينقاد لأمره ، ويتبع شرعه ، مع إتقان عمله باتباع ما أمر اللّه به ، وترك ما نهى عنه وزجر ، فقد تمسك بالحبال الواثقة ، أي تعلق بأوثق الوسائل الموصلة إلى رضوان اللّه ، وسيلقى الجزاء الحسن على عمله ، لأن مصير المخلوقات كلهم إلى اللّه ، فيجازي المتوكل عليه ، المخلص عبادته إليه أحسن الجزاء ، كما يعاقب المسيء بأشد العذاب.
ثم نصح اللّه رسوله بألا يهتم بكفر الكافرين ، فقال :
وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي لا تغتم

ولا تجزع على كفر الكافرين الذين كفروا باللّه ورسوله ، ولا تهتم بهم ، ولا تحزن عليهم ، فإن مصيرهم إلينا يوم القيامة وفي الدنيا ، فنجازيهم بالإهلاك والعذاب ، ولا تخفى عليه خافية منهم ، ولا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم ، فنخبرهم بما أضمرته صدورهم. وكلمة مَنْ تصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال : كُفْرُهُ ثم قال : مَرْجِعُهُمْ وما بعده على المعنى.

ثم بيّن مدى مقامهم في الدنيا ، فقال :

(٢١/١٦٥)

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ أي نجعلهم يتمتعون في الدنيا بزخارفها تمتعا قليلا أو زمانا قليلا ، ثم نلجئهم ونلزمهم بعذاب شاق ثقيل شديد عليهم. والغلظ يكون في الماديات ، وأستعير للمعنى ، والمراد الشدة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن الناس في الآخرة فريقان : فريق في الجنة ، وفريق في

ج ٢١ ، ص : ١٦٤

السعير ، فمن أخلص عبادته وقصده إلى اللّه تعالى ، وأتقن عمله ، بأن عبد اللّه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن ربّه يراه ، فهو من الناجين الذين أخذوا موثقا متينا من اللّه أنه لا يعذبهم ، ومنتهى الأمور كلها ومصيرها إلى اللّه تعالى.

ومن أنكر وجود اللّه أو أنكر وحدانيته فأشرك به غيره ، فإن اللّه يجازيه ، واللّه عليم بكل ما أسرّ العبد وأعلن.

وإن بقاء العالم في الدنيا قليل ، فهم يتمتعون فيها مدة قليلة ، ثم يساقون ويلجأون ويلزمون إلى عذاب شديد ، هو عذاب جهنم.

إثبات وجود اللّه وسعة علمه وشمول قدرته على البعث وكل شيء [سورة لقمان (٣١) : الآيات ٢٥ الى ٣٢]

(٢١/١٦٦)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ

كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)
ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣(١) وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

ج ٢١ ، ص : ١٦٥

الإعراب :

لَيَقُولُنَّ حذف منه نون الرفع لتوالي الأمثال ، وحذف واو الضمير لالتقاء الساكنين.

(١٦٧/٢١)

وَ الْبَحْرُ الواو واو الحال ، والْبَحْرُ : مبتدأ ، وخبره : يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ والجملة حالية ، وعامل الحال ما في أَقْلامٌ من معنى الفعل لأن (أقلاما) قام مقام (كاتبات) فكأنه قال : كاتبات والبحر يمده.
ومن قرأ بالنصب ، فهو معطوف على ما أو منصوب بتقدير فعل يفسره يَمُدُّهُ وتقديره : يمد البحر يمده ، مثل : وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ [يس ٣٦/ ٣٩] أي قدرنا القمر قدرناه.
ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ خَلْقُكُمْ مبتدأ ، وكاف كَنَفْسٍ في موضع رفع خبر المبتدأ ، وتقديره : ما خلقكم ولا بعثكم إلا كبعث نفس واحدة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.
ولا يجوز أن تعمل ما بسبب إِلَّا لأنها تشبه (ليس) في نفي الحال ، وإِلَّا تبطل منها معنى النفي ، وهو وجه الشبه الموجب للعمل ، وإذا زال وجه الشبه الموجب للعمل بطل العمل.

البلاغة :

صَبَّارٍ شَكُورٍ خَتَّارٍ كَفُورٍ خَبِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ صيغ مبالغة ، وفيها ما يسمى توافق الفواصل أو السجع.
فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ فيه إيجاز بالحذف ، والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر ، دل على المحذوف قوله تعالى : وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ.

المفردات اللغوية :

وَلَئِنْ اللام لام القسم. لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غير

ج ٢١ ، ص : ١٦٦

اللّه ، بحيث اضطروا إلى الإقرار بوجوده. قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ على ظهور الحجة عليهم بثبوت التوحيد ، وإلجائهم إلى الاعتراف بما يبطل اعتقادهم. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ يجهلون إلزامهم بتلك الحجة. لِلَّهِ ما

فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكا وخلقا وعبيدا ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره. هُوَ الْغَنِيُّ عن خلقه. الْحَمِيدُ المستحق للحمد ، المحمود في صنعه.

(١٦٨/٢١)

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ أي ولو صارت جميع الأشجار أقلاما. وإنما قال شَجَرَةٍ بالإفراد دون اسم الجنس الذي هو شجر ، ليشمل كل شجرة على حدة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر ، ولا واحدة ، إلا قد بريت أقلاما. وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ أي والبحر المحيط يمده بسعته مدادا ، فاكتفى بذكر يَمُدُّهُ عن ذكر المداد لأنه من مدّ الدواة وأمدها.

ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ أي معلوماته ، بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد ولا بأكثر من ذلك لأن معلوماته تعالى غير متناهية. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يعجزه شي ء. حَكِيمٌ لا يخرج شيء عن علمه وحكمته.

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ خلقا وبعثا ، أي كبعث نفس واحدة وخلقها ، إذ لا يشغله شأن عن شأن ، ولأنه يتم بكلمة كُنْ فَيَكُونُ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يسمع كل مسموع.

بَصِيرٌ يبصر كل مبصر ، لا يشغله إدراك شيء عن شي ء. أَلَمْ تَرَ تعلم أيها المخاطب.

يُولِجُ يدخل الليل في زمن النهار وبالعكس ، أي يضيف أحدهما إلى الآخر ، فاللّه يزيد في كل من الليل والنهار بما نقص من الآخر. كُلٌّ يَجْرِي كل من الشمس والقمر النيرين يجري في فلكه. إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى معلوم مقدر ، إلى نهاية دورة الشمس السنوية ، ودورة القمر الشهرية ، أو إلى يوم القيامة. بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ عالم بكنهه.

ذلِكَ المذكور من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع. بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ بسبب أنه الثابت في ذاته ، الواجب من جميع جهاته ، أو الثابت الألوهية. وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ أي وأن ما يعبدون من غيره هو المعدوم في حد ذاته الذي لا يوجد ، والزائل ، أو الباطل الألوهية. وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ المترفع على خلقه وعلى كل شيء بالقهر ، والمتسلط عليه ، وهو العظيم.

(١٦٩/٢١)

الْفُلْكَ السفن. تَجْرِي تسرع. بِنِعْمَتِ اللَّهِ بإحسانه في تهيئة أسبابه وأنها تحمل الطعام والمتاع ونحوهما ، وهو استدلال آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه.

لِيُرِيَكُمْ أيها المخاطبون بذلك. مِنْ آياتِهِ دلائله. لَآياتٍ علامات وعبرا. لِكُلِّ صَبَّارٍ كثير الصبر على المشاق وعن معاصي اللّه ، فيتعب نفسه في التفكر في الآفاق والأنفس.

شَكُورٍ لنعمته ، يعرف النعم ، ويتعرف ما نحها ، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر.

ج ٢١ ، ص : ١٦٧

غَشِيَهُمْ علاهم وغطاهم. كَالظُّلَلِ كالظلال التي تظل من تحتها ، من جبال وسحاب وغيرها. مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الدعاء بأن ينجيهم ، أي لا يدعون معه غيره بسبب ما دهاهم من الخوف الشديد. مُقْتَصِدٌ متوسط بين الكفر والإيمان ، أو مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره ، ومنهم باق على كفره. وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا ينكرها ، ومنها الإنجاء من الموج. خَتَّارٍ غدار ، فإنه نقض للعهد الفطري. كَفُورٍ شديد الجحود للنعم.

سبب النزول : نزول الآية (٢٧) :

وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ :

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن الروح ، فأنزل اللّه وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء ١٧/ ٨٥] فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلا ، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً [البقرة ٢/ ٢٦٩] ، فنزلت : وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ الآية.

واخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة :

وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فلما هاجر إلى المدينة أتاه أحبار يهود ، فقالوا : ألم يبلغنا عنك أنك تقول : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا إيانا تريد أم قومك ؟ فقال : كلّا عنيت ، قالوا : فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء ،

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : هي في علم اللّه قليل ، فأنزل اللّه :

وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فنزل : وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ الآية.

ج ٢١ ، ص : ١٦٨

نزول الآية (٢٨) :

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ : نزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي بن الأسدين ، ومنبّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق ، قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إن اللّه تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ثم عظاما ، ثم تقول : إنا نبعث خلقا جديدا جميعا في ساعة واحدة! فأنزل اللّه تعالى : ما خَلْقُكُمْ وَلا

بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ.

المناسبة :

بعد إقامة الأدلة على وحدانية اللّه بخلق السموات بغير عمد ، وبإمداد خلقه بنعمه الظاهرة والباطنة ، أبان اللّه تعالى أن المشركين معترفون بوجود اللّه ، وأنهم يتضرعون إليه وحده وقت الشدة ، ثم يعودون إلى كفرهم بعد النجاة. ثم أثبت تعالى وحدانيته بملكه ما في السموات وما في الأرض ، ثم أقام الدليل على سعة علمه ، وشمول قدرته على كل شيء ، ومنه خلق الناس وبعثهم ، وتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر في دورة محددة ، وتسيير السفن في البحار بتيسيره وتهيئة أسبابه ، علما بأن المشركين يعترفون بتلك الآيات.

التفسير والبيان :

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ أي وتاللّه لئن سألت هؤلاء المشركين باللّه من قومك : من الذي خلق السموات والأرض ؟

لأجابوا : هو اللّه الخالق ، فهم معترفون بأن اللّه خالق السموات والأرض ، غير منكرين له ، لوضوح الأمر ، وعدم وجود البديل ، بحيث اضطروا إلى إعلان هذا الاعتراف باللّه ، ومع هذا فهم يعبدون معه شركاء ، يعترفون أنها مخلوقة للّه ، ومملوكة له.

ج ٢١ ، ص : ١٦٩

قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي قل أيها الرسول : الحمد للّه على اعترافكم ، إذ قامت الحجة عليكم بإلجائكم إليه ، وأن دلائل التوحيد واضحة ، لا يكاد ينكرها أحد ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنه ينبغي ألا يعبد مع اللّه غيره ، وأن هذه الحجة تلزمهم ، وتبين تناقضهم ، وأنهم لم ينتبهوا مع وجود هذا التنبيه.

وبعد انتزاع هذا الاعتراف الصريح بوجود اللّه وتوحيده ، استدل اللّه تعالى على ذلك بقوله :

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أي للّه جميع ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وعبيدا وتصرفا ، وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة غيره ، لأنه الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، وهم مملوكون له ، محتاجون إليه ، وهو المحمود في الأمور كلها ، وعلى نعمه التي أنعم بها ، وعلى ما خلق وشرع.

ومنعا لإيهام قوله تعالى : لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ تناهي ملكه بحصره في الموجود في السموات والأرض ، أبان تعالى أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها ، فقال :

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا (حبرا) وأمده سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات اللّه الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ، لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا ، إن اللّه قوي لا يعجزه شيء ، حكيم في صنعه ، لا يخرج عن علمه وحكمته شيء ، كامل القدرة ، فيكون له مقدورات لا نهاية لها.

وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ، كما لم يرد أن هناك

ج ٢١ ، ص : ١٧٠

سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم ، والعرب تذكر السبعة والسبعين والسبع مائة ، وتريد بذلك الكثرة.

والخلاصة : أن الآية تخبر عن عظمة اللّه وكبريائه وجلاله وكلماته التامة ومعلوماته وأسراره التي لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « سبحانك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »

فمعلوماته تعالى لا نهاية لها. ويكون المراد بكلمات اللّه :

معلوماته ، وقيل : هي ما في المعدوم ، دون ما خرج من العدم إلى الوجود « ١ » .

ونظير الآية : قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً [الكهف ١٨/ ١٠٩] وليس المراد بقوله : بِمِثْلِهِ آخر مثل فقط ، بل بأمثاله ، لأنه مفرد مضاف فيعم ، كما أن كَلِماتُ وإن كانت جمع قلة ، تفيد هنا الكثرة ، لأن جموع القلة إذا تعرفت بالألف واللام غير العهدية ، أو أضيفت ، عمّت ، وصارت لا تخص القليل ، والعام مستغرق جميع أفراده.

و لما بيّن اللّه تعالى كمال قدرته وعلمه وأن كلماته ومعلوماته لا يحيط بها أحد ، أوضح أن هذا الخلق غير المنحصر قد أحاط به علما ، وأنه قادر على البعث والمحشر كما قدر على الخلق أول مرة ، فقال :

ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هيّن عليه ، كما قال : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢] وقال تعالى أيضا : وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ

[القمر ٥٤/ ٥٠] أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشيء ، لا يحتاج

---

(١) البحر المحيط : ٧/ ١٩٢

ج ٢١ ، ص : ١٧١

إلى تكرار الأمر وتوكيده ، وقال سبحانه : فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات ٧٩/ ١٣- ١٤] فمن لا نفاد لكلماته يقول للموتى : كونوا ، فيكونوا.

وقوله : إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي كما أن اللّه سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم ، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

وبعد بيان تسخيره تعالى ما في السموات وما في الأرض ، ذكر هنا بعض ما فيهما على وجه الخصوص ، بقوله : يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ثم ذكر بعض ما في السموات بقوله : وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ثم أردفه ببعض ما في الأرض بقوله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ.

(١٧٤/٢١)

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أي ألم تشاهد أن اللّه في شأن تعاقب الليل والنهار ، يزيد في زمن الليل على حساب النهار في الشتاء ، ويزيد في ساعات النهار على حساب الليل في الصيف ، فيأخذ من هذا ويضيفه إلى ذاك ، فيطول أحدهما ويقصر الآخر.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أي ذلّل النيرين لمصالح خلقه ومنافعهم ، كل منهما يسير بسرعة إلى غاية محدودة ، أو إلى يوم القيامة ، وأن اللّه مطلع بدقة على جميع أعمالكم من خير وشر ، ويجازيكم عليها ، فهو الخالق العالم بجميع الأشياء.

ثم ذكر اللّه تعالى الهدف من بيان آياته فقال :

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أي إنما يظهر اللّه لكم آياته ، ويبين عجائب قدرته وحكمته ، لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الثابت المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه

ج ٢١ ، ص : ١٧٢

باطل زائل ، فهو الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، لأن جميع ما في السموات والأرض خلقه وعبيده ، ولا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه وقدرته ومشيئته ، وأن اللّه تعالى هو العلي الذي لا أعلى منه ، المرتفع على كل شيء ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، العظيم السلطان ، فكل

شيء خاضع له.

وبعد ذكر الآيات السماوية الدالة على وجود اللّه تعالى وقدرته ووحدانيته ، ذكر آية أرضية ، فقال :

(١٧٥/٢١)

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

أي ألم تعلم أيها المخاطب أيضا أن اللّه سخر البحر لتجري فيه السفن بأمره ، أي بلطفه وإحسانه وتهيئة الأسباب ، ليرشدكم إلى معرفته ، ويظهر لكم شيئا أو بعضا من قدرته ، فإنه لو لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ، لما جرت.

إن فيما ذكر من الأدلة السماوية والأرضية لأدلة واضحة وعلامات نيّرة لكل صبّار (كثير الصبر) في الضراء ، شكور في الرخاء ، لأن المؤمن متذكر ربه ، فيصبر إذا أصابته نقمة ، ويشكر إذا أتته نعمة ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البيهقي عن أنس ، وهو ضعيف : « الإيمان نصفان : فنصف في الصبر ، ونصف في الشكر » .

ثم ذكر اللّه تعالى تناقض المشركين واضطرابهم من اللجوء إليه حين الضراء ، ونسيانه حال السراء ، فقال :

وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ، فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ أي وإذا أحدقت بهم مخاطر الأمواج العالية التي تشبه الجبال والغمام ، رجعوا إلى الفطرة ، ودعوا اللّه دعاء حارّا ، مخلصين له الطاعة ، لا يشركون به غيره ، مستغيثين به وحده ، فلما رحمهم ونجوا بفضله من الأهوال المحدقة ، ووصلوا إلى شاطئ البر والسلامة ، فمنهم

ج ٢١ ، ص : ١٧٣

مقتصد في الكفر ، منزجر بعض الانزجار ، متجه إلى توحيد اللّه ، ومنهم غدّار ناقض للعهد ، كافر بأنعم اللّه ، وما يكفر بآياتنا الكونية والقرآنية إلا كل كثير الغدر ، كفور بما أنعم اللّه عليه.

ونظير الآية : وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء ١٧/ ٦٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

(١٧٦/٢١)

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١- لا يجد المشركون بدا عند سؤالهم عن خالق السموات والأرض من الإجابة بأنه هو اللّه تعالى ،

فهم يعترفون بأن اللّه خالقهن ، فلم يعبدون غيره ؟ ! فالحمد للّه على ما هدانا له من دينه ، وليس الحمد لغيره ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا ينظرون ولا يتدبرون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى ، ودلت الآية الثانية التي تلتها على أن جميع ما في السموات ، والأرض للّه ملكا وخلقا ، وأن اللّه هو الغني عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم بالعبادة لينفعهم ، واللّه هو المحمود في صنعه.

٢- دلت الآية الأخيرة : وَإِذا غَشِيَهُمْ على اعتراف آخر من المشركين بوجود اللّه ووحدانيته ، فإنهم إذا تعرضوا لمخاطر الغرق بسبب اضطراب البحر ، وارتفاع الأمواج ، لم يجدوا بديلا غير اللّه للجوء إليه ، فيدعونه موحدين له ، لا يدعون لخلاصهم سواه ، فإذا ما نجوا من البحر ، ووصلوا إلى البر والأمان ، فمنهم مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة ، موفّ بما عاهد عليه اللّه في البحر ، ومنهم كافر ، وقد دل على المحذوف قوله تعالى : وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ أي لا ينكر دلائل الآيات على توحيد اللّه إلا كل غدّار مغرق في الكفر ، جحود للنعم ، لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها.

ج ٢١ ، ص : ١٧٤

٣- إن معاني كلام اللّه سبحانه لا تنفد ، وإنها لا نهاية لها ، ولا يمكن حصرها ولا عدها ، وقد دلنا على ذلك هذا البيان القرآني : وهو لو كانت الأشجار أقلاما ، والبحار مدادا ، فكتب بها عجائب صنع اللّه الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب ، لأنه تعالى القديم الذي لا نهاية له ابتداء وانتهاء ، أما المخلوق فلا بد له من بداية ومن نهاية ، والمقصود من الكلمات :

الكلام القديم ، والمراد بالآية الاعلام بكثرة معاني كلمات اللّه ، هي غير متناهية في نفسها ، وإنما قرّب الأمر بهذا المثال لأفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور.

وإذا كانت معاني كلام اللّه لا نهاية لها ، فعلم اللّه بحقائق الأشياء لا يمكن حصره ، وإنما هو واسع شامل.

والخلاصة : أن كلمات اللّه هي مقدوراته وعجائبه ، أو معلوماته.

٤- ما ابتداء خلق جميع البشر إلا كخلق نفس واحدة ، وما بعثهم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة ، لأن اللّه تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلقه للعالم كخلقه لنفس واحدة ، وإن اللّه سميع لما يقولون ، بصير بما يفعلون.

٥- قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آية سماوية دالة على قدرة اللّه تعالى ، وقوله :

وَسَخَّرَ .. أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال ، وإتماما للمنافع ، وجعل الطلوع والغروب في وقت محدد لا يتجاوزه ولا يقصر عنه ، وينتهي وجودهما بانتهاء السموات والأرض يوم القيامة.

ومن قدر على هذه الأشياء ، فلا بدّ من أن يكون عالما بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم. وقد فعل اللّه تعالى ذلك (الزيادة والنقص في الليل والنهار وتسخير

ج ٢١ ، ص : ١٧٥

النيرين) لتعلموا وتقرّوا بأن اللّه هو الإله الحق ، وأن ما عداه باطل زائل لا وجود له ولا حقيقة له ، وأن اللّه هو العلي في مكانته ، الكبير في سلطانه.

(١٧٨/٢١)

٦- قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي آية أرضية دالة على قدرة اللّه تعالى ، فهو الذي جعل الماء قادرا على حمل السفن ، وسيّرها إما بالهواء ، وإما بتعليم الإنسان وإلهامه الاستفادة من الطاقة البخارية أو النفطية أو الذرية أو الكهربائية لجريها السريع.

كل ذلك ليرينا اللّه تعالى بعض آياته ، ويجعلنا نشاهد بعض مظاهر قدرته في البحار ، وفي ذلك علامات وعبر وعظات لكل صبّار على قضاء اللّه ، شكور على نعمائه ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث المتقدم تخريجه : « الإيمان نصفان : فنصف في الصبر ، ونصف في الشكر » .

وقال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين : الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله تعالى : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

الأمر بتقوى اللّه وبيان مفاتح الغيب [سورة لقمان (٣١) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

الإعراب :

وَاخْشَوْا يَوْماً يَوْماً منصوب على أنه مفعول وَاخْشَوْا ولا يجوز أن يكون ظرفا ، لأنه يصير الأمر بالخشية في يوم القيامة ، ويوم القيامة ليس بيوم تكليف ، وإنما هو يوم الجزاء.

ج ٢١ ، ص : ١٧٦

(١٧٩/٢١)

وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ مرفوع معطوف على والِدٌ المرفوع الذي هو فاعل يَجْزِي وهُوَ تأكيد لما في مَوْلُودٌ من الضمير ، ولا يجوز أن يكون هُوَ ضمير فصل ، لأن الفصل لا يدخل بين النكرتين.

ما ذا تَكْسِبُ غَداً ما ذا منصوب ب تَكْسِبُ لا ب تَدْرِي لأن الاستفهام ينتصب بما بعده لا بما قبله ، هذا إذا جعل (ما وذا) بمنزلة شيء واحد ، فإن جعلا بمنزلة كلمتين ، وجعلا بمنزلة (الذي) وجعل موضع ما ذا مرفوعا ، لم يجز نصبه ب تَدْرِي لما ذكر ، وإنما نحكم على موضع الجملة بالنصب بدخوله عليها.

المفردات اللغوية :

اتَّقُوا رَبَّكُمْ خافوا عقابه. لا يَجْزِي لا يقضي فيه ، أو لا يغني. وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ إن تغيير النظم بين يَجْزِي وجازٍ للدلالة على أن المولود أولى بألا يجزي ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة. إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي وعده بالبعث وبالثواب والعقاب صدق لا يمكن إخلافه. فَلا تَغُرَّنَّكُمُ فلا تخدعنكم.

وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ في حلمه وإمهاله. الْغَرُورُ الشيطان وكل ما غرّ الإنسان من مال وجاه ، والشيطان يرجّي بالتوبة والمغفرة ، فيجسّر على المعاصي.

عِلْمُ السَّاعَةِ علم وقت قيام القيامة. وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ بوقت يعلمه. ما فِي الْأَرْحامِ من الذكورة والأنوثة ، والتمام والنقص ، والحياة والموت ، وغير ذلك من خواص الجنين وأحواله وأعراضه. ما ذا تَكْسِبُ غَداً من خير أو شر ، وتنفيذ العزم على شيء وخلافه. بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ أي كما لا تدري في أي وقت تموت ، واللّه يعلمه وحده. عَلِيمٌ بكل شيء ، يعلم الأشياء كلها. خَبِيرٌ يعلم الباطن والظاهر.

سبب النزول : نزول الآية (٣(٤) :

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية هو الحارث بن عمرو « ١ » ، فقال : إن امرأتي حبلى فأخبرني بما تلد ، وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل اللّه : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الآية.

---

(١) في رواية قتادة : اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة.

المناسبة :

بعد ذكر دلائل التوحيد من أول السورة إلى آخرها ، أمر اللّه تعالى بتقوى اللّه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة ، لأنه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى البالغة ، وأنذر الناس يوم المعاد ، وأخبر بأنه حق كائن ، ثم أردفه ختاما للسورة ببيان ما استأثر اللّه بعلمه ، وهي مفاتح الغيب الخمسة ، لأنه بعد هذا الإنذار كأن قائلا قال : فمتى يكون هذا اليوم ؟ فأجيب بأن العلم بهذه الأمور لا يحصل لغير اللّه ، ولكن يوم المعاد كائن لا بد منه ، وإن لم يعلم الناس وقته ، واللّه قادر عليه.

التفسير والبيان :

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً أي يا أيها البشر من كفار ومؤمنين خافوا اللّه الذي خلقكم ورزقكم ، وسخر لكم هذا الكون ، واحذروا عقابه ، واخشوا يوما شديد الهول هو يوم القيامة الذي لا يغني فيه والد عن ولده ، فلو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، ولا مولود هو مغن عن والده أو نافع والده شيئا ، فلو أراد فداء والده بنفسه ، لم يقبل منه ، إذ لا يستطيع أحد أن يشفع بأحد إلا بإذن اللّه ، ولا جدوى عند اللّه إلا بالعمل الصالح الحاصل في الحياة الدنيا.

ثم أخبر اللّه تعالى عن حدوث هذا اليوم حتما ، فقال :

(١٨١/٢١)

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي إن وعد اللّه بالبعث وبالثواب والعقاب أمر ثابت مؤكد حصوله ، ولا شك فيه ، ولا خلف لوعده.

ومقتضى التخويف الإعداد لهذا اليوم وترك التعلق بالدنيا ، فقال تعالى :

فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ أي لا تخدعنكم زينة

ج ٢١ ، ص : ١٧٨

الدنيا ، فتطمئنوا فيها ، وتميلوا إليها ، تاركين الاستعداد للآخرة ، ولا يخدعنكم الشيطان بحلم اللّه وإمهاله ، فيعدكم بالمغفرة ، ويحملكم على المعصية بتزيينها لكم ، وينسيكم الآخرة ، كما قال تعالى : يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً [النساء ٤/ ١٢٠].

وفي الآية دلالة واضحة على أن الدنيا غرّارة بزخارفها ومتاعها ، وأن الشيطان بوساوسه يقوي هذا الغرور بالدنيا ، لصرف الناس عن الآخرة والتزود لها بصالح الأعمال.

وقيل : الغرور : الدنيا ، وقيل : تمني المغفرة في المعصية ، والأماني الباطلة برحمة اللّه واعتماده على شفاعة شافع أو كونه مسلما محبا اللّه ورسوله بقلبه دون عمل ، قال سعيد بن جبير رضي اللّه عنه : الغرة باللّه : أن يتمادى الرجل في المعصية ، ويتمنى على اللّه المغفرة. وقد ردّ القرآن على هذه

التمنيات بقوله تعالى :

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً [النساء ٤/ ١٢٣].

ثم ذكر اللّه تعالى مفاتح الغيب الخمسة التي استأثر اللّه بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلام بها ، فقال :

١- إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أي إن علم وقت الساعة (أي القيامة) مختص باللّه سبحانه ، فلا يعلم أحد بوقته سواه ، لا ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، كما قال : لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ [الأعراف ٧/ ١٨٧].

(١٨٢/٢١)

٢- وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ أي ويختص تعالى أيضا بمعرفة وقت إنزال المطر ومكانه المعين ، لا يعلمه إلا اللّه ، فإن أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء اللّه من خلقه.

ج ٢١ ، ص : ١٧٩

و أما نشرة الأرصاد الجوية في أيامنا فتعتمد على بعض الحسابات والأمارات ، وما ترصده بعض الأجهزة المخصصة لمعرفة نسبة الرطوبة وسرعة الرياح ، فليس ذلك غيبا ، وإنما هو تخمين وظن ، قد يحدث نقيضه ، كما أن معرفته تكون قبل مدة قريبة ، يلاحظ فيها اتجاهات الرياح والمنخفضات الآتية من الشمال أو من الغرب مثلا.

٣- وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ أي لا يعلم أحد إلا اللّه ما في الأرحام من خواص الجنين وأحواله العارضة له من طبائع وصفات وذكورة وأنوثة ، وتمام خلقة ونقصها ، فإن توصل العلماء بسبب التحليل الكيميائي كون الجنين ذكرا أو أنثى ، فلا يعني ذلك غيبا ، وإنما بواسطة التجربة ، وتظل أحوال أخرى كثيرة مجهولة للعلماء ، لا تعلم إلا بعد الولادة. قال القرطبي : وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك « ١ » .

٤- وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً أي لا تعلم نفس ماذا تكسب في الغد من خير أو شر في دنياها وأخراها.

٥- وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ أي وما تعلم نفس موضع موتها ، في بلدها أو غيرها من بلاد اللّه ، لا علم لأحد بذلك.

روي أن ملك الموت مرّ على سليمان ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ، يديم النظر إليه ، فقال الرجل : من هذا ؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدني ، وسأل سليمان أن يحمله على الريح ،

ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظري إليه تعجبا منه ، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٨٢

ج ٢١ ، ص : ١٨٠

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ أي إن علم اللّه غير مختص بهذه الأمور الخمسة ، بل هو عليم مطلقا بكل شيء ، وليس علمه علما بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه ، يعلم بواطن الأمور وظواهرها.

ويلاحظ أنه جعل العلم للّه في قوله : عِلْمُ وَيَعْلَمُ والدراية للعبد في قوله : وَما تَدْرِي نَفْسٌ لما في الدراية من معنى الختل والحيلة والمعنى :

أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها.

ونظير الآية : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ [الأنعام ٦/ ٥٩].

و

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

ويلاحظ أن هذه الأمور الخمسة تشتمل على الدليلين المكررين في القرآن لإثبات البعث :

أحدهما- إحياء الأرض بعد موتها ، حيث قال تعالى هنا : وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وقال في موضع آخر : فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى [الروم ٣٠/ ٥٠] وقال تعالى : وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ [الروم ٣٠/ ١٩].

و الثاني- الخلق ابتداء ، حيث قال هنا : وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وقال في موضع آخر : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [الروم ٣٠/ ٢٧] وقال :

قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ [العنكبوت ٢٩/ ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- وجوب الخوف من اللّه تعالى وتوحيده ، وخشية يوم المعاد الذي لا بد من حصوله.

٢- البعد عن الاغترار بزينة الحياة وزخارفها ، والاتكال عليها والركون إليها ، وترك العمل للآخرة.

٣- إن الدنيا غرارة ، وإن الشيطان يغرّ الناس ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة ، فيصبح الإنسان مغرورا يعمل بالمعصية ويتمنى بالمغفرة!! ٤- لا يعلم أحد إلا اللّه تعالى بأمور خمسة : هي وقت الساعة ، ووقت إنزال الغيث ومكانه ، وعلم ما في الأرحام من أحوال الجنين وأوصافه العارضة له ، وأعمال المستقبل القريب والبعيد ، ومكان وفاة الإنسان.

قال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا اللّه تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل فمن ادّعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه.

أما الأنبياء فيعلمون كثيرا من الغيب بتعريف اللّه تعالى إياهم. وبذلك يبطل كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء « ١ » عالمين بالغيبيات.

---

(١) الأنواء : جمع نوء : وهو سقوط نجم في المنازل في المغرب مع الفجر ، وطلوع آخر من المشرق يقابله في ساعته ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة السجدة

مكية ، وهي ثلاثون آية.

تسميتها وفضلها :

سميت سورة السجدة لما فيها من وصف المؤمنين الذين يسجدون للّه تعالى ويسبحونه عند سماع آيات القرآن العظيم : إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [١٥].

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقرأ في الفجر

يوم الجمعة الم تَنْزِيلُ السجدة ، وهَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ [الإنسان ٧٦/ ١].

و

روى الإمام أحمد عن جابر رضي اللّه عنه قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا ينام حتى يقرأ الم تَنْزِيلُ السجدة ، وتَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ [الملك ٦٧/ ١].

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها وهي سورة لقمان من ناحية اشتمال كل منهما على أدلة التوحيد وهو الأصل الأول للعقيدة ، وبعد أن ذكر اللّه تعالى في السورة المتقدمة الأصل الثاني وهو الحشر أو المعاد ، وختم تلك السورة بهذين الأصلين ، بدأ هذه السورة ببيان الأصل الثالث وهو الرسالة أو النبوة ، فقال تعالى :

الم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ ...

ج ٢١ ، ص : ١٨٣

كذلك تعد بعض آيات هذه السورة شرحا وتفصيلا للسورة السالفة ، فقوله تعالى هنا : ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [٥] توضيح لقوله تعالى في بيان مفاتح الغيب هناك : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [٣٤].

وقوله سبحانه هنا : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ [٢٧] تفصيل لقوله هناك : وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ [٣٤].

وقوله هنا : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [٧] شرح لقوله هناك :

وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ [٣٤].

و قوله هنا : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ [٥] شرح لقوله هناك : وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً [٣٤].

وقوله هنا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ إلى قوله : قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [١٠- ١١] إيضاح لقوله :

وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ [٣٤].

موضوعها :

موضوع هذه السورة كموضوع سائر السور المكية وهو إثبات أصول الاعتقاد : « الإيمان باللّه واليوم الآخر والكتب والرسل والبعث والجزاء » ومحور الكلام إثبات (البعث) بعد الموت الذي أنكره

المشركون والماديون ، واتخذوه سببا لتكذيب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

مشتملاتها :

افتتحت السورة بتقرير كون القرآن العظيم بلا أدنى شك هو كتاب اللّه المنزل على رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإثبات رسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإبطال مزاعم المشركين بأن

ج ٢١ ، ص : ١٨٤

الرسول افترى هذا القرآن ، وبيان أنه لم يأتهم رسول مثله قبله.

ثم أوردت السورة أدلة وحدانية اللّه وقدرته من تدبيره الكون ، وخلقه الإنسان ورعايته له في أطواره التي يمر بها ، ثم بعثه الخلق مرة أخرى ليوم مقداره ألف سنة مما تعدّون ، بأسلوب يرد على إنكار المشركين البعث والنشور ، لظنهم بسبب عجزهم أن التفتت إلى ذرّات مبعثرة مشتتة يحيل بعدئذ تجمعها وإعادتها إلى خلق جديد.

(١٨٧/٢١)

ثم وصفت السورة حال المجرمين الكافرين وحال المؤمنين الطائعين للّه ، فالأولون تلبسهم الذلة والمهانة ، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، ويذوقون العذاب الأليم. والمؤمنون لا تفارقهم في الدنيا الطاعة في الليل والنهار ، ويدعون ربهم خوفا وطمعا ، وينفقون أموالهم في مرضاة اللّه ، ولهم في الآخرة جزاء عملهم الثواب الجزيل ، والفضل العظيم الذي تقرّ به أعينهم ، وجنات المأوى والاستقرار والخلود.

وعقّبت السورة على حال هذين الفريقين باستبعاد التسوية بينهما إذ لا يعقل مكافأة العصاة كمكافأة الطائعين.

ثم ختمت السورة بتقرير ما بدأت به ، فذكرت الرسالة ، وأبانت الهدف من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وهو هداية بني إسرائيل ، تنبيها على وجه الشبه بين رسالة محمد ورسالة موسى عليهما الصلاة والسلام.

ثم ذكرت التوحيد والقدرة وأقامت البرهان عليهما بإهلاك الأمم الظالمة في الماضي ، وأخيرا أكدت حدوث الحشر الذي استبعد الكفار حصوله.

فصار مطلع السورة ومضمونها وخاتمتها إثبات أصول العقيدة وهي كما ذكرت : التوحيد ، والرسالة ، والبعث.

ج ٢١ ، ص : ١٨٥

إثبات النبوة (الرسالة) [سورة السجده (٣٢) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

الإعراب :

تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، لا رَيْبَ فِيهِ تَنْزِيلُ : مبتدأ ، ولا رَيْبَ فِيهِ : خبره.

(١٨٨/٢١)

و يجوز جعل تَنْزِيلُ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، ويجوز أن يكون لا رَيْبَ فِيهِ في موضع نصب على الحال من الْكِتابِ ومِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ خبر المبتدأ ، ومِنْ : متعلقة بالخبر المحذوف. وإذا جعلت لا رَيْبَ فِيهِ خبر المبتدأ كانت مِنْ متعلقة ب تَنْزِيلُ ومِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ خبر ثان.

المفردات اللغوية :

الم هذه الحروف الهجائية المقطعة سيقت كما بان سابقا للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن. تَنْزِيلُ الْكِتابِ أي إنزال القرآن ، أو المنزّل. لا رَيْبَ فِيهِ لا شك فيه. أَمْ بل. يَقُولُونَ : افْتَراهُ أي يقول المشركون : اختلقه محمد صلّى اللّه عليه وسلّم من عند نفسه ، منكرين كونه من رب العالمين. بَلْ هُوَ الْحَقُّ أي إن القرآن هو الحق الثابت المنزل من اللّه. ما أَتاهُمْ قَوْماً نافية. نَذِيرٍ منذر. لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بإنذارك.

قال في الكشاف وأوجز البيضاوي كلامه : إنه تعالى أشار أولا إلى إعجاز القرآن ، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكارا له وتعجبا منه ، فإن أَمْ منقطعة « ١ » ، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه

---

(١) هذه أَمْ المنقطعة التي تقدّر بمعنى : بل وألف الاستفهام ، أي بل أيقولون ؟ ! وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث.

ج ٢١ ، ص : ١٨٦

الحق المنزل من اللّه ، وبيّن المقصود من تنزيله ، فقال : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ إذ كانوا أهل الفترة ، لعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

التفسير والبيان :

(١٨٩/٢١)

الم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، لا رَيْبَ فِيهِ ، مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ افتتحت هذه السورة بهذه الأحرف كغالب السور المكية لبيان إعجاز القرآن وعظمته ، والرد على المشركين المنكرين نزوله من عند اللّه ، والمكذبين برسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم. هذا القرآن العظيم لا شك في أنه منزل من عند اللّه على قلب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فليس بسحر ولا شعر ولا سجع كاهن ، وإنما هو كلام رب العوالم جميعهم من إنس وجنّ ، وذلك رد على قولهم : وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان ٢٥/ ٥].

أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أي بل إنهم يقولون زورا وبهتانا : اختلقه وافتعله محمد من عنده ، فرد اللّه عليهم : بل هو الحق الثابت أي هو حق من اللّه ربه ، أنزله إليك لتخوف وتنذر به قوما- أي قريشا ونحوهم- بأس اللّه وعذابه إن كفروا وعصوا ، علما بأنه لم يأتهم نذير قبلك ، فتبين لهم طريق الرشاد ، ولعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

وهذا إثبات لرسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وبرهان واضح على صدقه ، وردّ لقول المشركين : إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ ، وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ [الفرقان ٢٥/ ٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات أن القرآن الكريم كلام اللّه الذي لا شك فيه أنه من عند

اللّه ، فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين ، كما يزعم المشركون الأفاكون الوثنيون ، والكفار المتعصبون لدين سابق.

وبعد أن أثبت اللّه تعالى أنه تنزيل من رب العالمين ، وأن ذلك مما لا ريب فيه ، أضرب عن ذلك (أي انتقل) إلى قوله : أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ثم كذبهم في دعوى الافتراء.

ثم بيّن اللّه تعالى مهمة القرآن والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهي إنذار الكافرين عذاب اللّه ، ومنهم قريش ، قال قتادة في تفسير قوله تعالى : قَوْماً يعني قريشا ، كانوا أمّة أمّية لم يأتهم نذير من قبل محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

دلائل التوحيد والقدرة الإلهية [سورة السجده (٣٢) : الآيات ٤ الى ٩]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٨)
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٩)
الإعراب :
كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ خلق : فعل ماض ، وموضع الجملة إما النصف صفة لكل ، وإما الجر
ج ٢١ ، ص : ١٨٨
صفة لشيء ، ومعناه : أحسن كلّ شيء مخلوق له. ومن قرأ بسكون اللام جعله بدل اشتمال أي بدلا من قوله تعالى : كُلَّ شَيْءٍ أو مفعولا ثانيا ل أَحْسَنَ بمعنى أفهم فيتعدى إلى مفعولين.
مِنْ وَلِيٍّ من زائدة لتأكيد النفي ، أي ليس لكم ناصر مطلقا.
البلاغة :
الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ بينهما طباق.
وَجَعَلَ لَكُمُ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وكان الأصل أن يقال : وجعل له فعدل إلى ضمير الجماعة ، مراعاة لخطاب الإنسان الذي صار حيّا بنفخ الروح فيه مع ذريته.
المفردات اللغوية :

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ من الأحد إلى الجمعة ، والأيام : جمع يوم ، وهو عند العرب جزء من اليوم ، ويراد به لغة : الوقت. اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ العرش : أعظم المخلوقات ، وهو لغة :
سرير الملك ، والاستواء عليه : هو شيء يليق باللّه عز وجل دون حصر ولا كيف ولا تحديد بجهة معينة. ما لَكُمْ أيها الكفار وغيركم. مِنْ دُونِهِ من غيره. مِنْ وَلِيٍّ أي ناصر. وَلا شَفِيعٍ يشفع بكم ليدفع العذاب عنكم. والمعنى : ليس لكم غير اللّه ناصر ولا شفيع ، بل هو الذي يتولى مصالحكم ، وينصركم في مواطن النصر. أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ بمواعظ اللّه فتؤمنوا ؟ ! يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ أي يدبر أمر الدنيا مدة بقائها ، وينظم شؤونها وأحوالها الواقعة فيها تدبيرا وتنظيما شاملا مبتدئا من السماء ومنتهيا إلى الأرض. ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ثم يصعد إليه ويرجع الأمر والتدبير ويثبت في علمه. فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ في الدنيا ، أي يصعد إليه في برهة من الزمان متطاولة وهو يوم القيامة ، وتقديره بألف سنة لشدة أهواله بالنسبة إلى الكافر ، وأما المؤمن فيكون أخف عليه من صلاة مكتوبة ، يصليها في الدنيا ، كما جاء في الحديث الثابت. ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي ذلك الخالق المدبر يدبر الكون على وفق الحكمة ، وعلى وفق علمه الشامل الذي يعلم ما غاب عن الخلق وما حضر ،

المنيع في ملكه ، الغالب على أمره ، الرحيم بأهل طاعته وتدبيره أمر العباد. قال البيضاوي : وفيه إيماء إلى أنه تعالى يراعي مصالح الناس تفضلا وإحسانا.

(١٩٢/٢١)

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ أي أتقن ما خلقه ، موفرا له كل ما يحتاجه على وفق الحكمة والمصلحة. وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ يعني آدم نَسْلَهُ ذريته ، سميت به لأنها تنسل منه أي تنفصل. مِنْ سُلالَةٍ نطفة. مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ممتهن ضعيف ، وهو النطفة. ثُمَّ سَوَّاهُ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي وأتّمه. وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ أضافه إلى نفسه تشريفا ،

ج ٢١ ، ص : ١٨٩

و إشعارا بأنه خلق عجيب ، وأن له شأنا ، والمعنى : جعله حيا حساسا بعد أن كان جمادا. وَجَعَلَ لَكُمُ لذريته. السَّمْعَ أي الإسماع. وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ خصص هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا. قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ تشكرون شكرا قليلا ، وما زائدة مؤكدة للقلة.

المناسبة :

بعد ما أثبت اللّه تعالى صحة الرسالة ، ذكر ما يجب على الرسول من الدعوة إلى توحيد اللّه ، وزوده بما يحتاجه من إقامة الأدلة والبراهين على ذلك ، لإنجاح مهمته.

التفسير والبيان :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أي إن اللّه تعالى هو خالق الأشياء ، فخلق السموات والأرض وأبدعهما وفطرهما وما بينهما لا على مثال سابق ، في مدة ستة أيام ، أي في أجزاء ستة من الوقت ، ليست هي الأيام المعروفة لأنه قبل خلقها لم يكن ليل ولا نهار. وقال الحسن البصري :

« من أيام الدنيا » ولو شاء لخلقها بلمح البصر ، ولكن أراد أن يعلّم عباده التأني في الأمور.

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ أي استولى على ملكه يدبر أمره ويحكم شأنه ، أو استوى استواء يليق بجلاله وعظمته على العرش الذي هو أعظم المخلوقات ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، ولا يحده زمان ومكان ، ولا تدركه الأبصار إدراك إحاطة وشمول ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير.

(١٩٣/٢١)

ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أي ليس لكم أيها الناس ، ولا سيما الكفار من غير اللّه ناصر يدفع عنكم عذابه ويلي أموركم ، ولا شافع يشفع لكم عنده إلا بإذنه ، بل هو المالك المطلق لكل شيء ، فيتولى ما فيه المصلحة ، ويدبر الأمور ، دون تدخل من أحد ، ولا حاجة لأحد لأنه وحده القادر على كل شيء ، والمهيمن على جميع الأشياء.

ج ٢١ ، ص : ١٩٠

أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ ؟ أي أفلا تتدبرون وتتعظون ، فتؤمنوا باللّه وحده لا شريك له. ولا نظير ولا وزير ، ولا عديل له ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه.

والمراد : حمل الناس على الإيمان باللّه إلها وربا ، يعبد وحده ، ويطاع لذاته ، فهو المستعان على كل أمر ، وهو المانع من السوء ، والجالب للخير والنفع ، والمحقق للمصلحة ، دون حاجة لأحد ولا لشيء ، لذا قال مبينا الأمر بعد بيان الخلق : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ [الأعراف ٧/ ٥٤].

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ أي يدبر أمر الكون كله في العالم العلوي والسفلي ، ثم يصعد إليه أثر الأمر وتنفيذه بواسطة الملائكة ، وهذا تمثيل لعظمة اللّه وامتثال المخلوقات جميعا لمراده وتدبيره ، كالحاكم المطلق الذي يصدر أوامره ، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها.

فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أي ترفع الأمور الحاصلة في الدنيا صغيرها وكبيرها إلى اللّه تعالى يوم القيامة ليفصل فيها ويحكم في شأنها ، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي نعدّها في هذه الحياة.

والمراد بالألف : الزمن المتطاول الذي هو في لغة العرب أقصى نهاية العدد.

(١٩٤/٢١)

و في موضع آخر وصف اللّه تعالى مقدار هذا اليوم بخمسين ألف سنة : فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج ٧٠/ ٤] قال القرطبي : المعنى أن اللّه تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ، قاله ابن عباس ، والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر.

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام فمنه ما مقداره ألف سنة ، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة « ١ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٨٨

ج ٢١ ، ص : ١٩١

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أي المدبر لهذه الأمور هو العالم بجميع الأشياء ، يعلم ما يغيب عن الأبصار ، مما يجول في خلجات النفس ، وما لا تدركه العين المجردة ، ويعلم ما هو مشاهد

تعاينه الأبصار ، وهو العزيز الذي قد عزّ كل شيء ، فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، القوي الشديد في انتقامه ممن كفر به وأشرك معه غيره ، وكذب رسله ، وهو الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين القانتين التائبين الذين يعملون الصالحات ، يرحمهم في تدبير شؤونهم في الدنيا وفي الآخرة.

وبعد إثبات الوحدانية بالآفاق من خلق السموات والأرض ، ذكر تعالى الدليل الدال عليها من الأنفس ، فقال :

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ أي إن ذلك المدبر للأمور العليم الخبير القوي الرحيم هو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها ، وبدأ خلق أبي البشر آدم من طين ، والطين مكوّن من ماء وتراب.

وكذلك يعتمد الإنسان في تكوينه وبقاء حياته على الطين لأن المني ناشئ من الغذاء ، والغذاء إما من الحيوان وإما من النبات ، وكلاهما يعتمد على ما تخرجه الأرض الترابية.

(١٩٥/٢١)

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ أي ثم جعل ذرية الإنسان يتناسلون من امتزاج نطفة الرجل بماء المرأة الذي فيه البويضة التي تتلقح بنطفة الرجل ، فيتم التوالد والتناسل وبقاء النوع الإنساني من خلاصة من ماء ضعيف ممتهن عادة وهو المني.

ثُمَّ سَوَّاهُ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ أي ثم بعد خلقه من تراب جعله سويا مستقيما ، فقوّم أعضاءه ، وعدّلها ، وأتمها ، ونفخ فيه الروح التي هي من أمر اللّه والتي لا يعرف حقيقتها إنسان ، فبدأ

ج ٢١ ، ص : ١٩٢

يتحرك وينمو ، وأنعم عليكم بالحواس مفاتيح المعرفة وصمامات الأمان ، فمنحكم السمع الذي تسمع به الأصوات ، والأبصار التي تبصر بها المرئيات ، والعقول التي تفكرون بها ، وتميزون بين الخير والشر ، والحق والباطل.

وهكذا يلاحظ التدرج في الخلقة وأطوار الإنسان ، فهو ينشأ أولا من مادة هي الطين اللازب ، ثم تصبح هذه المادة ذات إفرازات حية ، يتم بها تكوين الجنين ، ثم تتحرك المادة بالروح التي هي من الحق تعالى ، فيصبح خلقا جديدا سويا في أحسن تقويم ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أي أنكم أيها الناس لا تقابلون هذه النعم بالعرفان والوفاء ، والشكر والامتنان ، وإنما تشكرون ربكم قليلا على هذه النعم التي رزقكم اللّه تعالى ، باستعمال تلك الحواس في طاعة اللّه واتباع مرضاته.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- هناك دلائل كثيرة على توحيد اللّه وكمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، منها إبداع السموات والأرض وإيجادها بعد العدم ، وبعد أن لم تكن شيئا ، في أجزاء من الزمن اللّه أعلم بمقدارها ، وقد قرّبها لعقولنا وعبر عن طولها بقوله فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

و قد اختلف المفسرون في تفسير هذه الأيام الستة ، فقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق اللّه فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سنيّ الدنيا.

وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة أي في مدة ستة أيام من أيام الآخرة.

٢- والاستواء على العرش استواء يليق بجلال اللّه وكماله دون تحديد ولا

حصر ، وهو الأصح أو التمكن والسلطة على الكون المخلوق حاصل مع خلق السموات والأرض ، فليست ثُمَّ للترتيب ، وإنما هي بمعنى الواو.

٣- إن اللّه عز وجل ولي المؤمنين الذي يتولى مصالحهم وناصرهم وشفيعهم ، فإذا تجاوز الناس رضاه لم يجدوا لأنفسهم وليا ، أي ناصرا ينصرهم ولا شفيعا يشفع لهم ، وعليه ، ليس للكافرين من ولي يمنع عنهم العذاب ، ولا شفيع يتوسط لهم فيرفع عنهم العقاب.

فهل من متذكر معتبر في قدرة اللّه ومخلوقاته ؟ ! ٤- ويأتي الأمر بعد الخلق ، للدلالة على عظمة اللّه ، فإن نفاذ أمر اللّه في الكون دليل على عظمته ، لذا كان الأمر والتدبير في الكون وإنزال القضاء والقدر ، ونفاذ هذا التدبير من مظاهر عظمة اللّه تعالى ، ومجموع هذه الأوامر النافذة كلها عائد إلى اللّه يوم القيامة ، فقوله : ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ معناه يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ، فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ هو يوم القيامة ، وقد يكون لشدة أهواله وبحسب أحوال بعض الناس في مدة مقدارها خمسون ألف سنة ، كما قال تعالى : تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج ٧٠/ ٤].

و رأى الزمخشري في الكشاف أن المراد من الأمر : المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض ، ثم يصعد إليه المأمور خالصا في مدة متطاولة لقلة عمال اللّه والخلّص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ، ثم يثبت ذلك الأمر الصاعد ويصير إلى اللّه في كل وقت إلى أن تبلغ المدة آخرها في يوم القيامة الذي هو من أيام اللّه ، ويوم اللّه كألف سنة ، ثم يدبر اللّه أيضا الأمر ليوم آخر ، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة « ١ »

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٢٢- ٥٢٣

ج ٢١ ، ص : ١٩٤

٥- اللّه تعالى في خلقه وتدبيره وحسمه أمر الدنيا بالقيامة يعلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم ، فلا تفوته مصلحة ، ولا تخفى عليه خافية من أعمال المخلوقات. وفي هذا الكلام معنى التهديد والوعيد ، يراد به أن أخلصوا أفعالكم وأقوالكم ، فإني أجازي عليها.

٦- للّه القدرة البالغة التي لا توصف عظمتها وحدودها ، فقد خلق أصل الإنسان من طين ، ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من ماء ممتهن ضعيف ، ثم أكمله وأتمه وعدّله ونفخ فيه الروح ، وخلق فيه حواس السمع والبصر والعقل أدوات المعرفة ووسائل إدراك الحق والهدى ، وتلك نعم عظمي تستحق الشكر والوفاء بالمعروف ، لكن أكثر الناس كافرون لا يشكرون ، وقليل من عباده الشكور.

ويلاحظ أن الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة لأن الإنسان يسمع أولا الأمور فيفهمها ، ثم يبصر الأمور ، ثم يحصل له بعد السمع والبصر الإدراك التام والذهن الكامل ، فيستخرج الأشياء مما سمع ورأى.

و سبب ذكر السمع مصدرا ، والأبصار والأفئده اسما ، فجمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع : هو لحكمة هي أن الإنسان لا يسمع في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ، ولا اختيار لمحل السمع وهو الاذن ، ويدرك في زمان واحد صورتين فأكثر بالعين ويعيهما ويستبينهما في القلب ، ولمحل البصر وهو العين شبه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون غيره ، وكذلك الفؤاد محل الإدراك له نوع اختيار ، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة ، وفي الأبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة.

ج ٢١ ، ص : ١٩٥

إثبات البعث وحال الكفار يوم القيامة [سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٠ الى ١٤]

وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١(١) وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١(٢) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١(٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

الإعراب :

أَإِذا ضَلَلْنا إِذا : ظرف متعلق بفعل مقدر ، تقديره : أنبعث إذا ضللنا في الأرض ، أي غبنا وبلينا.

إِذِ الْمُجْرِمُونَ إِذِ تتعلق ب تَرى والْمُجْرِمُونَ مبتدأ ، وناكسو رؤوسهم :

خبره ، ورَبَّنا أَبْصَرْنا تقديره : يقولون : ربنا أبصرنا ، فحذف القول ، كما هو المعتاد الكثير في كلام العرب.

البلاغة :

أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ، أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ استفهام إنكاري بقصد الاستهزاء.

رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فيه إضمار تقديره : يقولون : ربنا أبصرنا وسمعنا.

ج ٢١ ، ص : ١٩٦

ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ تقديم الجار والمجرور للاختصاص ، أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ .. حذف جواب « لو » للتهويل. أي لرأيت أمرا مهولا.

نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ بينهما مشاكلة : وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فإن اللّه تعالى لا ينسى ، وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي.

المفردات اللغوية :

وَقالُوا أي منكرو البعث. ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ غبنا فيها وبلينا وهلكنا ، بأن صرنا ترابا مختلطا بتراب الأرض لا نتميز منه. أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي أنبعث أو يجدد خلقنا ، والقائل أبي بن خلف ، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. وهو استفهام إنكار غرضه الاستهزاء. بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ أي بل هم بالبعث جاحدون.

قُلْ لهم. يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ أي يقبض أرواحكم ملك الموت ، حتى لا يبقى أحد منكم. ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أي تعودون أحياء للحساب والجزاء ، فيجازيكم ربكم بأعمالكم.

الْمُجْرِمُونَ الكافرون. ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ خافضوها ومطأطئوها حياء وخزيا.

رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا أي يقولون : يا ربنا أبصرنا ما وعدتنا من البعث وسمعنا منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه. فَارْجِعْنا إلى الدنيا لنعمل صالحا فيها. إِنَّا مُوقِنُونَ الآن ، ولم يبق لنا شك بما شاهدنا ، ولكن لا ينفعهم ذلك ، ولا يرجعون. وجواب وَلَوْ تَرى .. محذوف تقديره : لرأيت أمرا فظيعا مهولا.

(٢٠٠/٢١)

وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها أي ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له والاختيار من النفس. وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي أي ثبت قضائي وسبق الْجِنَّةِ الجن.

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي تقول لهم خزنة النار إذا دخلوها : ذوقوا العذاب بترككم الإيمان باليوم الآخر ، فهذا سبب العذاب. إِنَّا نَسِيناكُمْ تركناكم في العذاب ترك المنسي.

وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ أي عذاب جهنم الدائم. بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الكفر وتكذيب الرسل. وقد كرر الأمر للتأكيد. وفي التعليل بأمرين : وهما الأفعال السيئة من التكذيب والمعاصي ، وترك التفكر في أمر الآخرة دلالة على أن كلا منهما يقتضي ذلك.

المناسبة :

بعد بيان الوحدانية ودليلها في قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ

ج ٢١ ، ص : ١٩٧

وَ الْأَرْضَ

و بيان الرسالة وبرهانها في قوله سبحانه : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ أخبر اللّه تعالى عن البعث وطريق إثباته للرد على المشركين المنكرين له ، وهذا على عادة القرآن كلما ذكر أصلين من أصول الاعتقاد الثلاثة ذكر الأصل الثالث ، وهو هنا الحشر في قوله تعالى : وَقالُوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ.

التفسير والبيان :

(٢٠١/٢١)

وَ قالُوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ : أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ أي يخبر اللّه تعالى عن المشركين الذين استبعدوا المعاد حيث قالوا : أءذا صارت أجسامنا ترابا في الأرض ، أيمكن أن نعود خلقا جديدا بعد تلك الحال ؟ ! وهذا الاستبعاد إنما هو بتقديرهم وقياسهم حيث قاسوا قدرة اللّه على قدراتهم ، فهم يرون أن البعث بعيد بالنسبة إلى قدراتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الإله الخالق الذي بدأهم

وخلقهم من العدم ، والذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كُنْ فَيَكُونُ ولهذا قال تعالى منكرا قياسهم وآراءهم :

بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ أي إن هؤلاء المشركين لم ينكروا قدرة اللّه على ما يشاء فحسب ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار البعث ، فهم جاحدون لقاء ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

فرد اللّه عليهم بقوله :

قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أي قل للمشركين يا محمد : إن ملك الموت الموكّل بقبض الأرواح يقبض أرواحكم في الوقت المحدد لانتهاء الأجل ، ثم في نهاية الدنيا بعد الموت ستعودون أحياء كما كنتم قبل الوفاة ، وذلك يوم المعاد وبعد القيام من القبور ، للحساب والجزاء ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته.

ج ٢١ ، ص : ١٩٨

و هذا إثبات للبعث مع التهديد والوعيد ، وبيان أن القادر على خلق الناس أول مرة قادر على إحيائهم مرة أخرى.

ثم أخبر اللّه تعالى عن حال المشركين حين معاينة البعث والحساب يوم القيامة فقال :

وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ أي ولو تشاهد أيها الرسول حين يقوم هؤلاء المشركون بين يدي ربهم خافضي رؤوسهم من الحياء منه والخزي والعار لرأيت عجبا وأمرا فظيعا ، فتراهم يقولون : ربّنا نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، لقد أبصرنا الحشر وسمعنا تصديقك للرسل فيما كذبناهم فيه ، فارجعنا إلى دار الدنيا نعمل ما يرضيك من صالح الاعتقاد والقول والعمل ، فهم يلومون أنفسهم حين دخول النار ، كما أخبر تعالى عنهم : وَقالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ [الملك ٦٧/ ١٠]. قال الزجاج في قوله تعالى : وَلَوْ تَرى : المخاطبة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم مخاطبة لأمته.

وإنا الآن قد أيقنا بوحدانيتك ، واستحقاقك العبادة دون غيرك ، وتحققنا أن وعدك بالبعث حق ولقاءك حق ، وأنك القادر على الإحياء والإماتة.

ولكن اللّه يعلم أنه لو أعادهم إلى الدنيا ، لكانوا فيها كفارا كما كانوا ، يكذبون بآيات اللّه ، ويخالفون رسله ، كما قال تعالى : وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ [الأنعام ٦/ ٢٧- ٢٨].

وقال تعالى هنا :

وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها أي ولو أردنا أن نوفق كل نفس

ج ٢١ ، ص : ١٩٩

و نلهمها الهداية إلى الإيمان والعمل الصالح لفعلنا ، كما قال تعالى في آية أخرى :

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً [يونس ١٠/ ٩٩].

و لكن حكمتنا قضت ترك أمر الإيمان والعمل الصالح للاستعدادات والخيار ، دون الإكراه والاضطرار ، كما قال سبحانه :

وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أي ولكن ثبت قضائي ، وسبق أنه لا بد من ملء جهنم من صنفي الجن والإنس الذين هم أهل لها بحسب استعدادهم وسوء اختيارهم ، وفحش اعتقادهم وعملهم ، فهم الظالمون أنفسهم ، وقد علم اللّه مسبقا قبل خلقهم أن مآلهم إلى النار ، فحقّ الوعيد ، وحق الجزاء.

لذا استحقوا أيضا التوبيخ ، فقال تعالى :

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، إِنَّا نَسِيناكُمْ ، وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم بيوم القيامة ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، وعملكم عمل الناسي له ، لذا فإنا سنعاملكم معاملة الناسي لأنه تعالى لا ينسى شيئا ، ولا يضل عنه شيء ، وهذا ما يسمى بأسلوب المقابلة أو المشاكلة ، مثل قوله :

وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا [الجاثية ٤٥/ ٣٤] وقوله :

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى ٤٢/ ٤٠].

ويقال لهم أيضا على سبيل التأكيد : وذوقوا عذاب النار الدائم الذي تخلدون فيه بسبب كفركم وتكذيبكم وسوء أعمالكم ، كما قال تعالى : لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً ، جَزاءً وِفاقاً ، إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً ، وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً ، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً [النبأ ٧٨/ ٢٤- ٣٠].

ج ٢١ ، ص : ٢٠٠

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- أنكر المشركون البعث لأنهم قاسوا قدرة اللّه الخالق على قدرة العبد المخلوق العاجز ، فقالوا : أءذا هلكنا وصرنا ترابا نخلق بعد ذلك خلقا جديدا ؟

٢- الحقيقة أن المشركين لا يجحدون قدرة اللّه تعالى بالإعادة لأنهم يعترفون بقدرته ، ولكنهم اعتقدوا ألا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون اللّه تعالى.

٣- من مظاهر قدرة اللّه سبحانه أنه المميت الذي يتوفى الأنفس ويقبض الأرواح عند انتهاء آجالها ، وأن ملك الموت واسمه عزرائيل ومعناه عبد اللّه يتصرف كل تصرفه بأمر اللّه تعالى وبخلقه واختراعه ، فيخلق اللّه على يديه قبض الأرواح ،

ذكر ابن عطية حديثا أن « البهائم كلها يتوفى اللّه أرواحها دون ملك الموت »

كأنه يعدم حياتها ، وكذلك الأمر في بني آدم ، فاللّه هو الفاعل حقيقة ، والملك واسطة ووكيل ، قال تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها [الزمر ٣٩/ ٢٤] وقال سبحانه : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ [الملك ٦٧/ ٢] وقال عز وجل : يُحْيِي وَيُمِيتُ [آل عمران ٣/ ١٥٦] فملك الموت يقبض ، والأعوان يعالجون ، واللّه تعالى يزهق الروح ، لكنه لما كان ملك الموت متولّي ذلك بالوساطة والمباشرة ، أضيف التوفّي إليه ، كما أضيف الخلق للملك.

روي أن ملك الموت لما وكله اللّه تعالى بقبض الأرواح قال : « ربّ جعلتني أذكر بسوء ، ويشتمني بنو آدم ، فقال اللّه تعالى له : إني أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها ، فلا يذكرك أحد إلا بخير » .

٤- استدل بعض العلماء بقوله تعالى : وُكِّلَ بِكُمْ أي بقبض الأرواح على جواز الوكالة.

ج ٢١ ، ص : ٢٠١

٥- إن حال المشركين يوم القيامة يدعو للعجب ، فهم عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم خافضو الرؤوس من الحياء والندم ، والخزي ، والذل والغم والحزن ، ويقولون : ربّنا أبصرنا ما كنا نكذب ، وسمعنا ما كنا ننكر ، فارجعنا إلى الدنيا نعمل العمل الصالحالذي يرضيك ، إنا مصدّقون بالبعث وبالذي جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلّم أنه حق.

قال سفيان الثوري : فأكذبهم اللّه تعالى ، فقال : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ [الأنعام ٦/ ٢٨].

وقال محمد بن كعب القرظيّ : لما قالوا : رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ، فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ ردّ

عليهم بقوله : وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا ، فلم يختلف منهم أحد وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أي حق القول مني لأعذبنّ من عصاني بنار جهنم ، وعلم اللّه تعالى أنه لو ردّهم لعادوا.

وهذه الهداية : معناها خلق المعرفة في القلب. وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله لأنه ينقض الغرض المجرى بالتكليف إليه ، وهو الثواب الذي لا يستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره.

وقالت الإمامية في تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على اللّه تعالى عندنا هداية الكل إليها قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله. وفي جواز ذلك منع لقطعهم بأن المراد : هداها إلى الإيمان.

وللإمامية جواب آخر : هو أن هداية اللّه سبحانه بالإلجاء والإجبار

ج ٢١ ، ص : ٢٠٢

(٢٠٦/٢١)

و الإكراه ممنوعة ، والمراد الهداية إلى الإيمان والطاعة بالاختيار ، حتى يصح التكليف ، فمن شاء اللّه آمن وأطاع اختيارا ، لا جبرا ، قال اللّه تعالى : لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ [التكوير ٨١/ ٢٨] وقال : فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا [الدهر ٧٦/ ٢٩] ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى : وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ [الدهر ٧٦/ ٣٠] فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاءوا إلا ان يشاء اللّه.

وتوسط أهل السنة فلم يقولوا بالإجبار كالمجبرة ، ولا بالاختيار المطلق كالقدرية ، وخير الأمور أوساطها ، وقالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، كالتفرقة بين حركة الارتعاش غير الإرادية وحركة الاختيار ، وسموا هذه المنزلة الوسطى كسبا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب اللّه العزيز ، وهو قوله سبحانه : لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ [البقرة ٢/ ٢٨٦].

٦- يقال للمجرمين يوم القيامة على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم رسل اللّه ، وإنكاركم البعث ، وتركككم العمل له كالناسين ، واللّه يعاملكم معاملة الناسي والمنسيين لأن الجزاء من جنس العمل ، وذوقوا العذاب المخلّد ، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم بسبب أعمالكم في الدنيا من المعاصي.

صفة المؤمنين في الدنيا وجزاؤهم عند ربهم في الآخرة [سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٥ الى ١٧]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجافى

جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)

ج ٢١ ، ص : ٢٠٣

الإعراب :

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ .. جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير خَرُّوا. وكذلك جملة يَدْعُونَ رَبَّهُمْ منصوبة على الحال ، وكذلك سُجَّداً حال ، وكذلك موضع وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وكذلك موضع مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ كلها منصوبات على الحال من ضمير خَرُّوا وسَبَّحُوا.

خَوْفاً وَطَمَعاً إما منصوبان على المفعول لأجله أو منصوبان على المصدر.

ما أُخْفِيَ لَهُمْ ما : إما اسم موصول بمعنى الذي ، وصلته أُخْفِيَ والعائد مقدر ، أي لهم ، وهو منصوب ب تَعْلَمُ. وإما استفهامية في موضع رفع مبتدأ ، وأُخْفِيَ خبره. هذا على قراءة أُخْفِيَ فعل مضارع. وأما على قراءة أُخْفِيَ المبني للمجهول ، يكون ما منصوبا ب أُخْفِيَ أي فلا تعلم نفس أي شيء أخفي لهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه تَعْلَمُ لأن الاستفهام له صدر الكلام ، فلا ينصب بما قبله وإنما ينصب بما بعده.

البلاغة :

خَوْفاً وَطَمَعاً بينهما طباق.

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ كناية عن كثرة العبادة ليلا.

المفردات اللغوية :

بِآياتِنَا القرآن ذُكِّرُوا وعظوا خَرُّوا سُجَّداً سقطوا ساجدين ، خوفا من عذاب اللّه وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ نزّهوه عما لا يليق به ، كالعجز عن البعث ، حامدين له ، خوفا من عذاب اللّه ، وشكرا على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى ، فقالوا : سبحان اللّه وبحمده وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن الإيمان والطاعة ، كما يفعل من يصرّ مستكبرا.

تَتَجافى ترتفع وتتنحى جُنُوبُهُمْ جمع جنب ، وهو شق الإنسان عَنِ الْمَضاجِعِ الفرش ومواضع النوم ، جمع مضجع ، وهو مكان النوم أو الاضطجاع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ داعين إياه خَوْفاً من سخطه وعقابه وَطَمَعاً في رحمته ، فسرها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بقيام العبد من الليل يُنْفِقُونَ يتصدقون ، أو ينفقون في وجوه الخير.

ج ٢١ ، ص : ٢٠٤

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ما أُخْفِيَ لَهُمْ خبئ لهم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ أي من شيء تقرّ به عيونهم وتسرّ ،

يقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة : « يقول اللّه : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ذخرا ، بله « ١ » ما أطلعكم عليه ، اقرؤوا إن شئتم : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

سبب النزول : نزول الآية (١٦) :

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ : أخرج البزار عن بلال قال : كنا نجلس في المسجد ، وناس من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية :

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ لكن في إسناده ضعيف. وذكره الواحدي النيسابوري عن مالك بن دينار قال : سألت أنس بن مالك عن هذه الآية فيمن نزلت ، فقال : كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يصلون من المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة ، فأنزل اللّه تعالى فيهم هذه الآية. وهذا مروي عن قتادة وعكرمة.

وأخرج الترمذي وصححه عن أنس : أن هذه الآية نزلت في انتظاره الصلاة التي تدعى « العتمة » أي العشاء.

و

عن معاذ بن جبل عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قوله : تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ قال : هي قيام العبد أول الليل.

وقال الحسن البصري ومجاهد ومالك والأوزاعي : نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل إلى الصلاة.

ويدل على صحة هذا السبب

ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم ، وابن جرير والحاكم وابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : « كنت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في سفر « ٢ » ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي

---

(١) بله : اسم فعل مبني على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ، فالذي لم يطلعكم أعظم.

)

(٢) في غزوة تبوك.

ج ٢١ ، ص : ٢٠٥

اللّه ، أخبرني عما يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار ، قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسّره اللّه تعالى عليه : تعبد اللّه ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت ثم قال :

أ لا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ : تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ- حتى بلغ- جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى ، يا رسول اللّه ، فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل اللّه ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى ، يا نبي اللّه ، فأخذ بلسانه ، ثم قال : كفّ عليك هذا ، فقلت : يا رسول اللّه ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمّك يا معاذ ، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم- أو قال على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم » .

المناسبة :

بعد بيان حال الكافرين في موقف الحساب يوم القيامة من ذلة وخزي وخجل ، وما يتعرضون له من عذاب شديد مخلّد ، أبان اللّه تعالى حال أهل الإيمان في الدنيا من طاعة ربهم وتعظيمه وحمده والتقرب إليه بالنوافل ، وما أعد لهم من نعيم وسرور ، جزاء على أعمالهم.

التفسير والبيان :

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ أي إنما يصدّق بآيات القرآن والآيات الكونية وبالرسل المرسلين

ج ٢١ ، ص : ٢٠٦

الذين إذا وعظوا بها واستمعوا لها بعد تلاوتها عليهم ، سقطوا بأعضائهم وجباههم ساجدين للّه ، تذللا وخضوعا ، وإقرارا بالعبودية ، ونزّهوه في سجودهم عما لا يليق به من أوضار الشرك كاتخاذ الصاحبة والولد والشريك ، حامدين ربهم على آلائه ونعمه ، أي جامعين بين التسبيح والتحميد بأن يقولوا : سبحان اللّه وبحمده ، سبحان ربي الأعلى ، وهم لأن قلوبهم عامرة بالإيمان لا يستكبرون عن طاعة ربهم ، واتباع الآيات والانقياد لها ، كما يفعل الكفرة الجهلة الفجرة الذين يتولون مستكبرين ، فلهم

عذاب أليم ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ [غافر ٤٠/ ٦٠].

هذه أوصاف المؤمنين : العبادة ، والتقديس مع الحمد ، والطاعة والانقياد ، ثم ذكر اللّه تعالى لهم أوصافا أخرى : هي التهجد أو قيام الليل ، والدعاء الخالص للّه ، والإنفاق في وجوه الخير : تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أي تترفع جوانبهم عن أماكن النوم والراحة ، يبادرون إلى قيام الليل تهنأ نفوسهم بمناجاة ربهم ، وتقرأ عينهم وترتاح ضمائرهم بالعبادة ، ويدعون ربهم دعاء خالصا موقنين بالإجابة ، خوفا من العقاب ، وطمعا بالرحمة وجزيل الثواب ، وينفقون بعض أموالهم في سبل الخير والبر ومرضاة اللّه ، فيجمعون بين فعل القربات الشخصية والقربات الاجتماعية.

(٢١١/٢١)

روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن مسعود عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبّه وأهله إلى صلاته ، رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ورجل غزا في سبيل اللّه تعالى ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه ، رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ، فيقول اللّه عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه » .

ج ٢١ ، ص : ٢٠٧

و

ذكر الثعلبي مرفوعا عن أسماء بنت يزيد قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا جمع اللّه الأولين والآخرين ، جاء مناد ، فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلّهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادي : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقومون ، وهم قليل ، ثم يرجع ، فينادي : ليقم الذين كانوا يحمدون اللّه على كل حال في السرّاء والضّرّاء ، فيقومون وهم قليل ، فيسرّحون جميعا إلى الجنة ، ثم يحاسب سائر الناس » .

ثم ذكر اللّه تعالى جزاء أولئك المؤمنين الموصوفين بما تقدم فقال :

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي فلا يعلم أحد على الإطلاق من الملائكة والرسل عظمة ما أخفى اللّه لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، جزاء عدلا مقابلا لصالح أعمالهم التي أخفوها فلم يراءوا بها الناس ، فأخفى اللّه ثوابهم.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال :

« قال اللّه تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »

قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ.

(٢١٢/٢١)

و روى الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « إنه لمكتوب في التوراة : لقد أعدّ اللّه تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، وإنه في القرآن :

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- من صفات المؤمنين أنهم يخرون سجدا للّه تعالى على وجوههم ، تعظيما

ج ٢١ ، ص : ٢٠٨

لآياته ، وخوفا من سطوته وعذابه ، وأنهم يقرنون التسبيح أي التنزيه بالتحميد ، فيقولون في سجودهم : سبحان اللّه وبحمده ، سبحان ربي الأعلى وبحمده أي تنزيها للّه تعالى عن قول المشركين.

وهم أيضا ينقادون لأمر ربهم ، فلا يستكبرون عن عبادته ، كما استكبر أهل مكة وأمثالهم بعدهم عن السجود للّه تعالى.

٢- ومن صفات المؤمنين أيضا : ملازمة قيام الليل ، أي صلاة التهجد في الثلث الأخير من الليل ، وقيل عن قتادة وعكرمة : التنفل ما بين المغرب والعشاء. ومع تجافي جنوبهم عن المضاجع هم أيضا في كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم ، خوفا من العذاب ، وطمعا في الثواب ، ويتصدقون بفضول أموالهم وتلك هي النوافل بعد أداء الزكاة المفروضة.

وقد وردت أحاديث كثيرة ذكرت بعضها في فضل قيام الليل.

٣- إن جزاء أولئك المؤمنين مفتوح وعظيم جدا ، لا يعلم حقيقته غير اللّه عز وجل ، فلا يدري أحد ما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا ملك.

وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلا ، كما

(٢١٣/٢١)

جاء مبيّنا في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قال : « سأل موسى عليه السلام ربّه فقال : يا ربّ ، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يأتي بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي ربّ ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربّ ، فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله معه ، ومثله ومثله ومثله ، فقال في الخامسة : رضيت ربّ ، فيقال : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذّت عينك ، فيقول : رضيت ربّ.

ج ٢١ ، ص : ٢٠٩

قال : فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر. قال :

ومصداقه من كتاب اللّه قوله تعالى : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

جزاء المؤمنين وجزاء الفاسقين [سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

البلاغة :

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى .. وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ بينهما ما يسمى بالمقابلة ، وذلك بين الوصفين والجزاءين.

الْأَدْنى الْأَكْبَرِ بينهما طباق لأن الأكبر هو الأقصى.

المفردات اللغوية :

مُؤْمِناً مصدقا باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره فاسِقاً كافرا خارجا من الإيمان والطاعة وأحكام الشرع ، فهو أعم من الكفر ، وقد يرادفه كما في آية : وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ [النور ٢٤/ ٥٥] وأصل الفسق : الخروج ،

ج ٢١ ، ص : ٢١٠

يقال : فسقت الثمرة : إذا خرجت من قشرها لا يَسْتَوُونَ المؤمنون والفاسقون في الشرف والمثوبة ، وجمع الفعل بعد كلمتي مُؤْمِناً وفاسِقاً للحمل على المعنى.

جَنَّاتُ الْمَأْوى جنات المسكن الحقيقي ، أما مساكن الدنيا فمرتحل عنها نُزُلًا المراد هنا : ثوابا وجزاء ، وأصل النزل : ما يعد للضيف من الطعام والشراب والمبيت ، ثم أطلق على كل عطاء بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

فَسَقُوا بالكفر وتكذيب الرسل أُعِيدُوا فِيها يراد به خلودهم فيها ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ .. إهانة لهم وزيادة في غيظهم الْعَذابِ الْأَدْنى أي الأقرب والأقل ، وهو عذاب الدنيا الذي تعرضوا له بالجدب سبع سنين والقتل والأسر والأمراض دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ أي قبل عذاب الآخرة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعل من بقي منهم يتوبون عن الكفر ، روي أن الوليد بن عقبة فاخر عليا يوم بدر ، فنزلت هذه الآيات.

(٢١/٢١٥)

بِآياتِ رَبِّهِ الآيات القرآنية والكونية ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها فلم يتفكر فيها. وثُمَّ لاستبعاد الإعراض عنها ، مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة ، بعد التذكير بها عقلا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ أي من المشركين منتقمون.

سبب النزول : نزول الآية (١٨) :

أخرج الواحدي وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب : أنا أحدّ منك سنانا ، وأبسط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له علي : اسكت ، فإنما أنت فاسق ، فنزلت أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ

قال : يعني بالمؤمن عليا ، وبالفاسق الوليد بن عقبة.

المناسبة :

بعد بيان حال المجرم والمؤمن ، سأل العقلاء : هل يستويان ؟ وبعد الجواب

ج ٢١ ، ص : ٢١١

أو البيان بأنهما لا يستويان ، ذكر اللّه تعالى تفاوتهما في المنزلة والحكم يوم القيامة ، عملا بمقتضى عدله وكرمه.

التفسير والبيان :

أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً ؟ لا يَسْتَوُونَ أي هل يستوي المؤمن باللّه ورسوله ، المطيع لأمر ونهيه ، والكافر الخارج عن طاعة ربه ، المكذب رسل اللّه إليه ؟ والجواب : لا يستوي المؤمنون والفاسقون عند اللّه يوم القيامة.

ونظير الآية قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ

[الجاثية ٤٥/ ٢١] وقوله سبحانه : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص ٣٨/ ٢٨] وقوله عز وجل : لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ [الحشر ٥٩/ ٢٠].

ثم ذكر اللّه تعالى جزاء الفريقين في الآخرة فقال :

١- أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى ، نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي إن الذين صدقت قلوبهم بآيات اللّه ورسله ، وعملوا صالح الأعمال ، فلهم جنات المأوى التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ، ثوابا وجزاء وتكريما لهم على أعمالهم الحسنة وأفعالهم الطيبة التي فعلوها في الدنيا.

وقوله في حق المؤمنين فَلَهُمْ بلام التمليك زيادة إكرام.

٢- وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ أي وأما الذين فسقوا أي كفروا باللّه ، وخرجوا عن الطاعة ، وعملوا السيئات ، فمأواهم النار التي يأوون إليها ويستقرون فيها ، ثم ذكر تعالى سوء حالهم فيها ، فقال :

ج ٢١ ، ص : ٢١٢

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها أي كلما عزموا على الخروج منها من شدة العذاب والأهوال ، أعيدوا فيها ، ودحروا إليها ، أي أنهم مخلّدون فيها ، كما قال تعالى : كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ ، أُعِيدُوا فِيها [الحج ٢٢/ ٢٢].

قال الفضيل بن عياض : واللّه إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم.

ويقال لهم تقريعا وتوبيخا وتهديدا :

وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ أي تذوقوا وتحملوا عذاب النار الذي كذبتم به في الدنيا فإن اللّه أعدّه للمشركين به.

وهناك عذاب آخر سابق له :

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي ولنذيقن الكفار والعصاة شيئا من العذاب الأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا من المصائب والآفات كالجوع والقتل والسبي ، قبل مجيء وحدوث العذاب الأشد الأعظم وهو عذاب القيامة ، ليرجعوا عن ضلالهم إلى الهدى والرشد ، ويثوبوا عن الكفر ، ويؤمنوا بربهم ، ويصدقوا برسولهم.

والترجي في قوله لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ محال على اللّه تعالى ، فيراد به تعليل ذلك الفعل بأمر الرجوع ، كما يقال : فلان اتجر ليربح ، أو يكون معناه :

لنذيقنهم إذاقة الراجين ، أو إذاقة يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه.

ثم ذكر اللّه تعالى سببا عاما للعقاب وهو ظلم الناس ، فقال :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ أي لا أحد أظلم ممن ذكّره اللّه بآياته القرآنية ومعجزات رسله ، وبيّنها

ج ٢١ ، ص : ٢١٣

له ووضحها ، ثم تركها بعد ذلك وجحدها ، وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها ، فإننا سننتقم أشد الانتقام من الكفار الذي كفروا باللّه واقترفوا المعاصي والمنكرات.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء في غير حق ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول اللّه تعالى : إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- ليس في حكم اللّه وعدله ولا في ميزان العقل السليم أن يسوّى بين المؤمن والفاسق في الثواب والجزاء في يوم القيامة.

٢- يترتب على نفي المساواة بين المؤمن والكافر منع القصاص- في رأي الجمهور غير الحنفية- بينهما إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول. ورأى أبو حنيفة قتل المسلم بالذمي ، وقال : أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب ، وفي الدنيا في العدالة.

وحمله الجمهور على عمومه ، إذ لا دليل يخصه.

٣- مقر المؤمنين في الآخرة ثوابا وجزاء : جنات المأوى ، أي يأوون إلى الجنات فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك الموضع يتضمن جنات.

ومقام الفاسقين الخارجين عن الإيمان إلى الكفر النار ، وهم فيها خالدون ،

---

(١) قال ابن كثير عن هذا الحديث : وهذا حديث غريب جدا. [.....]

ج ٢١ ، ص : ٢١٤

فكلما دفعهم لهب النار إلى أعلاها ، ردّوا إلى موضعهم فيها لأنهم يطمعون في الخروج منها.

وتقول خزنة جهنم لهم ، أو يقول اللّه لهم : ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ، ذوقا حسيا ومعنويا.

ويلاحظ من قوله تعالى : آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر ، أما الكفر إذا جاء فلا التفات بعده إلى الأعمال ، لذا قال تعالى :

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ولم يقل : وعملوا السيئات لأن المراد من فَسَقُوا كفروا.

٤- للكافرين أيضا عذاب آخر في الدنيا وهو مصائب الدنيا وأسقامها ، مما يبتلى به العبيد حتى يتوبوا. وينتظرهم العذاب الأكبر وهو عذاب يوم القيامة.

وذلك العذاب إنذار ، لعله يرجع من بقي منهم إلى الرشاد والهداية فإن عذاب الدنيا لا يقارن بعذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديدا ولا مديدا لأنه يعقبه الموت ، أما عذاب الآخرة فهو شديد ومديد.

٥- لا أحد أظلم لنفسه ممن ذكرت له آيات ربه أي حججه وعلاماته ، ثم أعرض عنها ، وترك قبولها ، فإن اللّه منتقم أشد الانتقام من المشركين لتكذيبهم وإعراضهم.

ج ٢١ ، ص : ٢١٥

عقد الصلة بين الرسالتين إنزال التوراة على موسى عليه السلام وموقف اليهود منها [سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

الإعراب :

مِنْ لِقائِهِ الهاء عائدة إلى الكتاب ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول ، والفاعل مقدر ، وتقديره : من

لقاء موسى الكتاب ، ويصح أن تكون عائدة إلى موسى ، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، والمفعول به محذوف وهو الْكِتابَ وتقديره : فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب ، وهو التوراة ، ويصح أن تكون عائدة إلى « ما لاقى موسى » وتقديره : فلا تكن في مرية من لقاء ما لاقى موسى من التكذيب والإنكار من قومه.

لَمَّا صَبَرُوا لَمَّا ظرف زمان بمعنى « حين » في موضع نصب ، والعامل فيه يَهْدُونَ ومن قرأ بالتخفيف وكسر اللام ، كانت لَمَّا مصدرية ، وتقديره : لصبرهم.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ هو هنا : ضمير فصل لأن يَفْصِلُ فعل مضارع ، ولو كان فعلا ماضيا لم يجز ، فإنهم يجيزون : زيد هو يقوم ، قال تعالى : وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ [فاطر ٣٥/ ١٠] وقال سبحانه : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ [التوبة ٩/ ١٠٤] ولا يجيزون : زيد هو قام. وإنما جاز لأن الفعل المضارع أشبه الأسماء شبها أوجب له الإعراب ، بخلاف الفعل الماضي.

المفردات اللغوية :

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة ، كما آتيناك. فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ لا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب ، كما قال تعالى : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ [النمل ٢٧/ ٦]

فإنا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه ، فليس ذلك ببدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه.

ويحتمل : من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى ، وقد التقيا ليلة الإسراء ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « رأيت ليلة أسري بي موسى عليه السلام رجلا آدم طوالا جعدا ، كأنه من رجال شنوءة » .

وَجَعَلْناهُ أي الكتاب المنزل على موسى. هُدىً هاديا. يَهْدُونَ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام. بِأَمْرِنا إياهم ، أو بتوفيقنا لهم. لَمَّا صَبَرُوا أي لصبرهم على طاعة دينهم وعلى البلاء في الدنيا. وَكانُوا بِآياتِنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا.

يُوقِنُونَ يصدقون ، لإمعانهم النظر فيها. يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يقضي ، فيميز الحق من الباطل والمحق من المبطل. يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين.

المناسبة :

بعد تقرير الأصول الثلاثة في أول السورة وهي التوحيد والبعث والرسالة ، عاد في آخرها إلى الأصل الثالث مرة أخرى وهو الرسالة المذكورة أولا في قوله تعالى : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ.

واختار موسى لقربه من محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ووجود من كان على دينه ، إلزاما لهم ، وإنما لم يختر ذكر عيسى عليه السلام لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته.
وأما النصارى ، فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام ، فذكر المجمع عليه.
التفسير والبيان :

(٢٢١/٢١)

لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ، فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ يخبر اللّه تعالى عبده ورسوله محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم بأنه آتى موسى عليه السلام التوراة ، فلا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب ، فإنا آتيناك القرآن كما آتينا موسى التوراة ، فأنت لست ببدع من الرسل قط ، كما قال تعالى : قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ [الأحقاف ٤٦/ ٩] والصلة قائمة بين الرسالتين والمهمة واحدة ، فإن التوراة جعل أيضا هاديا ومرشدا لبني إسرائيل ، كما أنك مرشد لأمتك ، كما قال تعالى : وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا [الإسراء ١٧/ ٢].
ج ٢١ ، ص : ٢١٧
و المقصود بالآية حمل اليهود على الإيمان برسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتحريض المشركين وغيرهم على التصديق بتلك الرسالة ، فإن التشابه بين الرسالتين قائم والمهمة واحدة ، وكذلك تسلية الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم عن حزنه الشديد بسبب إعراض قومه عن رسالته ، فإن موسى عليه السلام لقي من قومه الأهوال وأنواع الأذى ، فقالوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً [النساء ٤/ ١٥٣] ، وقالوا : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا [المائدة ٥/ ٢٤] ، واتخذوا العجل إلها ونحو ذلك.
وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ أي وجعلنا من بني إسرائيل قادة يدعون الناس إلى الخير والإيمان ، بإذننا وتوفيقنا وإعانتنا لهم لأنهم صبروا على طاعة دينهم وتصديق رسلهم واتباعهم ، وعلى البلاء الذي تعرضوا له في الدنيا ، كإيذاء فرعون لهم واستعباده إياهم ، وكانوا بآياتنا الدالة على الوحدانية والقدرة مصدقين على وجه اليقين.

(٢٢٢/٢١)

و هذا إيماء آخر إلى أن القرآن هاد للناس كالتوراة ، وأن أتباعه هداة مخلصون ، وهو أمر بالصبر والإيمان بأن وعد اللّه حق.
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ أي إن ربك يقضي يوم القيامة بين عباده

فيما اختلفوا فيه من أمور الاعتقاد والدين والحساب والثواب والعقاب ، والأعمال ، فيثيب المطيع بالجنة ، ويعاقب العاصي بالنار.

وهذا باعث آخر على الإيمان الصحيح والعمل الصالح ، وتهديد ضمني لمن يعرض عن هداية اللّه التي صارت متمثلة بالقرآن بعد فقد التوراة وافتقاد الأصل الصحيح للإنجيل.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

ج ٢١ ، ص : ٢١٨

١- لقد أنزل اللّه القرآن على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم كما أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، فالإيمان بهما والعمل بأحكامهما واجب ، إلا أن فقد التوراة جعل العمل بالقرآن من الناحية الواقعية متعينا ، كما أن المنزل عليه القرآن خاتم النبيين ، ونسخت رسالته بنص القرآن وتشريعه الرسالات السماوية السابقة ، حتى لو فرض بقاء شيء ثابت صحيح منها.

٢- إن أتباع محمد صلّى اللّه عليه وسلّم هم الدعاة إلى دين اللّه وشرعه ، كما أن أتباع موسى عليه السلام كانوا قادة يقتدى بهم في الدين ، ويدعون الناس إلى الإيمان بالأصل الصحيح للتوراة والإنجيل ، وإطاعة اللّه فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وذلك كله بإذن اللّه وتوفيقه. فحيث جعل اللّه كتاب موسى هدى ، وجعل منهم أئمة يهدون ، كذلك يجعل القرآن المنزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم كتاب هدى ، ويجعل من أمته صحابة يهدون.

٣- إن اتخاذ بعض الناس أئمة سببه الصبر على الطاعة للدين ، والرضا بأمر اللّه ، والعمل على إعلاء كلمة اللّه ، والصبر على البلاء والمحن في سبيل اللّه تعالى ، فإن جعل الأئمة هادين يحصل بالصبر ، وهذا أمر بالصبر والإيمان بأن وعد اللّه حق.

٤- إن اللّه سبحانه هو القاضي العدل والحاكم المطلق بحق بين المؤمنين والكفار ، فيجازي كلا بما يستحق ، ويفصل بين المختلفين من أمة واحدة ، كما يفصل بين المختلفين من الأمم.

ج ٢١ ، ص : ٢١٩

تأكيد ثبوت التوحيد والقدرة والحشر [سورة السجده (٣٢) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]

أَ وَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

الإعراب :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ فاعل يَهْدِ مقدر وهو المصدر ، أي أولم يهد الهدى لهم. وقيل : إن الفاعل هو اللّه تعالى ، أي أولم يهد اللّه لهم. وقرى « نهد » وتقدير الفاعل : نهد نحن لهم. و « كم » في موضع نصب ب أَهْلَكْنا.

مَتى هذَا الْفَتْحُ هذَا مبتدأ ، والْفَتْحُ صفته ، ومَتى خبره لأن الفتح مصدر وهو حدث ، ومَتى ظرف زمان ، وظروف الزمان يجوز أن تكون أخبارا عن الأحداث ، لوجود الفائدة في الإخبار بها عنها.

البلاغة :

إِنَّا مُوقِنُونَ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَفَلا يَسْمَعُونَ سجع لمراعاة الفواصل ورؤوس الآيات.

المفردات اللغوية :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ أي أولم يتبين لكفار مكة كثرة من أهلكناهم من القرون أي الأمم الماضية بكفرهم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ أي يمرّ أهل مكة في أسفارهم ومتاجرهم إلى الشام وغيرها على ديارهم ، فيعتبروا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ دلالات على قدرتنا أَفَلا يَسْمَعُونَ سماع تدبر واتعاظ.

ج ٢١ ، ص : ٢٢٠

الْأَرْضِ الْجُرُزِ اليابسة التي لا نبات فيها لأنه جرز نباتها ، أي قطع وأزيل ، لا التي لا تنبت تَأْكُلُ مِنْهُ من الزرع أَنْعامُهُمْ كالتبن والورق وَأَنْفُسُهُمْ كالحب والثمر أَفَلا يُبْصِرُونَ هذا ، فيستدلون به على كمال قدرته وفضله ، فيعلموا أنا نقدر على إعادتهم ؟

وَ يَقُولُونَ للمؤمنين الْفَتْحِ النصر أو الفصل بالحكم ، أي متى هذا الحكم الحاسم بيننا وبينكم ؟ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في الوعد به قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ بإنزال العذاب بهم يوم القيامة ، فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم. وقيل : يوم بدر ، أو يوم فتح مكة وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ يمهلون لتوبة أو معذرة.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أي لا تبال بتكذيبهم وَانْتَظِرْ النصرة عليهم أو إنزال العذاب بهم إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الغلبة عليك ، أو الموت أو القتل.

سبب النزول : نزول الآية (٢٩) :

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ : أخرج ابن جرير عن قتادة : قال الصحابة : إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننعم ، فقال المشركون : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟ فنزلت.

المناسبة :

في القسم الأخير من السورة عود على بدء في تقرير الأصول الثلاثة وهي الرسالة والتوحيد والبعث ، فبعد أن ذكر تعالى بقوله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تقرير رسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وإعادة بيان ما سبق في قوله : لِتُنْذِرَ قَوْماً .. أعاد هنا ذكر التوحيد وبرهانه وإثبات القدرة الإلهية بالمشاهدات المحسوسة بقوله : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ وقوله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ .. ثم أعاد ذكر الحشر وإثباته بقوله : وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْفَتْحُ ؟

التفسير والبيان :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي

ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ

أي أولم يتبين لهؤلاء المكذبين بالرسل كثرة من أهلكنا من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم ، وهؤلاء المكذبون يمرون أثناء أسفارهم في مساكن وديار أولئك المكذبين ، ويشاهدون آثار تدميرهم كعاد وثمود وقوم لوط ، لم تبق منهم باقية ولا أثر ، كقوله تعالى : هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً [مريم ١٩/ ٩٨] وقوله : كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها [هود ١١/ ٦٨] وقوله : فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا [النمل ٢٧/ ٥٢] وقوله : فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ ، فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ [الحج ٢٢/ ٤٥].

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ؟ أي إن في تدمير أولئك القوم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لدلائل على قدرتنا ، وعبرا وعظات يعتبرون ويتعظون بها ، فهلا يسمعون عظاتنا ، ويتذكرون تذكيرنا لهم ، سماع تدبر واتعاظ وتفكر ؟ والخلاصة : أن مساكن المهلكين دالة على حالهم.

وبعد بيان القدرة على الإهلاك ، بيّن اللّه تعالى القدرة على الإحياء ، فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ، فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، أَفَلا يُبْصِرُونَ

أي أولم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث أننا قادرون على الإحياء ، فنسوق الماء من السماء أو السيول إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ، فنخرج به زرعا أخضر تأكل منه أنعامهم من التبن والشعير والحشيش ، وتتغذى منه أجسامهم ، وتتقوى به أبدانهم ، أفلا يبصرون هذا بأعينهم ، فيعلموا أننا قادرون على الإعادة بعد الموت ، كإحياء الأرض بعد موتها ؟

ثم ذكر تعالى تساؤل المشركين عن يوم البعث والحشر ، فقال :

وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي ويتساءل هؤلاء

ج ٢١ ، ص : ٢٢٢

الكفار عن ميعاد وقوع بأس اللّه وعذابه بهم استبعادا وتكذيبا وعنادا ، قائلين :

متى تنتصر علينا يا محمد ، ومتى ينتقم اللّه لك منا ، وأنت وصحبك ما نراكم إلا مختفين خائفين ذليلين ؟ إن كنتم صادقين في تهديدكم ووعيدكم على الكفر وعبادة الأوثان.

فأجابهم اللّه تعالى موبخا لهم :

قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين برسالتك : إن يوم الحكم الفاصل والقضاء والفصل النافذ هو يوم القيامة الذي لا ينفع فيه إيمان الكافر ولا توبته ، ولا هم يؤخرون فيه بالإعادة إلى الدنيا للتوبة والإيمان وإصلاح العمل لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ، فلا تستعجلوه ، فهو كائن حتما.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ أي أعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين ، ولا تبال بتكذيبهم ، وتابع تبليغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر النصر من اللّه الذي وعدك به ، فإن اللّه سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد.

إنك أنت منتظر نصر اللّه ، وهم منتظرون الغلبة عليك والموت أو القتل ، كما قال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ : شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ [الطور ٥٢/ ٣٠] وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة ربك ، وسيجدون سوء ما ينتظرونه فيك من عقاب اللّه بهم وتعذيبه إياهم في الدنيا والآخرة ، وما علموا أن اللّه عاصمك منهم ومؤيدك بنصره.

ج ٢١ ، ص : ٢٢٣

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- إن إهلاك الأمم الظالمة العاتية دليل على قدرة اللّه ووحدانيته ، وفي ذلك عبرة للمعتبر ، والمشركون الذين يشاهدون آثار الدمار والهلاك ، لا يسمعون آيات اللّه وعظاته فيتعظون ، إذ ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه ، ولا قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم.

٢- إن سوق الماء بقدرة اللّه إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لإحيائها بالنبات الأخضر والزرع النضر دليل آخر على قدرة اللّه على الإحياء وإعادة البشر لحياة البعث والنشور ، ولكن الكفار لا يتأملون هذا بعين البصيرة ولا يبصرون هذا بحق ، فيعلمون أن اللّه قادر على الحشر وعلى إعادتهم إلى الحياة يوم القيامة.

وفي هذين الدليلين من الإهلاك والإماتة ، والأحياء والاعادة إشارة إلى أن الضر والنفع بيد اللّه تعالى.

٣- إن حماقة المشركين دفعتهم إلى استعجال العذاب والعقاب يوم القيامة.

ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم اللّه عز وجل بيننا يوم القيامة ، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء ، فقال الكفار على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى يوم الفتح ، أي هذا الحكم ؟

٤- كان الرد الحاسم على هؤلاء الحمقى أن يوم الفتح والحكم والفصل بين المؤمنين والكفار كائن حتما لا شك فيه ولا بد منه ، ولكن لا ينفع فيه الإيمان حينئذ لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ، وكذلك لا يؤخرون بالإعادة للدنيا ، ولا يمهلون للتوبة.

٥- النتيجة المطلوبة أن الإعراض عن المكذبين بالقرآن والرسول بعد

ج ٢١ ، ص : ٢٢٤

البيانات المتكررة والبراهين المتلاحقة هو الواجب ، ولينتظر نبي اللّه والمؤمنون يوم الفتح وحكم اللّه عليهم ، وتحقيق النصر ، ولن يفيد الكفار المكذبين انتظار حوادث الزمان بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأتباعه ، فإن اللّه عاصمه من الناس ، وناصر جنده المؤمنين ، والشعار حينئذ : انتظر عذابهم ، إنهم منتظرون هلاكك ؟ ! وهم هالكون لا محالة.

(٢٢٩/٢١)

ج ٢١ ، ص : ٢٢٥

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة الأحزاب

مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية.

تسميتها :

سميت سورة الأحزاب لاشتمال الكلام فيها على وقعة الخندق أو الأحزاب الذين تجمعوا حول المدينة ، من مشركي قريش وغطفان ، بالتواطؤ مع المنافقين ويهود بني قريظة ، لحرب المسلمين ومحاولة استئصالهم ، كما سميت (الفاضحة) لأنها افتضحت المنافقين ، وأبانت شدة إيذائهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في أزواجه وتألبهم عليه في تلك الموقعة.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بسورة السجدة التي قبلها في وجوه التشابه بين مطلع هذه وخاتمة تلك ، فإن السورة السابقة ختمت بأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره صلّى اللّه عليه وسلّم بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحي إليه من ربه ، والتوكل عليه.

موضوعها :

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المدنية ، التي تهتم بالجانب التشريعي للأمة ، ولا سيما تنظيم الأسرة النبوية ، وإبطال بعض عادات الجاهلية كالتبني والظهار واعتقاد وجود قلبين للإنسان ، وعدم إيجاب العدّة على المطلقة

ج ٢١ ، ص : ٢٢٦

قبل الدخول ، وفرض الحجاب على نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ونساء المؤمنين ، وبيان خطورة أمانة التكليف.

مشتملاتها :

اشتملت هذه السورة على بعض الآداب الاجتماعية ، والأحكام التشريعية وأخبار في السيرة عن غزوتي الأحزاب وبني قريظة وعن المنافقين.

أما الآداب الاجتماعية : فأهمها آداب الدعوة إلى الولائم ، والحجاب وعدم التبرج ، وتعظيم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في بيته ومع الناس ، والقول السديد.

(٢٣٠/٢١)

و أما الأحكام الشرعية فكثيرة : منها الأمر بتقوى اللّه وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، ووجوب اتباع الوحي ، وحكم الظهار ، وإبطال عادة التبني وعادة التوريث بالحلف أو الهجرة ، وجعل الرحم والقرابة أساس الميراث ، وتعداد المحارم وعدد زوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والصلاة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفرض الحجاب الشرعي وتطهير المجتمع من مظاهر التبرج الجاهلية ، وعدم إلزام المطلقة قبل الدخول بالعدة ، وتخيير نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بين الفراق والبقاء معه ، وتخصيص زوجاته بمضاعفة الأجر والثواب عند الطاعة ، ومضاعفة العذاب عند المعصية ، وتحريم إيذاء اللّه والرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين ، وخطورة أمانة التكليف ، وعقاب المسيء وإثابة المحسن.

وأما أخبار السيرة : ففي السورة بيان توضيحي عن (غزوة الأحزاب) أو (غزوة الخندق) وغزوة بني

قريظة ، ونقضهم العهد مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكشف فضائح المنافقين والتحذير من مكائدهم ، وتهديدهم مع المرجفين في المدينة على جرائمهم بالطرد والتعذيب ، وتذكير المؤمنين بنعم اللّه العظمى التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد اشتداد الخطب عليهم ، ورد كيد أعدائهم بالملائكة والريح ، حتى صار ذلك معجزة خارقة للعادة ، وبيان قصة زيد بن حارثة مولى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وزينب بنت جحش زوج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

ج ٢١ ، ص : ٢٢٧

الأمر بتقوى اللّه واتباع الوحي والتوكل على اللّه [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)

البلاغة :

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ أي دم على تقواه ، وليتق اللّه المؤمنون ، بأسلوب يقصد به تنبيه بالأعلى وهو النبي على الأدنى وهم المؤمنون ، فإنه تعالى إذا أمر رسوله بالتقوى ، كان المؤمنون مأمورين بها بطريق الأولى أو أنه أمر قصد به الثبات والاستدامة على التقوى. وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ فيما يخالف شريعتك وأوامر ربك. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً أي إن اللّه كان وما يزال عالما بكل شيء قبل وجوده ، حكيما فيما يخلقه. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ أي القرآن. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وكل أمرك إلى تدبيره. وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا حافظا لك ، موكولا إليه كل الأمور ، والأمة تبع له في المذكور كله.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يرجع عن قوله ، على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات.

ج ٢١ ، ص : ٢٢٨

و

ذكر الواحدي في أسباب النزول : أن الآيات نزلت في أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السّلمي قدموا المدينة بعد قتال أحد ، فنزلوا على عبد اللّه بن أبيّ (زعيم المنافقين) وقد أعطاهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق ، فقالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزّى ومناة ، وقل : إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها وندعك وربّك ، فشقّ على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قولهم ، فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : ائذن لنا يا رسول اللّه في قتلهم ، فقال : « إني قد أعطيتهم الأمان » فقال عمر : اخرجوا في لعنة اللّه وغضبه ، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يخرجهم من المدينة ، فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية.

التفسير والبيان :

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً أي يا أيها الرسول محمد ، داوم على تقوى اللّه وخف عقابه بإطاعة أوامره واجتناب محارمه ، ولا تسمع من الكافرين والمنافقين ولا تستشرهم في شيء ، واحترس منهم ، ولا تستجب لمطالبهم بتخصيص بعض المجالس والأوقات لهم وطرد الضعفاء ، إن اللّه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإن أولئك الكفار أعداؤك الذين يريدون هلاكك.

وقوله : وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ نهي مؤكد لمضمون الأمر السابق ، أي اتق اللّه تقوى تمنعك من طاعتهم.

روي أنه لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة ، تابعه ناس من اليهود نفاقا ، وكان يلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصح خداعا فحذره اللّه منهم ، ونبهه إلى عداوتهم.

(٢٣٣/٢١)

و قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة اللّه على نور من اللّه ،

ج ٢١ ، ص : ٢٢٩

ترجو ثواب اللّه ، وأن تترك معصية اللّه ، على نور من اللّه مخافة عذاب اللّه.

ثم أكد اللّه تعالى وجوب امتثال أوامر اللّه ، فقال :

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً أي اعمل بمقتضى الوحي المنزل إليك من ربك من قرآن وسنة ، فإن اللّه لا تخفى عليه خافية ، يعلم بدقة بواطن الأشياء وظواهرها ، ثم يجازيكم عليها. وقوله : إِنَّ اللَّهَ كانَ .. علة للأمر باتباع الوحي ، وإشارة إلى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم

قلبك ، لا تخفي في نفسك تقوى غير اللّه.

ثم أمر تعالى رسوله بعد التزام الأوامر بتفويض الأمور إلى اللّه وحده ، فقال :

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا أي فوض جميع أمورك وأحوالك إلى اللّه ، وكفى به وكيلا لمن توكل عليه ، وأناب إليه. والمقصود أن اللّه عاصمك وحسبك ، فهو وحده جالب النفع لك ، ودافع الضر عنك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- إيجاب التقوى والمداومة عليها ومتابعة طاعة اللّه أمر عام مفروض على جميع البشر ، سواء أكانوا أنبياء ورسلا وملائكة أم غيرهم ، إلا أن الأنبياء والملائكة المعصومين من المعصية يؤمرون بالتقوى تعليما وإرشادا لغيرهم ، وتنبيها بالأعلى على الأدنى. ويلاحظ أن اللّه تعالى لم يخاطب نبيه محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم إلا بلفظ النبوة والرسالة : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ ولم يخاطبه باسمه ، تعظيما لشأنه ، وإشادة بمقامه ، وتعليما لنا للأدب معه ، مع أنه تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم فقال : يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا [هود ١١/ ٤٨]

يا إِبْراهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا [الصافات ٣٧/ ١٠٤- ١٠٥] يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي [الأعراف ٧/ ١٤٤].

٢- الأمر بالشيء نهي عن ضده ، لذا منع اللّه سبحانه من طاعة الكافرين من أهل مكة ونحوهم والمنافقين من أهل المدينة وأمثالهم فيما نهى عنه ، والتحذير من الميل إليهم ، فإن اللّه عليم بكفرهم ونفاقهم ، حكيم فيما يفعل بهم ، والمقصود بذلك الاحتراس من مؤامراتهم ومكائدهم وخططهم المشبوهة.

والمراد بالكافرين من أهل مكة : أبو سفيان وأبو الأعور وعكرمة. والمراد بالمنافقين من أهل المدينة : عبد اللّه بن أبيّ ، وطعمة بن أبيرق ، وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح.

٣- ومن الواجب أيضا اتباع الوحي من قرآن وسنة ، وفي ذلك زجر عن اتباع مراسم الجاهلية. وأمر بجهادهم ومنابذتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص ، فلا مساغ للاجتهاد في مورد النص. والخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولأمته.

٤- على المؤمن بعد اتخاذ الأسباب والوسائل أن يعتمد على اللّه في جميع أحواله ، فهو الذي ينفع

ويمنع ، ولا يضر معه معارضة أحد من البشر أو مخالفته ، وكفى باللّه حافظا لجميع الأمور والأحوال.
والخلاصة : أن اللّه تعالى أراد بهذه الآيات غرس العزة والكرامة في نفوس المسلمين ، والثقة بالذات ، وعدم الالتفات إلى الأعداء ، ومن أجل تحقيق تلك الغايات ، قررت الآيات هذه الأحكام وهي أن اللّه عليم بالمصلحة والصواب ، حكيم لا يأمر ولا ينهى إلا على وفق الحكمة والصواب ، فالواجب الأول : امتثال الأمر وتنفيذ النهي ، والواجب الثاني : اتباع وحي اللّه ، فإن اللّه خبير بما يصلح أمور العباد ، والواجب الثالث : التوكل على اللّه حقا ، ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه وكافيه ، وكفى باللّه وكيلا.
ج ٢١ ، ص : ٢٣١

(٢٣٥/٢١)

تعدد القلب والظهار والتبني [سورة الأحزاب (٣(٣) : الآيات ٤ الى ٥]
ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥)
الإعراب :
وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي .. أزواج : جمع زوج ، والزوج ينطلق على الذكر والأنثى ، يقال : هما زوجان ، وقد يقال للمرأة : زوجة ، واللغة الفصحى بغير تاء ، وهي لغة القرآن ، قال تعالى : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ [البقرة ٢/ ٣٥] وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ [الأنبياء ٢١/ ٩٠].
واللَّائِي : فيه ثلاث قراءات ، بإثبات الياء ، وبحذفها ، وبجعل الهمزة بين بين تسهيلا بعد حذف الياء.
وتُظاهِرُونَ : يقرأ بتخفيف الظاء وتشديدها ، وأصلها : يتظاهرون.
وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ الْحَقَّ منصوب على أنه مفعول به ل يَقُولُ أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي يقول القول الحق.
وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ فِيما : إما مجرور بالعطف على فِيما في قوله : فِيما أَخْطَأْتُمْ وإما مرفوع بالابتداء ، أي ولكن ما تعمدت قلوبكم يؤاخذكم به.
البلاغة :
ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ تنكير رجل للاستغراق والشمول ، وحرف الجر : لتأكيد
ج ٢١ ، ص : ٢٣٢
الاستغراق ، وذكر الجوف فِي جَوْفِهِ لزيادة تصوير الإنكار.

أَخْطَأْتُمْ تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

(٢٣٦/٢١)

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ جَعَلَ خلق ، وهذا رد على من زعم من الكفار أن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ الظهار : أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، أو كظهر أحد محارمه ، أي أنت في التحريم علي كتحريم الأم ونحوها من المحارم. أُمَّهاتِكُمْ أي كالأمهات في التحريم ، فقد كان الظهار في الجاهلية طلاقا ، أما في الإسلام فتجب فيه الكفارة قبل الجماع. وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ جمع دعيّ :

وهو الذي تدّعى بنوته ، فيدعى لغير أبيه ابنا له ، وكان له أحكام الابن في الجاهلية وصدر الإسلام ، وفي الواقع هو ابن غيره. أَبْناءَكُمْ أي أبناء في الحقيقة. والمراد : ما جمع تعالى الزوجية والأمومة في امرأة ، ولا الدعوة والنبوة في رجل ، فكما لم يجعل اللّه قلبين في جوف لأدائه إلى تناقض : (و هو أن يكون كل منهما أصلا لكل القوى وغير أصل) لم يجعل الزوجة والدّعي اللذين لا ولادة بينهما وبينه أما ولا ابنا اللذين بينهما وبينه ولادة.

ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ ذلِكُمْ إشارة إلى كلّ ما ذكر ، وقَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ أي مجرد قول في الظاهر ، لا حقيقة له في الواقع. وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ أي يقول ما له حقيقة مطابقة للواقع. وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ سبيل الحق. والمراد : نفي وجود القلبين ، ونفي الأمومة والبنوة عن المظاهر منها والمتبنى.

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ أي لكن انسبوهم إليهم. هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ تعليل لما سبق ، وأَقْسَطُ أفعل تفضيل ، قصد به الزيادة مطلقا ، أي أعدل ، والمراد : البالغ في الصدق.

سبب النزول : نزول الآية (٤) :

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ :

(٢٣٧/٢١)

أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : قام النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوما يصلي ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذي يصلون معه : ألا ترى أن له قلبين ، قلبا معكم وقلبا معه ، فأنزل اللّه : ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ.

و أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة : قالوا : كان رجل يدعى ذا القلبين. قيل : إنه أبو معمر ، وقيل : إنه جميل بن أسد الفهري.

وكانت الزوجة المظاهر منها كالأم ، ودعيّ الرجل : ابنه.

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري مثل الذي أخرجه ابن أبي حاتم ، وزاد :

وكان يقول : لي نفس تأمرني ونفس تنهاني. وأخرج عن مجاهد قال : نزلت في رجل من بني فهر قال : إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له : جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلا لبيبا حافظا لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد صلّى اللّه عليه وسلّم فلما كان يوم بدر ، وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو يوسف وهو معلّق إحدى نعليه بيده ، والأخرى في رجله ، فقال له : يا أبا معمر ، ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك ، والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده « ١ » .

نزول الآية :

وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ :

نزلت في زيد بن حارثة ، كان عند الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأعتقه وتبناه قبل الوحي ، فلما تزوج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد بن حارثة ، قالت اليهود والمنافقون : تزوج محمد صلّى اللّه عليه وسلّم امرأة ابنه ، وهو ينهى الناس عنها ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية « ٢ » .

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ٢٠١

(٢) المرجع والمكان السابق.

و

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت في القرآن : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم

: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى بتقواه وطاعته والخوف منه ، ونهى عن طاعة الكفار والخوف منهم ، نفى تعدد القلب عند الإنسان ، وأبطل الظهار والتبني ، فإذا كان لا يجتمع في قلب إنسان الخوف من اللّه والخوف من غيره ، فليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصي بالآخر ، ولا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة ، ولا البنوة الحقيقية والتبني في رجل ، فجمع في الآيات بين أمر معروف حسي ، وبين أمرين معنويين.

التفسير والبيان :

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ أي إن الذات الإنسانية ووحدة التركيب العضوي واحدة في كل إنسان ، وما خلق اللّه لأي أحد قلبين ، فليس لأي رجل قلبان في صدره ، وإنما هو قلب واحد لأن القلب محل التوجيه والإرادة والعزم ، فإذا كان الإنسان مؤمنا باللّه ورسوله ، فلن يكون كافرا أو منافقا ، أي أنه لا يجتمع في قلب واحد اعتقادان ، ولا يجتمع اتجاهان متضادان ، يأمر أحدهما أو ينهى بنقيض ما يطلبه الآخر.

و الآية كما بان في سبيل النزول رد على ما كانت العرب تزعم أن اللبيب الأريب له قلبان ، فقيل لأبي معمر أو لجميل بن معمر الفهري أو لجميل بن أسد الفهري : ذو القلبين. والظاهر أنه أبو معمر الفهري جميل بن معمر الذي اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين لقوة حفظه.

ج ٢١ ، ص : ٢٣٥

و القلب : المضغة الصنوبرية في داخل التجويف الصدري ، وهو محل الخطرات والوساوس ، ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ، ومحل الانزعاج والطمأنينة. والجعل : الخلق. وفائدة ذكر الجوف كفائدة ذكر الصدر في قوله : الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج ٢٢/ ٤٦] ليحصل للسامع زيادة التصور ، والإسراع في الإنكار.

وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ أي وما جعل الزوجات المظاهر منهن كالأمهات في الحرمة ، بأن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فذلك كذب موجب العقوبة ، كما قال تعالى : ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً .. [المجادلة ٥٨/ ٢].

وكان حكم الظهار في الجاهلية طلاقا يفيد التحريم المؤبد ، فجعل الإسلام الحرمة مؤقتة ، تزول

بالكفارة (تحرير رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا قبل الجماع) كما جاء في أوائل سورة المجادلة ، لتحريم ما أحل اللّه تعالى.

وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ أي وما جعل اللّه المدّعى بنوتهم بالتبني أبناء في الحقيقة ، فهم أبناء آبائهم الحقيقيين ، والتبني حرام ، وهذا أيضا إبطال لما كان عليه العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من جعل الابن بالتبني كالابن النسبي.

و قد كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد إعتاق زيد بن حارثة مولاه قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له زيد بن محمد ، وتبنى الخطّاب عامر بن أبي ربيعة ، وأبو حذيفة سالما ، وكثير من العرب تبنى ولد غيره.

والخلاصة : أجمع أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في زيد بن حارثة.

وقد أبطل اللّه هذا الإلحاق الوهمي وهذا النسب المزعوم بهذه الآية ، وبقوله

تعالى بعدئذ في هذه السورة : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ .. [٤٠].

وهذا هو المقصود بالنفي ، قدّم اللّه له نفي أمر حسي معروف وهو ازدواج القلب في الإنسان ، ثم أردفه بنفي أمرين معنويين هما اجتماع الزوجية مع الظهار ، والتبني مع النسب ، فالثلاثة باطلة لا حقيقة لها ، لذا قال تعالى مؤكدا النفي :

ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ أي ذلكم المذكور كله في الجمل الثلاث من ادعاء وجود قلبين في صدر واحد ، واجتماع الزوجية مع الظهار ، والتبني مع النسب هو مجرد قول باللسان ، لا صلة له بالحقيقة ، فلا تصبح الزوجة بالظهار أما ، ولا المتبني ابنا. وزيادة قوله تعالى : بِأَفْواهِكُمْ للتنبيه على أنه قول صادر من الأفواه فقط ، من غير أن يكون له حقيقة في الواقع ، كما أن زيادة فِي جَوْفِهِ لتأكيد الإنكار وزيادة تصويره للنفوس.

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ أي واللّه هو الذي يقرر الصدق والعدل ، ويقول الواقع ، ويرشد إلى السبيل الأقوم الصحيح والطريق المستقيم ، فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله عز وجل. ثم فصل تعالى هذا الحق المقصود أصالة بالآية فقال :

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أي انسبوا أولئك الذين تبنيتموهم وألحقتم نسبهم بكم إلى آبائهم الحقيقيين ، فذلك أعدل في حكم اللّه وشرعه ، وأصوب من نسبة الابن لغير أبيه. فقوله أَقْسَطُ أفعل التفضيل ، وهو ليس على بابه ، أي لا يراد به المفاضلة بين اثنين ، بل قصد به الزيادة مطلقا ، ويجوز أن يكون على بابه على سبيل التهكم بهم.

فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ أي فإن جهل آباء هؤلاء الأدعياء ، فهم إخوانكم في الدين إن كانوا قد أسلموا ، وهم مواليكم في الدين

ج ٢١ ، ص : ٢٣٧

أيضا أي أنصاركم ، إن كانوا عتقاء محرّرين ، فينادى الواحد منهم : يا أخي أو يا مولاي ، لذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة.

جاء في الحديث الذي رواه أحمد والشيخان عن أبي ذر : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر »

قال ابن كثير : هذا تشبيه وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم.

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ أي لا إثم عليكم بنسبة بعضهم إلى غير أبيه خطأ قبل النهي ، أو بعده نسيانا أو سبق لسان ، أو بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن اللّه قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما قال تعالى : رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا [البقرة ٢/ ٢٨٦] و

ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « قال اللّه عز وجل : قد فعلت » .

و

في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »

و

في الحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه عن أبي ذر : « إن اللّه تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

(٢٤٢/٢١)

لا إثم في الخطأ ، ولكن الإثم على من تعمد الباطل ، فنسب الابن أو البنت إلى غير الأب المعروف ، فتلك معصية موجبة للعقاب. ولا إثم ولا تحريم فيما غلب عليه اسم التبني كالمقداد بن عمرو ، فإنه غلب عليه نسب التبني ، فيقال له : المقداد بن الأسود ، والأسود : هو الأسود بن عبد يغوث ، كان

قد تبناه في الجاهلية ، فلما نزلت الآية ، قال المقداد : أنا ابن عمرو ، ومع ذلك بقي الإطلاق عليه.
أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال في الآية : « لو دعوت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه ، لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه » .
و
أخرج الإمام أحمد عن عمر رضي اللّه عنه أنه قال : إن اللّه تعالى بعث محمدا
ج ٢١ ، ص : ٢٣٨
صلّى اللّه عليه وسلّم بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ورجمنا بعده. ثم قال : قد كنا نقرأ : « و لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم » وأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم عليه السلام ، فإنما أنا عبد اللّه ، فقولوا : عبده ورسوله »
وربما قال معمر : « كما أطرت النصارى ابن مريم » .
و
روى أحمد في حديث آخر : « ثلاث في الناس كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم » .
وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أي وكان اللّه وما يزال ساترا لذنب المخطئ ، والمتعمد إذا تاب ، رحيما بهما فلا يعاقبهما ، فمن رحمته أنه رفع الإثم عن المخطئ ، وقبل توبة المسيء عمدا.
قصة زيد بن حارثة في السيرة والسنة النبوية :

أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما : أن زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل.
وقد سبي من قبيلته « كلب » وهو صغير.
وكان من أمره
ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان في أخواله بني معن من بني ثعل من طيّ ، فأصيب في نهب من طيّ ، فقدم به سوق عكاظ ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها ، فأوصته عمته خديجة أن يبتاع لها غلاما ظريفا إن قدر عليه ، فلما قدم وجد زيدا يباع فيها ، فأعجبه ظرفه ، فابتاعه ، فقدم به عليها ، وقال لها : إني قد ابتعت لك غلاما ظريفا عربيا ، فإن أعجبك فخذيه ، وإلا

فدعيه ، فإنه قد أعجبني ، فلما رأته خديجة أعجبها ، فأخذته.

ج ٢١ ، ص : ٢٣٩

فتزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو عندها ، فأعجب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ظرفه ، فاستوهبه منها ، فقالت : أهبه لك ، فإن أردت عتقه ، فالولاء لي ، فأبى عليها عليه الصلاة والسلام ، فوهبته له ، إن شاء أعتق ، وإن شاء أمسك.

قال : فشب عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب بأرض الشام ، فمرّ بأرض قومه ، فعرفه عمه ، فقام إليه ، فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : غلام من أهل مكة ، قال : من أنفسهم ؟ قال : لا ، قال : فحرّ أنت أم مملوك ؟ قال :

بل مملوك ، قال : لمن ؟ قال : لمحمد بن عبد المطلب ، فقال له : أعربي أنت أم عجمي ؟ قال : عربي ، قال : ممن أصلك ؟ قال : من كلب ، قال : من أي كلب ؟ قال : من بني عبد ودّ ، قال : ويحك ، ابن من أنت ؟ قال : ابن حارثة بن شراحيل. قال : وأين أصبت ؟ قال : في أخوالي ، قال : ومن أخوالك ؟ قال : طي ، قال : ما اسم أمك ؟ قال : سعدى ، فالتزمه ، وقال :

ابن حارثة.

(٢٤٤/٢١)

و دعا أباه ، فقال : يا حارثة ، هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، قال : كيف صنع مولاك إليك ؟ قال : يؤثرني على أهله وولده ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال له حارثة :

يا محمد ، أنتم أهل حرم اللّه وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العاني ، وتطعمون الأسير ، ابني عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإنك ابن سيد قومك ، وإنا سنرفع إليك في الفداء ما أحببت ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أعطيكم خيرا من ذلك ، قالوا : وما هو ؟ قال : أخيّره ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارني فكفوا عنه.

فقالوا : جزاك اللّه خيرا ، فقد أحسنت. فدعاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

« يا زيد ، أتعرف هؤلاء » ؟ قال : نعم. هذا أبي وعمي وأخي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم :

ج ٢١ ، ص : ٢٤٠

« فهم من قد عرفتهم ، فإن اخترتهم ، فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأنا من تعلم » . فقال زيد : ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا ، أنت معي بمكان الوالد والعم ، قال : أبوه وعمه : أيا زيد ، أتختار العبودية ؟ قال : ما أنا بمفارق هذا الرجل ، فلما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حرصه عليه ، قال : «

اشهدوا أنه حر ، وأنه ابني يرثني وأرثه » ، فطابت نفس أبيه وعمه ، لما رأوا من كرامة زيد عليه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلم يزل في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ فدعي زيد بن حارثة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- أعلم اللّه عز وجل أنه لا أحد بقلبين ، وإنما هو قلب واحد ، فإما فيه إيمان وإما فيه كفر ، ولا يجتمع في القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والإنابة والإصرار.

(٢١/٢٤٥)

و في هذا رد على بعض أهل مكة الذين كانوا يقولون : إن لي في جوفي قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد صلّى اللّه عليه وسلّم.

وهو ردّ أيضا على المنافقين الذين هم على درجة من النفاق ، متوسطة بين الإيمان والكفر إذ ليس هناك إلا قلب واحد فيه إيمان أو كفر.

٢- أبطل اللّه تعالى في هذه الآية حكم الظهار الجاهلي ، وهو قول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فتصبح محرمة على التأبيد ، أما في الإسلام فالحرمة مؤقتة تنتهي بالكفارة.

٣- التبني حرام في الإسلام لأنه يصادم الحقيقة ، والأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسبا ، ويحرم على الإنسان أن يتعمد دعوة الولد لغير

أبيه ، على النحو الذي كان في الجاهلية. فإن لم يكن كذلك ، كما يقول الكبير للصغير تلطفا أو تحننا وشفقة : يا ابني أو يا بنيّ ، فالظاهر عدم الحرمة ، لكن أفتى بعض العلماء بكراهته سدا لباب التشبه بالكفار.

٤- نسبة الإنسان إلى أبيه من التبني خطأ ، بأن يسبق اللسان إليه من غير قصد ، لا إثم ولا مؤاخذة فيها ، لقوله تعالى : وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ.

كذلك لا إثم في نسبة شخص كان في الأصل منسوبا إلى أبيه بالتبني ، وجرى الإطلاق على سبيل الشهرة ، كالحال في المقداد بن عمرو ، فإنه غلب عليه نسب التبني ، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه في الجاهلية وعرف به ، فلما نزلت الآية ، قال المقداد : أنا ابن عمرو ومع ذلك فبقي الإطلاق عليه ، ولم يحكم أحد بعصيان من ناداه بذلك ، وكذلك سالم

مولى أبي حذيفة ، كان يدعى لأبي حذيفة ، وغير هؤلاء.
وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة فإنه لا يجوز أن يقال فيه :

(٢٤٦/٢١)

زيد بن محمد إذ لم يشتهر به بعد التحريم والنهي ، فإن قاله أحد متعمدا عصى لقوله تعالى : وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ.
٥- وكما يحرم التبني ، يحرم انتساب الشخص إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه ، بل هو من الكبائر إذا كان على النحو الجاهلي ، فقد كان الرجل منهم ينتسب إلى غير أبيه وعشيرته ، وجاء في السنة الوعيد الشديد عليه ،
أخرج الشيخان وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من ادّعى إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام » .
و
أخرج الشيخان أيضا : « من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل اللّه منه صرفا ولا عدلا »
ج ٢١ ، ص : ٢٤٢
و
أخرجا أيضا عن أبي ذرّ أنه سمع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « ليس من رجل ادّعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر » .
والكفر : إذا اعتقد إباحة ذلك ، فإن لم يعتقد إباحته ، فمعنى كفره : أنه أشبه فعله فعل الكفار أهل الجاهلية ، أو أنه كافر نعمة اللّه والإسلام عليه.
٦- هناك فرق بين التبني المنهي عنه والاستلحاق الذي أباحه الإسلام ، فالتبني : هو ادعاء الولد مع القطع بأنه ليس ابنه ، وأما الاستلحاق الشرعي :
فهو أن يعلم المستلحق أن المستلحق ابنه أو يظن ذلك ظنا قويا ، بسبب وجود زواج سابق غير معلن. فإن كان من زنى فلا يجوز الاستلحاق.
٧- يباح أن يقال في دعاء من لم يعرف أبوه : يا أخي أو يا مولاي إذا قصد الأخوة في الدين والولاية فيه ، وكان المدعو تقيا. فإن كان فاسقا فلا يدعى بذلك ، ويكون حراما لأننا نهينا عن تعظيم الفاسق.

(٢٤٧/٢١)

٨- دل قوله تعالى : وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ على أنه ينبغي أن يكون قول الإنسان إما عن حقيقة يقرها العقل السليم أو عن شرع ثابت ، فمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدا ، وكانت الزوجة سابقا زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه ، فإنا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش أي رابطة الزوجية.

٩- قوله تعالى : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً يدل على أنه سبحانه يغفر الذنوب للمستغفر ، ويرحم المذنب التائب.

ج ٢١ ، ص : ٢٤٣

مكانة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومهمته وتشريع الميراث بقرابة الرحم [سورة الأحزاب (٣)(٣) : الآيات ٦ الى ٨]

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٦) وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (٨)

الإعراب :

وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ مبتدأ وخبر ، أي إنهن بمنزلة الأم في التحريم ، فلا يجوز لأحد أن يتزوج بهن ، احتراما للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا .. أن وصلتها : في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة :

وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ تشبيه بليغ ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه ، أي وأزواجه مثل أمهاتهم في الحرمة والتعظيم.

أَوْلى بِبَعْضٍ مجاز بالحذف ، أو أولى بميراث بعض.

وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ عطف الخاص على العام للتشريف والتنويه بشأنهم ، بالرغم من دخول محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام في جملة النبيين.

مِيثاقاً غَلِيظاً استعارة ، استعار الغلظ في الأجسام الحسية للشيء المعنوي ، وهو بيان حرمة الميثاق وخطورته وعظمه ، للوفاء به.

ج ٢١ ، ص : ٢٤٤

لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ التفات من التكلم للغيبة لتبكيت المشركين وتقبيح فعلهم.

المفردات اللغوية :

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ في الأمور كلها في الدين والدنيا ، فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم ، فهو أرأف بهم وأعطف عليهم فيما دعاهم إليه مما دعتهم أنفسهم إليه إذ هو يدعو إلى النجاة وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك. وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أي منزّلات منزلة الأمهات في حرمة زواجهن واستحقاق التعظيم ، وفيما عدا ذلك فكالأجنبيات ، ولذلك قالت عائشة : لسنا أمهات النساء. وَأُولُوا الْأَرْحامِ ذوو القرابات. بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ في التوارث من الإرث بالحلف والمؤاخاة ، وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين. فِي كِتابِ اللَّهِ فيما فرض اللّه تعالى وشرع أو في اللوح المحفوظ. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ بيان لأولي الأرحام ، أو صلة لأولي ، أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ، والمهاجرين بحق الهجرة ، وبعبارة أخرى : الإرث بقرابة الرحم مقدم على الإرث بالإيمان والهجرة الذي كان أول الإسلام ، فنسخ. كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً أي كان المذكور في الآيتين ثابتا في اللوح المحفوظ ، أو في القرآن.

(٢٤٩/٢١)

وَ إِذْ أَخَذْنا أي واذكر. مِيثاقَهُمْ أي عهودهم بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين القويم ، والميثاق : العهد المؤكد. وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أي بأن يعبدوا اللّه ، ويدعوا إلى عبادته ، وذكر هؤلاء الأنبياء الخمسة من عطف الخاص على العام لأنهم مشاهير أصحاب الشرائع وأولو العزم من الرسل. وقدم نبينا تعظيما له. وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً ميثاقا شديدا عظيم الشأن بالوفاء بواجب التبليغ لما أنزل إليهم من ربهم. وقيل : ميثاقا مؤكدا باليمين.

لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ أي فعلنا ذلك ليسأل اللّه يوم القيامة أولئك الأنبياء الصادقين الذين صدقوا عهدهم عن صدقهم في تبليغ الرسالة وعما قالوه لقومهم ، تبكيتا للكافرين برسالاتهم. وَأَعَدَّ تعالى ، معطوف على أَخَذْنا والمعنى : أن اللّه أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ، لأجل إثابة المؤمنين ، وتبكيت الكافرين ، وأعد للكافرين بهم عذابا مؤلما.

المناسبة :

بعد أن أبطل اللّه تعالى حكم التبني الخاص وأن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ليس أبا لزيد بن حارثة ، أبان تعالى أن أبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم عامة لكل الأمة ، وأزواجه بالنسبة للرجال في حكم حرمة الأمهات ، وهي أشرف من أبوة النسب لأنها إنقاذ أبدي من

الهلاك ، قال مجاهد : كل نبي أبو أمته. ثم أردف ذلك بعلو منزلته وسمو مهمته وهو تبليغ دعوة اللّه ،

وفاء بالميثاق (العهد المؤكد) الذي أخذه اللّه عليه وعلى سائر الأنبياء من قبله.

التفسير والبيان :

النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أي إن النبي محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم أرأف بجماعة المؤمنين من أمته وأعطف عليهم من أنفسهم إذ هو يدعوهم إلى النجاة ، وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، كما

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « أنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها تقّحم الفراش » « ١ » ولأنه ينزّل لهم منزلة الأب ، فالنفس قد تأمر بالسوء ، وأما محمد صلّى اللّه عليه وسلّم فهو لا يأمر إلا بالخير ولا ينطق إلا بالوحي.

فإذا كان زيد يعتز بدعوته لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم لأنها تكسبه جاها كبيرا في الدنيا والآخرة ، فإن المؤمنين أصبحوا جميعا يعتزون بأبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم العامة لهم ، وقد نزلت الآية تسلية لزيد ، وبيانا للانتقال من الأبوة الخاصة لزيد إلى الأبوة العامة ، والرأفة الشاملة التي تعم المسلمين جميعا ، لا فرق فيها بين الابن الصلبي وغيره فهو يرعاهم حق الرعاية ويهديهم الطريق المستقيم.

وجعلت الولاية مطلقة لتشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية.

وما دام محمد صلّى اللّه عليه وسلّم أولى من النفس ، فهو أولى من جميع الناس بطريق الأولى ، وحكمه مقدّم على اختيارهم لأنفسهم ، ومحبته مقدمة أيضا على حب النفس التي بين الجنبين ، كما قال تعالى : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [النساء ٤/ ٦٥].

---

(١)

نص الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة : « إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تقحّمون فيه » .

قال العلماء :

الحجزة للسراويل ، والمعقد للإزار.

ج ٢١ ، ص : ٢٤٦

و

ثبت في صحيح البخاري وغيره : « و الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه

وماله وولده والناس أجمعين »

و

(٢٥١/٢١)

روى البخاري في صحيحة أيضا عن أبي هريرة قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فأيّما مؤمن ترك مالا ، فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا- عيالا- فليأتني ، فأنا مولاه » .

و

في الصحيح أيضا أن عمر رضي اللّه عنه قال : « يا رسول اللّه ، واللّه لأنت أحبّ إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : لا ، يا عمر ، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك ، فقال : يا رسول اللّه ، واللّه لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : الآن يا عمر » .

ومبعث هذا ما علم اللّه تعالى من توافر شفقة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم.

وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أي إن أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم منزلات منزلة الأمهات في الحرمة والاحترام ، أي في تحريم زواجهن بعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستحقاق التكريم والتعظيم والتوقير ، وأما في غير ذلك فهن أجنبيات ، فلا يقال لبناتهم أخوات المؤمنين ، ولا يحرمن على المؤمنين ، ولا يحل النظر إليهن ولا الخلوة بهن ، ولا ارثهن ونحو ذلك.

وهذا بالنسبة للرجال ، فهم كأمهاتهم ، وأما النساء فلا يقال لهن عند البعض : أمهات المؤمنات ، لذا قالت عائشة رضي اللّه عنها لمن قالت لها :

يا أمه : أنا أم رجالكم ، لا أم نسائكم. وسيأتي بيان الخلاف.

ويثبت هذا الوصف لجميع أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، حتى المطلّقة ، لكن صحح إمام الحرمين وغيره قصر التحريم على المدخول بها فقط. واختار الرازي والغزالي

ج ٢١ ، ص : ٢٤٧

القطع بحل المرأة التي اختارت الدنيا من أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد نزول آية التخيير الآتية.

(٢٥٢/٢١)

ثم بيّن اللّه تعالى بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحامِ حكم الميراث ، وبقوله :
إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ حكم الوصية ، ليبين الفرق بين ولاية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم للمؤمنين ، وولاية المؤمنين لأقاربهم ، فالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا يورث ، فلا توارث بينه وبين أقاربه ، لولايته العامة ، والمؤمنون يرث بعضهم من بعض إذا كانوا ذوي قرابة ، وهم أولى ببعضهم في النفع بميراث وغيره ، إلا في حال بر صديق أو محتاج بالوصية ، فيصير أولى من قريبه ، فتقطع الوصية الإرث ، فقال :
وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ أي وذوو القرابات مطلقا ، سواء أكانوا أصحاب فروض أم عصبات أم ذوي أرحام أولى بمنافع بعضهم بالتوارث وغيره من بقية المؤمنين المهاجرين والأنصار ، أي بحق الدين وهو الإيمان ، أو بحق الهجرة ، وذلك في فرض اللّه وشرعه وما كتبه على عباده ، أو في القرآن ، أو في اللوح المحفوظ.
وقوله : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ كما ذكر الزمخشري إما بيان راجع لأولي الأرحام (أي الأقرباء) والمعنى : وأولو القرابة من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بنفع بعض أو بميراثه من الأجانب. وإما لابتداء الغاية ، والمعنى :
وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدّين ، ومن المهاجرين بحق الهجرة « ١ » . وعلى هذا المعنى الثاني وهو المشهور تكون الآية إبطالا لما كان في بدء الإسلام من التوارث بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين ، فكان المهاجري يرث الأنصاري ، دون قراباته وذوي رحمه ، بسبب الأخوّة التي
آخى بينهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقد آخى بين أبي بكر رضي اللّه عنه وخارجة بن زيد ، وآخى

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٣١

بين عمر وشخص آخر ، وآخى بين عثمان ورجل من بني زريق ، وآخى بين الزبير وكعب بن مالك « ١ » .
ويؤكد هذا المعنى

قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الشيخان عن ابن عباس : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »

والمراد : بطل حكم الهجرة وزالت الأحكام المترتبة عليها كالتوارث بها.

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً أي ذهب الميراث بالتآخي ، وبقي حكم الوصية والنصر والبر والصلة والإحسان ، أي إلا أن توصوا إلى أصدقائكم الذين توالونهم وتودونهم من المؤمنين والمهاجرين وصية ، والمعروف هنا :

الوصية ، ومن المعلوم أن الدّين والوصية مقدّمان شرعا على الميراث ، كما قال تعالى : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ [النساء ٤/ ١١].

ومعنى الآية : إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم.

كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً أي إن هذا الحكم (و هو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض) حكم من اللّه مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدّل ولا يغير ، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ما ، لمصلحة مؤقتة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ما هو جار في قدره الأزلي ، وقضائه القدري التشريعي.

وبعد بيان مكانة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بين المؤمنين ، أبان اللّه تعالى سمو مهمته وعلو منزلته في تبليغ الشرائع ، والدعوة إلى دين اللّه ورسالة ربه ، ووفائه بتلك المهمة ، عملا بمقتضى ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات اللّه ، وكأنه تعالى من بداية السورة إلى هنا قال لنبيه تعليما للأمة ، اتق اللّه ، ولا تخف أحدا ، واذكر

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٦٨

ج ٢١ ، ص : ٢٤٩

أن اللّه أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون شرائع اللّه ، ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع ، فقال : وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً أي واذكر أيها الرسول أننا أخذنا العهد المؤكد على جميع الأنبياء ولا سيما أولو العزم منهم وهم الخمسة المذكورون في الآية في أنهم يبلغون رسالة اللّه إلى أقوامهم ، ويقيمون دين اللّه تعالى ، ويتناصرون ويتعاونون فيما بينهم بإكمال بعضهم رسالة من تقدمه ، كما قال تعالى : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ ، مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قالَ :

أَأَقْرَرْتُمْ ، وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي ؟ قالُوا : أَقْرَرْنا ، قالَ : فَاشْهَدُوا ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ [آل عمران ٣/ ٨١] أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويعلن محمد صلّى اللّه عليه وسلّم أن لا نبي بعده.

ثم أكد اللّه تعالى ذلك الميثاق بعينه ، فوصفه بالشدة والغلظ مبالغة في حرمته وعظمته وثقل تبعته (مسئوليته) والمعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا ، فالميثاق الثاني هو الأول مؤكدا باليمين ، أو مكررا لبيان صفته ، من طريق استعارة الغلظ من صفة الأجسام المادية إلى الأشياء المعنوية ، مبالغة في بيان حرمته وعظمه وخطورته ، كما بينت.

وقد خص اللّه تعالى بالذكر خمسة رسل هم أولو العزم ، تنويها بشأنهم ، وتبيان أهمية رسالاتهم ، من باب عطف الخاص على العام ، كما في آية أخرى :

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى ٤٢/ ١٣].

ثم ذكر اللّه تعالى أنه سائل الأنبياء عن التبليغ والمؤمنين عن الإجابة والمكذبين عن التكذيب ، فقال :

لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً اللام في لِيَسْئَلَ قيل : إنها لام الصيرورة ، أي أخذ الميثاق على الأنبياء ، ليصير الأمر إلى السؤال عما فعلوا ، كما قال تعالى : وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [الأعراف ٧/ ٦].

قال الرازي : يعني أرسل الرسل ، وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب لأن الصادق محاسب ، والكافر معذب « ١ » . والظاهر- كما قال أبو حيان- أنها لام التعليل ، لام كي ، أي بعثنا الرسل ، وأخذنا عليهم المواثيق في التبليغ ، لكي يجعل اللّه خلقه فرقتين : فرقة يسألها عن صدقها ، على معنى إقامة الحجة ، فتجيب بأنها قد صدقت اللّه في إيمانها وجميع أفعالها ، فيثيبها على ذلك وفرقة كفرت ، فينالها ما أعد لها من العذاب ، فالصادقون المسؤولون على هذا المعنى : هم المؤمنون ، والهاء في صِدْقِهِمْ عائدة عليهم ، ويجوز أن يراد : وليسأل الأنبياء ، أو ليسأل عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم أو ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، وفي هذا تنبيه : أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف بمن سواهم ؟ « ٢ » أو ليسأل المبلّغين الذين بلغتهم الرسل. وعلى هذا ، يكون المعنى :

و أخذنا من الأنبياء ميثاقهم في تبليغ الدعوة إلى دين اللّه ، لكي نسأل المرسلين عن قيامهم بواجب التبليغ ، ومعرفة ما أجابتهم به أممهم ، ولأجل إثابة المؤمنين على إيمانهم وصدقهم ، وعقاب الكافرين من أممهم المكذبين رسلهم الذين أعد اللّه لهم عذابا شديدا مؤلما موجعا هو عذاب جهنم. فقوله تعالى : وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ معطوف على قوله : أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٩٧

(٢) البحر المحيط : ٧/ ٢١٣

١- النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أرأف وأعطف وأشفق على المؤمنين من أنفسهم لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة.

٢- آية النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أزال اللّه تعالى بها أحكاما كانت في صدر الإسلام منها : أنه صلّى اللّه عليه وسلّم كان لا يصلّي على ميّت عليه دين ، فلما فتح اللّه عليه الفتوح قال كما جاء في الصحيحين : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفّي وعليه دين فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته » .

و في الصحيحين أيضا « فأيكم ترك دينا أو ضياعا فأنا مولاه »

والضياع : مصدر ضاع ، ثم جعل اسما لكل ما يتعرض للضياع من عيال وبنين لا كافل لهم ، ومال لا قيّم له. وسميت الأرض ضيعة لأنها معرضة للضياع ، وتجمع ضياعا.

قال بعض العلماء : يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء اقتداء بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه ، حيث قال : « فعلي قضاؤه » .

٣- جعلت أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أمهات المؤمنين في وجوب التعظيم والبرّ والإجلال ، وحرمة النكاح على الرجال ، وتحريم النظر إليهن ، وحجبهن عن الرجال ، بخلاف الأمهات. وهذه

الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التبني ، وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس ، ولا أخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم ، فقد تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهي أخت عائشة ، ولم يقل : هي خالة المؤمنين. ولا يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين.

وهن في قول أمهات الرجال خاصة ، لا أمهات الرجال والنساء ، عن عائشة رضي اللّه عنها أن امرأة قالت لها : يا أمّه فقالت لها : لست لك بأمّ ، إنما أنا أمّ رجالكم. قال ابن العربي : وهو الصحيح « ١ » .

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٤٩٧

ج ٢١ ، ص : ٢٥٢

و قال القرطبي : لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء ، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيما لحقّهن على الرجال والنساء. يدل عليه صدر الآية : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة فيكون قوله : وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ عائدا إلى الجميع « ١ » .

(٢٥٨/٢١)

٤- قوله تعالى : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين ، وللتوارث بالهجرة لأن المراد بأولي الأرحام ذوي القرابة مطلقا أيا كان نوعهم ، والمراد بالمؤمنين الأنصار ، وبالمهاجرين قريشا ، وقد فسر الإمام الشافعي رضي اللّه عنه الآية بذلك ، وتبعه في هذا أبو بكر الرازي الجصاص من الحنفية. إلا أن الجصاص يرى فيها دليلا للحنفية على توريث ذوي الأرحام ، لا من حيث إن الآية قد أريد منها هذا النوع الخاص من الوارثين ، بل من حيث إن الآية اقتضت أن ذا القرابة مطلقا أولى من غيره ، وأما تقديم بعض ذوي القرابة على بعض ، فهذا له أدلته الخاصة.

ويقتضي ذلك أن يكون ذو الرحم (هو الصنف الذي يدلي إلى الميت بواسطة الأنثى) أولى من بيت المال ، فتكون الآية حجة على من قدم بيت المال عليهم.

وظاهر الآية يدل على أن ذا الرحم أولى من مولى العتاقة ، ويرى بعضهم أن مولى العتاقة مقدم على ذوي الأرحام ، وهو أولى من الرد لأنه من العصبات ، والعصبات أولى بالميراث من غيرهم ، و قد روي أن ابنة حمزة أعتقت عبدا ، ومات وترك بنتا ، فجعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نصف ميراثه لابنته ونصفه لابنة حمزة.

ونوقش

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ١٢٣

ج ٢١ ، ص : ٢٥٣

هذا بأنه لم يقل لنا الرواة : هل كان للميت ذو رحم ، حتى يتم الدليل. و

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر : « الولاء لحمة كلحمة النسب »

ونوقش هذا أيضا بأن التشبيه يقتضي مطلق الاستحقاق ، ولكنه لا يدل على تقديمه على غيره.

(٢٥٩/٢١)

٥- قال قوم : لا يجوز أن يسمّى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أبا لقوله تعالى : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ولكن يقال : مثل الأب للمؤمنين كما

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أبو داود : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم » .

وقال القرطبي : والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أب للمؤمنين ، أي في الحرمة لا في النسب ، وأما قوله تعالى :

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ فهو في النسب. وقرأ ابن عباس : « من أنفسهم ، وهو أب لهم ، وأزواجه أمهاتهم » وهي في مصحف أبيّ.

٦- لا مانع من الإحسان لغير الوارثين في الحياة ، والوصية عند الموت لهم لقوله تعالى : إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً أي إن ذلك جائز.

وقال محمد بن الحنفية : « إنها نزلت في جواز وصية المسلم لليهودي والنصراني » « ١ » أي أنه تجوز الوصية للقريب والوليّ وإن كان كافرا لأن الكافر ولي في النسب لا في الدين ، فيوصى له بوصية.

ويكون معنى الآية : وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بميراث بعض ، إلا إذا كان لكم أولياء من غيرهم ، فيجوز أن توصوا إليهم.

٧- رسالات الأنبياء في الأصول العامة كأصول الاعتقاد والأخلاق واحدة ، وهم متناصرون متعاونون فيما بينهم ، ويكمّل بعضهم رسالة البعض الآخر لقوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ... الآية ، أي أخذنا عهدهم على الوفاء بما أوحي إليهم ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدّق بعضهم بعضا ، وذلك

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣/ ٣٥٥

ج ٢١ ، ص : ٢٥٤

حكم قديم مسطور حين كتب اللّه ما هو كائن ، وحين أخذ اللّه تعالى المواثيق من الأنبياء ، وهو عهد وثيق عظيم على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا.

(٢٦٠/٢١)

و قد خص اللّه تعالى خمسة أنبياء بالذكر (و هم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى). تفضيلا لهم لأنهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم ، ولأنهم أصحاب الشرائع والكتب. وقدّم محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم في الذكر لما

رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سئل عن قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ... فقال : « كنت أولهم في الخلق ، وآخرهم في البعث ، فبدأ بي قبلهم » « ١ » .

٨- قوله تعالى : لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ فيه أربعة أوجه « ٢ » :

أحدها- ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، وفي هذا تنبيه أي إذا كان الأنبياء يسألون ، فكيف من سواهم ؟

الثاني- ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم.

الثالث- ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم.

الرابع- ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ، كما قال تعالى :

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [الأعراف ٧/ ٦].

وفائدة سؤال الأنبياء : توبيخ الكفار ، كما قال تعالى لعيسى عليه السلام :

أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ [المائدة ٥/ ١١٦].

---

(١) لكن فيه راو ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي : ١٤/ ١٢٨

ج ٢١ ، ص : ٢٥٥

غزوة الأحزاب أو الخندق وبني قريظة [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٩ الى ٢٧]

(٢٦١/٢١)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١(١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١(٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣)

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١(٤) وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨)

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢(١) وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً (٢(٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢(٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

ج ٢١ ، ص : ٢٥٦

الإعراب :

إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ (١٠) إِذْ : في موضع نصب على البدل من إِذْ في قوله تعالى : إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ وإِذْ هذه منصوبة ب اذْكُرُوا.

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) يقرأ الظُّنُونَا بإثبات الألف ، لأنها فاصلة ، وفواصل الآيات تشبه رؤوس الأبيات. ويقرأ بترك الألف على الأصل.

وَإِذْ يَقُولُ وإِذْ قالَتْ (١٢ ، ١(٣) : إِذْ فيهما منصوب بفعل مقدر ، أي اذكر.

وَيَسْتَأْذِنُ (١(٣) الواو : واو الحال ، والجملة بعدها في موضع نصب على الحال من الطائفة المرفوعة ب قالَتْ. وقال بعضهم : تم الكلام عند قوله : فَارْجِعُوا وليست الواو واو الحال.

ج ٢١ ، ص : ٢٥٧

و إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ أي ذات عورة ، فحذف المضاف.

عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ، لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ (١٥) عاهَدُوا اللَّهَ : بمنزلة القسم ، ولا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ : جوابه.

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ (١٩) : إما منصوب على الحال من واو يَأْتُونَ أو منصوب على الذم.

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ، كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (١٩) : يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في رَأَيْتَهُمْ من رؤية العين.

وتَدُورُ أَعْيُنُهُمْ : إما حال من واو يَنْظُرُونَ أو حال بعد حال. وكَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ تقديره : تدور أعينهم دورانا كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت ، فحذف المصدر وهو « دورانا » وما أضيفت الكاف إليه وهو دوران ، وما أضيف « دوران » إليه وهو « عين » وأقيم « الذي » مقام « عين » وإنما وجب هذا التقدير ليستقيم معنى الكلام لأن تشبيه الدوران بالذي يغشى عليه تشبيه العرض بالجسم ، والأعراض لا تشبه بالأجسام ، ومِنَ الْمَوْتِ أي من حذر الموت.

أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ (١٩) : أَشِحَّةً : منصوب على الحال من واو سَلَقُوكُمْ وهو عامله.

بادُونَ فِي الْأَعْرابِ (٢٠) : الجار والمجرور إما مرفوع على أنه خبر بعد خبر ، أي كائنون في جملة الأعراب ، وإما منصوب على الحال من ضمير بادُونَ.

لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ (٢(١) : الجار والمجرور بدل من لكم أو في موضع رفع لأنه صفة بعد صفة ل أُسْوَةٌ أي أسوة حسنة كائنة لمن كان. ولا يتعلق ب أُسْوَةٌ إذا جعل مصدرا بمعنى التأسي لأنها وصفت

والمصدر إذا وصف لم يعمل.

وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً (٢(٢) أي ما زادتهم الرؤية إلا إيمانا ، وإنما جعل الفعل زادَهُمْ بالتذكير لأن الرؤية بمعنى النظر.

ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ (٢(٣) : ما هنا : مصدرية ، في موضع نصب ب صَدَقُوا أي صدقوا اللّه في العهد ، أي وفّوا به.

البلاغة :

مِنْ فَوْقِكُمْ وأَسْفَلَ مِنْكُمْ بينهما طباق.

تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ تشبيه تمثيلي لأن وجه الشبه منتزع من

وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ مبالغة في التمثيل ، صور القلوب في خفقانها واضطرابها ، كأنها وصلت إلى الحلقوم.

لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ كناية عن الفرار من الزحف.

سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ استعارة مكنية ، شبه اللسان بالسيف المصلت ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق أي الضرب ، بطريق هذه الاستعارة ، وحِدادٍ ترشيح.

مَسْطُوراً بَصِيراً غُرُوراً فِراراً يَسِيراً كَثِيراً توافق الفواصل في الحرف الأخير.

هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إطناب بتكرار اسم اللّه والرسول صلّى اللّه عليه وسلّم للتعظيم والتشريف.

قَضى نَحْبَهُ استعارة ، أستعير النحب وهو النّذر للموت نهاية كل حي كأنه نذر لازم في رقبة كل إنسان.

وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ قوله : إِنْ شاءَ اعتراض للدلالة على أن العذاب أو الرحمة بمشيئة اللّه تعالى.

المفردات اللغوية :

إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ يعني الأحزاب وهم قريش بقيادة أبي سفيان ، وغطفان بقيادة عيينة بن حصن ، وبنو أسد بإمرة طليحة ، وبنو عامر بزعامة عامر بن الطّفيل ، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي ، وبنو النّضير من اليهود برئاسة حييّ بن أخطب وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة من اليهود أيضا وسيدهم كعب بن أسد ، وقد نقض هؤلاء اليهود عهدهم مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتواطؤوا مع قريش. وبلغ مجموع الأحزاب عشرة آلاف ، أو زهاء اثني عشر ألفا.

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً ريح الصبا وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها هم الملائكة وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ من حفر الخندق ، وعلى قراءة : يعملون تحزيب المشركين ومحاربتهم بَصِيراً رائيا مطلعا تمام الاطلاع مِنْ فَوْقِكُمْ أي من أعلى الوادي ، من جهة المشرق وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من أسفل الوادي من جهة المغرب زاغَتِ الْأَبْصارُ مالت عن مستوى نظرها ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها حيرة ودهشة وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ المراد أنها فزعت فزعا شديدا ، والحناجر :

جمع حنجرة : وهي منتهى الحلقوم وهو مدخل الطعام والشراب والتنفس ، وتصوير ذلك : أن الرئة تنتفخ من شدة الرعب ، فترتفع بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا أي تظنون مختلف الظنون من نصر ويأس ، فالمؤمنون المخلصون خافوا الزلل وضعف الاحتمال ، والمنافقون

ج ٢١ ، ص : ٢٥٩

و مرضى القلوب كذبوا بوعد اللّه ، وتشككوا فيه ، وأعلنوا بطلانه.

(٢٦٦/٢١)

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ اختبروا وامتحنوا ، فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً اضطربوا كثيرا من شدة الفزع وكثرة العدو وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ضعف اعتقاد ، وهم قوم كان المنافقون يستميلونهم بالإغراءات وزرع الشّبه في قلوبهم ، لحداثة عهدهم بالإسلام ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ بالنصر أو الظفر وإعلاء دينه إِلَّا غُرُوراً إلا وعدا باطلا لا حقيقة له ، أو خداعا.

طائِفَةٌ مِنْهُمْ أي المنافقين يا أَهْلَ يَثْرِبَ أهل المدينة ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل لا مُقامَ لَكُمْ أي لا إقامة ولا مكانة لكم هاهنا فَارْجِعُوا إلى منازلكم في المدينة هاربين ، وذلك بعد أن خرجوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى « سلع » : جبل خارج المدينة للقتال وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ في الرجوع يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ قاصية غير حصينة ، يخشى عليها الاقتحام من الأعداء وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ بل هي حصينة إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً أي ما يريدون إلا هروبا من القتال مع المؤمنين.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ المدينة مِنْ أَقْطارِها نواحيها وجوانبها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ طلب منهم الداخلون الشرك والردة ، ومقاتلة المسلمين لَآتَوْها لأعطوها وفعلوها ، وقرئ :

لأتوها أي لجاؤوها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً ما أخّروها ، أو ما أخروا إعطاء الفتنة إلا لوقت يسير لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ المراد لا ينهزمون ولا يفرون من الزحف. والأدبار : جمع دبر وهو ما قابل القبل ، ويطلق على الظهر وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا عن الوفاء به ، ومجازي عليه. وهم بنو حارثة عاهدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد حين فشلوا ، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله.

(٢٦٧/٢١)

وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إذا فررتم لا تتمتعون في الدنيا بعد فراركم إِلَّا قَلِيلًا أي لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعا أو زمانا قليلا يَعْصِمُكُمْ يمنعكم أو يجيركم إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً هلاكا وهزيمة أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً فيه محذوف أي : أو يصيبكم بسوء إن أراد اللّه بكم خيرا ، فقد يكون المصاب خيرا مِنْ دُونِ اللَّهِ غيره وَلِيًّا موالیا ينفعهم وَلا نَصِيراً ناصرا يدفع ال

الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ المثبّطين منكم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم المموت خوفا فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ زالت حالة الخوف وحيزت الغنائم سَلَقُوكُمْ آذوكم بالكلام ورموكم بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أي ألسنة ذربة سليطة قاطعة

ج ٢١ ، ص : ٢٦٠

كالحديد يطلبون الغنيمة لَمْ يُؤْمِنُوا حقيقة فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ أبطل ثمرة أعمالهم وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً أي وكان ذلك الإحباط هينا سهلا على إرادة اللّه ، فإذا أراد شيئا كان ، ولم يمنعه عنه أحد.

يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ من الكفار لَمْ يَذْهَبُوا إلى مكة ، لخوفهم منهم ، المعنى : يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ، وقد انهزموا ، ففروا إلى داخل المدينة وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ كرة أخرى يَوَدُّوا يتمنوا بادُونَ فِي الْأَعْرابِ كائنون معهم في البادية يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ أخباركم مع الكفار ، وما جرى عليكم وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا أي ما كان قتالهم إلا قتالا ظاهريا قليلا ، رياء وخوفا من التعيير.

(٢٦٨/٢١)

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قدوة صالحة ، يتأسى به ، كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ أي يرجو ثواب اللّه أو لقاءه ، ونعيم الآخرة وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً قرن بالرجاء كثرة ذكر اللّه المؤدية إلى ملازمة الطاعة ، فإن المؤتسي بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من كان كذلك ، بخلاف غيره.

وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ من الكفار الذين تجمعوا لحرب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والقضاء عليه قالُوا : هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ من الابتلاء والنصر ، بقوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ .. [البقرة ٢/ ٢١٤] و

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر » « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم » .

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ في الوعد والابتلاء وَما زادَهُمْ ذلك الذي رأوه من الخطب أو البلاء إِلَّا إِيماناً تصديقا بوعد اللّه وَتَسْلِيماً لأمره ومقاديره.

صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ من الثبات مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمقاتلة لإعلاء الدين قَضى نَحْبَهُ مات أو قتل في سبيل اللّه شهيدا ، ووفّى نذره ، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ، والنحب : النذر ، فجعل كناية عن الموت مَنْ يَنْتَظِرُ الشهادة ، كعثمان وطلحة وَما بَدَّلُوا العهد ولا غيروه ، بخلاف حال المنافقين لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ تعليل للمنطوق وهم المؤمنون المخلصون ، وللمعرّض به وهم المنافقون ، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء ، كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى ، لكن التوبة عليهم مشروطة بتوبتهم ، والمراد به التوفيق للتوبة غَفُوراً رَحِيماً لمن تاب.

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا الأحزاب بِغَيْظِهِمْ متغيظين لَمْ يَنالُوا خَيْراً غير ظافرين وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ بالريح والملائكة وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا على إيجاد ما يريد عَزِيزاً غالبا على كل شيء ظاهَرُوهُمْ ظاهروا الأحزاب أي عاونوهم مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ يعني من بني قريظة مِنْ صَياصِيهِمْ من حصونهم ، جمع صيصة وهي كل ما يتحصن به

ج ٢١ ، ص : ٢٦١

وَ قَذَفَ ألقى الرُّعْبَ الخوف الشديد فَرِيقاً تَقْتُلُونَ منهم وهم المقاتلة وَتَأْسِرُونَ فريقا منهم وهم الذراري : أي النساء والأطفال. وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها بعد ، وهي خيبر ، أخذت بعد قريظة.

سبب النزول : نزول الآية (٩) :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ :

أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال : لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون قعودا ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة أسفل منا ، نخاف على ذرارينا ، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة ، ولا أشد ريحا منها ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له ، فيتسللون ، إذ استقبلنا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رجلا رجلا حتى أتى علي ، فقال :

ائتني بخبر القوم ، فجئت ، فإذا الريح في عسكرهم ، ما تجاوز عسكرهم شبرا ، فو اللّه ، إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم ، وهم يقولون : الرحيل الرحيل ، فجئت ، فأخبرته خبر القوم ، وأنزل اللّه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ الآية.

نزول الآية (١(٢) :

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ :

أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عمرو المزني قال : خطّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الخندق عام الأحزاب ، فأخرج اللّه من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة ، فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المعول ، فضربها ضربة ، صدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة « ١ » ، فكبّر ، وكبّر المسلمون ، ثم ضربها الثانية ، فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، فكبّر

---

(١) جانبي المدينة.

ج ٢١ ، ص : ٢٦٢

و كبر المسلمون ، ثم ضربها الثالثة ، فكسرها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، فكبّر ، وكبّر المسلمون ، فسئل عن ذلك ، فقال : ضربت الأولى ، فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم ، ثم ضربت الثانية ، فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة ، فأضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟

ويحدّثكم ، يمنّيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق « ١ » ، لا تستطيعون أن تبرزوا ، فنزل القرآن : وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.

نزول الآية (٢(٣) :

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ :

أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أنس قال : غاب عمي أنس بن النضر عن بدر ، فكبر عليه ، فقال : أول مشهد قد شهده رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم غبت عنه ، لئن أراني اللّه مشهدا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليرينّ اللّه ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى بالتقوى بحيث لا يبقى في نفس المؤمن خوف من أحد ، ذكر مثالا واقعيا من وقعة الأحزاب ، حيث تجمع المشركون من قريش ومن عاونوهم من اليهود والأحباش عشرة آلاف حول

المدينة بقصد القضاء على

---

(١) الفرق : الخوف. [.....]

ج ٢١ ، ص : ٢٦٣

النبي وصحبه ، فدفع اللّه القوم عن المؤمنين من غير قتال وآمنهم من الخوف ، مما يدل على أنه لا يخاف العبد غير ربه ، فإنه القادر على كل ممكن ، الكاف أمره.

أضواء من السيرة على غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق :

في شوال من السنة الخامسة للهجرة اجتمع حول المدينة عشرة آلاف ، أو اثنا عشر ألفا ، أو خمسة عشر ألفا من الكفار الوثنيين وأهل الكتاب ، للقضاء على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكان المشركون من قريش والأحباش في أربعة آلاف بقيادة أبي سفيان ، وبني أسد بقيادة طليحة ، وغطفان في ستة آلاف بزعامة عيينة بن حصن ، وبني عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وسليم يقودهم أبو الأعود ، وكان يهود بني النضير برئاسة حيي بن أخطب وابني أبي الحقيق ، ويهود بني قريظة وسيدهم كعب بن أسد الذي كان بينه وبين الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم عهد ، فنبذه بسعي حيي بن أخطب.

وكان سبب الوقعة اليهود ، فقد خرج نفر من بني النضير وبني قريظة ، فقدموا على قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاؤوا غطفان وقيسا وعيلان وبني مرة وأشجع ، فدعوهم إلى الحرب في المدينة ، فتوافق المعسكران : الوثني والكتابي على تكوين جيش موحد بقيادة أبي سفيان ، فنزلوا أمام المدينة.

و

خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمون في ثلاثة آلاف ، حتى نزلوا بظهر سلع.

ولما سمع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بمسير فئات الأحزاب ، أمر بحفر خندق حول المدينة بمشورة سلمان الفارسي ، وعمل في حفره الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمون ، في السهل الواقع شمال غرب المدينة ، وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو ، وأما الجوانب الأخرى فكانت محصنة بالجبال. وبلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع ، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة ، وعرضه تسعة فأكثر.

ج ٢١ ، ص : ٢٦٤

فلما رأى المشركون وأحزابهم الخندق قالوا : واللّه هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، فوقعت مصادمات ، وحاول بعض المشركين اقتحام الخندق ، فرمي بالحجارة ، واقتحمه بعضهم بفرسه فهلك أو قتل ، منهم الفارس المشهور عمرو بن ودّ العامري الذي تبارز مع علي رضي اللّه عنه ، فقتله ، وفرّ صاحباه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ، ومن فوارسهم نوفل بن مغيرة. واستشهد سعد بن معاذ رضي اللّه عنه في غزوة بني قريظة.

ثم وقعت مكيدة محكمة بين الأحزاب ، فبينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه في خوف وشدة ، إذ جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني ، فقال : يا رسول اللّه ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم :

« إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

فأتى بني قريظة ، وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقيّة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى قريشا وغطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتّحدون معه على قتالكم لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا.

ولما أراد أبو سفيان وقادة غطفان خوض معركة حاسمة مع المسلمين ، تباطا اليهود ، وطلبوا منهم رهائن من رجالهم ، فامتنعوا وصدّقوا حديث نعيم بن مسعود ، وتحقق اليهود من صدق حديث نعيم أيضا ، فتخاذل اليهود والعرب ، وتفرقت الكلمة.

ودب الضعف في الأحزاب ، وزاد من قلقهم واضطرابهم أن أرسل اللّه عليهم

ريحا شديدة البرد في ليلة شاتية ، فأكفأت قدورهم ، وطرحت آنيتهم.

فرجع أبو سفيان مع قريش إلى بلادهم ، وتبعته غطفان ، وأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حذيفة بن اليمان حتى يأتي بخبرهم ، ومكث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قائما يصلي ، ودعا لحذيفة بالسلامة والحفظ حتى يعود ، كما دعا رافعا يديه ويقول :

« يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همّي وغمي وكربي ، فقد ترى حالي وحال أصحابي » فنزل جبريل وقال : إن اللّه قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخرّ رسول اللّه صلّى

اللّه عليه وسلّم على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي.

وصدق اللّه إذ يقول : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً [الأحزاب ٣٣/ ٩] ويقول : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ، وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً [الأحزاب ٣٣/ ٢٥].

وانتهت الحرب بين المسلمين والمشركين ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » .

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة ، وقتل من المشركين أربعة.

التفسير والبيان :

تضمنت الآيات في مجال التذكير بنعمة اللّه وإحسانه إلى عباده المؤمنين بنصرهم في غزوة الخندق موضوعات خمسة : هي وصف الغزوة (الآيات :

٩- ١(١) وموقف المنافقين واليهود من المسلمين (الآيات : ١٢- ٢(١) وموقف المؤمنين في التضحية والفداء (الآيات : ٢٢- ٢(٤) ونصر المؤمنين وهزيمة الكافرين (الآية : ٢٥) وتأديب يهود بني قريظة (الآيتان : ٢٦- ٢٧).

ج ٢١ ، ص : ٢٦٦

أولا- وصف الغزوة :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً أيها المؤمنون باللّه ورسوله اذكروا بالشكر والحمد نعم اللّه التي أنعم بها عليكم حين وقعتم في حصار جنود وحشود هائلة من قريش وغطفان واليهود الذين جاؤوا لإبادتكم واستئصال شوكتكم وإنهاء وجودكم ، فبعثنا عليهم ريحا باردة في ليلة شاتية ، وملائكة لم تروها زلزلتهم وألقت الرعب في قلوبهم ، فأكفأت القدور ، وقلبت البيوت والأواني ، حتى بادر رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان ، النجاء النجاء ، وقال طليحة بن خويلد الأسدي : إن محمدا قد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، وقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم واللّه ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع (الخيول) والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، واللّه ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله ، وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

وكان اللّه مطلعا عليما على جميع أعمالكم من حفر الخندق ومقاساة الشدائد ، والاستعداد للقتال ، والتحرز من العدو ، وهو يجازيكم عليها ، ولا يبخس منها شيئا.

ثم ذكّرهم بإحكام حصار الأحزاب عليهم ، فقال :

إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ أي واذكروا حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق ، ومن أسفل الوادي من جهة المغرب ، الأولون من قريش والأحباش وبني كنانة وأهل تهامة ، والآخرون من بني قريظة ، كما ذكر حذيفة. وقيل : الأولون من أهل نجد وبني أسد

و بني نصر ، والآخرون : من قريش ، وأما يهود بني قريظة فمن وجه الخندق.

وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا أي وإذ مالت الأبصار عن سننها ، فلم تلتفت إلى العدو لكثرته ، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف والفزع ، وتظنون مختلف الظنون ، فمنكم مؤمن ثابت الإيمان لا يتزحزح عن موقفه ، واثق بنصر اللّه وبوعده ، ومنكم منافق مريض الاعتقاد ، ظن أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وينتصر المشركون ، ويسودون المدينة. قال الحسن البصري : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم ينصرون.

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً أي حينئذ اختبر اللّه المؤمنين ، فظهر المخلص من المنافق ، وحركوا واضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وتهديد العدو ، فمن ثبت منهم هم المؤمنون حقا ، ومن استبد القلق بهم هم المنافقون.

والامتحان من اللّه ليس لاستبانة الأمر له ، بل لحكمة أخرى ، هي أن اللّه تعالى عالم بما هم عليه ، لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الأنبياء والملائكة.

ثانيا- موقف اليهود والمنافقين من المسلمين :

ثم أعلن اللّه تعالى موقف المنافقين ومؤيديهم ، فقال :

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً أي واذكروا حين قال المنافقون الذين أسلموا في الظاهر ولم تؤمن قلوبهم ، وضعفاء العقيدة لحداثة عهدهم بالإسلام : ما وعدنا اللّه ورسوله من النصر على العدو إلا وعدا باطلا لا وجود ولا حقيقة له. والقائل : جماعة من اليهود والمنافقين نحو من سبعين رجلا ، مثل معتّب بن قشير وطعمة بن أبيرق ، فقال معتب حين رأى الأحزاب : يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن

يتبرّز فرقا (خوفا) ما هذا إلا وعد غرور « ١ » . وأما مريض الاعتقاد فتحدث بما توسوس به نفسه لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال.

وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ : يا أَهْلَ يَثْرِبَ ، لا مُقامَ لَكُمْ ، فَارْجِعُوا أي واذكروا أيضا حين قالت طائفة من المنافقين ، وهم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه ، أو عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه : يا أهل المدينة ، لا وجه لإقامتكم مع محمد وعسكره ، ولا مسوغ لها مع هذه الحال من الذل والهوان ، ولا قرار لكم هاهنا ولا مكان تقيمون فيه ، فارجعوا إلى بيوتكم ومنازلكم في المدينة ، لتسلموا من القتل والفناء.

ويثرب : اسم للبقعة التي هي المدينة أو طيبة أو طابة. والطائفة :

تطلق على الواحد فأكثر.

وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ، وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً أي وبسبب إشاعة الفتنة وبثّ روح الضعف عزم جماعة من المنافقين على الرجوع وهم بنو حارثة بن الحارث ، وطلبوا الإذن من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في العودة إلى بيوتهم وترك القتال قائلين : إن بيوتنا سائبة ضائعة ليست بحصينة ، أي فيها خلل يخاف منه دخول العدو والسارق ليأخذ المتاع ويفزع النساء والأولاد ، فكذبهم اللّه بقوله : وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ أي ليس فيها خلل أو ثغرة ، بل هي حصينة وليست كما يزعمون ، وإنما قصدهم الفرار بسبب الخوف ، والهرب من الزحف مع جيش المؤمنين الصادقين.

ثم بيّن اللّه تعالى مدى ضعف الإيمان ورقّته في قلوبهم وأن ذلك الفرار ليس لحفظ البيوت ، فقال :

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ، ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها ، وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً أي ولو دخل الأعداء عليهم من كل جانب من جوانب المدينة ، أو

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٣٣ ، البحر المحيط : ٧/ ٢١٧

البيوت ، ثم طلب منهم الردة والعودة صراحة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين ، لجاؤوها أو لأعطوها من أنفسهم ولفعلوا ذلك سريعا ، ولم يحافظوا على الإيمان ولم يستمسكوا به ، وما مكثوا في استجابتهم وعطائهم ما طلب منهم إلا زمنا يسيرا من أدنى خوف وفزع ، وهو مقدار ما يكون السؤال والجواب من

غير توقف. أو ما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا.
وهذا دليل واضح على ضعف الإيمان في نفوسهم ، فلا عجب إذا بادروا إلى التراجع والتسلل من المعركة. وهذه سمة المترددين الجبناء الذين اعتادوا على الهرب من مواقف الصمود ولقاء الشجعان ، لذا قال تعالى :
وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ ، وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا أي ولقد كان هؤلاء وهم بنو حارثة عاهدوا اللّه يوم أحد من قبل هذا الخوف ألا يولوا الأدبار ، ولا يفرون من الزحف ، ثم تابوا وعاهدوا اللّه ألا يعودوا لمثل ذلك. ثم هددهم تعالى وأوعدهم بقوله : وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا أي إن اللّه سيسألهم عن ذلك العهد والوفاء به يوم القيامة ، ويجازيهم على نقضه وخيانة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذلك أمر لا بدّ منه. وقوله : مَسْؤُلًا معناه :
مطلوبا مقتضى حتى يوفى به.
ثم بيّن اللّه تعالى لهم عدم جدوى فعلهم ، ووبخهم ، فقال :

قُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا أي أخبرهم أيها الرسول أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطوّل أعمارهم ، فلن ينفعهم الهرب من لقاء الموت أو القتل في ميدان المعركة ، فإن المقدّر كائن لا محالة ، وربما كان فرارهم سببا في تعجيل أخذهم غرّة ، وإذا ظلوا أحياء ونفعهم الفرار ونجوا من الموت كما يظنون ، لم يكن تمتعهم بالتأخير بمتاع الدنيا بعد هربهم وفرارهم إلا تمتيعا قليلا أو زمانا يسيرا :
ج ٢١ ، ص : ٢٧٠
قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى [النساء ٤/ ٧٧]. قال الربيع بن خيثمة : وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار لأن مجيء الأجل لا بدّ منه.
ثم أبان اللّه تعالى ما تقدم معرّفا لهم قدرته الكاملة عليهم ، فقال :
قُلْ : مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً أي وقل لهم أيضا أيها الرسول : لا أحد يستطيع أن يمنعكم من مراد اللّه بكم ، أو دفع السوء عنكم إذا قدره اللّه عليكم ، أو تحقيق النفع والخير إذا أراده لكم. وقوله :
أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً معناه : أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام. وقوله : سُوءاً أي هلاكا ، وقوله : رَحْمَةً أي خيرا ونصرا وعافية.

وأكد هذا بقوله :

وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً أي ولا يجد هؤلاء المنافقون ومؤيدوهم من ضعفاء العقيدة ولا غيرهم مجيرا ولا مغيثا ولا نصيرا ينصرهم أو يشفع لهم.

ثم حذرهم بدوام علمه بالخائنين ، فقال :

(٢٨٠/٢١)

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنا قد : هنا للتحقيق وليس للتقليل ، والمعنى : إن اللّه ليعلم علما محيطا شاملا الذين يثبطون المسلمين عن شهود الحرب ، تخذيلا ونفاقا ، ويعلم القائلين لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة : تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار ، وقرّبوا أنفسكم إلينا ، واتركوا محمدا والحرب معه. وهلّم : لغة أهل الحجاز ، يسوّون فيه بين الواحد والجماعة ، وأما تميم فيقولون : هلم يا رجل ، وهلموا يا رجال ، وهلمن يا نساء. والذي عليه النحويون أن هلم ليس صوتا ، وإنما هو مركب مختلف في

ج ٢١ ، ص : ٢٧١ أصل تركيبه ، فقيل : هو مركب من ها التي للتنبيه ولم ، وهو مذهب البصريين ، وقيل : من هل وأم ، وهو متعد ولازم ، فالمتعدي كقوله : قُلْ : هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ [الأنعام ٦/ ١٥٠] أي أحضروا شهداءكم ، واللازم كقوله : هلم إلينا ، وأقبلوا إلينا ، وقوله : وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ إما المنافقون قالوا للمسلمين :

ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس « ١ » ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا ، وإما يهود بني قريظة قالوا لإخوانهم من المنافقين : تعالوا إلينا وفارقوا محمدا ، فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا. وإما رجل من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال لشقيقه في قلب المعركة : هلم إلي ، قد تبع بك وبصاحبك ، أي قد أحيط بك وبصاحبك.

وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أي ولا يأتي المنافقون القتال إلا زمنا قليلا أو شيئا قليلا إذا اضطروا إليه ، خوفا من الموت ، كقوله تعالى : ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا [الأحزاب ٣٣/ ٢٠].

ثم ذكر اللّه تعالى صفات أخرى لهم ، فقال :

(٢٨١/٢١)

١- أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ هذه صفة البخل ، أي بخلاء بأنفسهم وأحوالهم وأموالهم ، فلا يعاونونكم في الحرب بنفس ولا بمال ولا بمودة وشفقة ، وكذا عند قسمة الغنيمة. وأشحة : جمع شحيح على غير

القياس ، والقياس : أشحاء ، مثل خليل وأخلاء. والصواب : أن يعم شحهم كل ما فيه منفعة المؤمنين.
٢- فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ وهذه صفة الجبن والخوف ، والبخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بيّن سببه وهو الجبن ، والمعنى : فإذا بدأ حدوث الخوف ببدء المعركة والقتال ،

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد ، وهو جمع آكل.

ج ٢١ ، ص : ٢٧٢

رأيتهم ينظرون إليك أيها النبي في تلك الحالة ، كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا وضعفا ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال.

٣- فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ وهذه صفة سلاطة اللسان والإيذاء بالكلام والتفاخر الكاذب ، والمعنى : فإذا تحقق الأمن غلبوكم باللسان وآذوكم بالكلام ، وتفاخروا بأنهم أهل النجدة والشجاعة ، وهم في ذلك كاذبون.

وسبب هذه الصفة ، كما قال تعالى :

أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أي وهم مع ذلك ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم قليلو الخير في الحالتين ، كثيرو الشر في الوقتين ، يبخلون أولا وآخرا ، أي أنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة بخلاء ، قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا ، قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق.

ثم ذكر اللّه تعالى سبب مرضهم وجميع صفاتهم وهو ضعف الثقة باللّه ، فقال :

أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ، فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً أي إن أولئك المنافقين هم في الواقع غير مصدقين باللّه ورسوله ، ولم يؤمنوا حقيقة ، وإن أظهروا الإيمان لفظا ، فأبطل اللّه أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين ، وكان ذلك الإحباط سهلا هينا عند اللّه ، بمقتضى عدله وحكمته.

وتساءل الزمخشري بقوله : هل يثبت للمنافق عمل ، حتى يرد عليه الإحباط ؟ فأجاب : لا ، ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يواطئه القلب ، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجزى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل « ١ » .

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٣٤

ج ٢١ ، ص : ٢٧٣

ثم ذكر اللّه تعالى أن صفاتهم القبيحة في الجبن والبخل والخوف ملازمة لهم على الدوام ، وليست مجرد أمر عارض مؤقت ، فقال :

يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا أي يظنون من شدة الخوف والفزع أن أحزاب الكفر من قريش وغطفان وبني قريظة لم يرحلوا ولم ينهزموا ، وأن لهم عودة إلى الحصار والحرب فكأنهم عند حضورهم غائبون عن الساحة حيث لا يقاتلون ، مع أن الأحزاب رحلوا وانهزموا ولن يعودوا.

وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ ، يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ أي وإن يعد الأحزاب إلى قتالكم ، يتمنوا أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة وبين المقاتلين ، بل يكونون في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم للشماتة بكم ، وانتظار وقوع السوء بكم ، وجبنا وخورا في العزائم.

وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا أي ولو كان هؤلاء المنافقون معكم في ساحة المعركة لما قاتلوا إلا قتالا يسيرا وزمنا قليلا ، لاستيلاء الجبن والضعف عليهم.

(٢٨٣/٢١)

ثم لفت نظرهم ونظر غيرهم إلى ضرورة التأسي بالقائد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً هذا أمر من اللّه تعالى بالتأسي بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم الأحزاب وغيره في أقواله وأفعاله وأحواله ، وصبره ومصابرته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل ، والمعنى : لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة صالحة ومثل أعلى يحتذي به ، فهلا اقتديتم وتأسيتم بشمائله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهو مثل أعلى في الشجاعة والإقدام والصبر والمجالدة ، إذا كنتم تريدون ثواب اللّه وفضله ، وتخشون اللّه وحسابه ،

ج ٢١ ، ص : ٢٧٤

و تذكرونه ذكرا كثيرا في الليل والنهار ، حبا به وتعظيما له ، وخوفا من عقابه ، وطمعا في ثوابه وجزائه ، فإن ذكره دافع إلى طاعته ، والتأسي برسوله.

وهذا عتاب للمتخلفين ، وإرشاد للناس جميعا أن يتأسوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في السراء والضراء وحين البأس ولقاء الشجعان ونزال الأبطال.

ثالثا- موقف المؤمنين :

ثم بعد بيان حال المنافقين أبان اللّه تعالى حال المؤمنين عند لقاء الأعداء ، فقال :

(٢٨٤/٢١)

وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا : هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً أي ولما شاهد المؤمنون المصدقون بموعود اللّه لهم ، المخلصون في القول والعمل الأحزاب المتجمعة حول المدينة قالوا : هذا ما وعدنا اللّه ورسوله من الابتلاء والاختبار بمجابهة الأعداء ثم النصر القريب ، وصدق اللّه ورسوله الوعد بالنصر ، وما زادهم تجمع الأعداء وتلك الحال من الشدة والضيق إلا إيمانا باللّه ، وتصديقا لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتسليما لقضائه وقدره وانقيادا لأوامره وطاعة رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، واعتقادا جازما أن النصر من عند اللّه تعالى بعد أن يتخذ العباد الأسباب ، ويستعدوا للحرب ، ويقاتلوا فعلا لأن الجهاد تكليف من اللّه لعباده ، وتعطيل التكليف معصية ، ومجرد الاعتماد على قدرة اللّه وإمداده بالعون والنصر دون عمل من عباده : سوء فهم وجهل وتمنيات شيطانية خادعة.

والتحذير من هذه المفاهيم المخطئة متكرر في القرآن ، قال تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة ٢/ ٢١٤] وقال سبحانه : أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا ، وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ [العنكبوت ٢٩/ ٢].

ج ٢١ ، ص : ٢٧٥

و

عن ابن عباس قال : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لأصحابه : « إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا »

أي في آخر تسع ليال أو عشر. و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم أيضا : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم » .

(٢٨٥/٢١)

و في الآية دلالة على وجوب الثقة بوعد اللّه ورسوله ، وقوله تعالى :

وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص.

وبعد بيان حال المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي عاهدوا اللّه عليه لا يولون الأدبار ، وصف اللّه تعالى المؤمنين الذين استمروا على العهد والميثاق ، فوفوا بعهدهم الذي عاهدوا اللّه أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت ، فقال :

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا أي وهناك في مقابلة المنافقين جماعة من المؤمنين المخلصين الصادقين ، صدقوا العهد مع اللّه ، ووفوا بما عاهدوا عليه من الصبر في حال الشدة والبأس ، فمنهم من انتهى أجله واستشهد كيوم بدر وأحد ، ومنهم من ينتظر قضاء اللّه والشهادة وفاء بالعهد ، وما بدلوا عهدهم وما غيّروه ، بخلاف المنافقين الذين قالوا : لا نولي الأدبار ، فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم.

وقوله : قَضى نَحْبَهُ معناه قاتل فوفى بنذره ، والنحب : النذر.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي اللّه عنه : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

و

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال : « غاب عمي أنس بن النضر عن بدر ، فشقّ عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم غبت عنه ، لئن أراني اللّه تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليرينّ اللّه عز وجل

ج ٢١ ، ص : ٢٧٦

ما أصنع ، قال أنس : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي اللّه عنه ، فقال له أنس رضي اللّه عنه :

يا أبا عمرو ، أين ؟ واها لريح الجنة ، إني لأجده دون أحد ، فقاتلهم حتى قتل رضي اللّه عنه. فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية ، فنزلت هذه الآية : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية.

وذكر في الكشاف : نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد اللّه ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير وغيرهم رضي اللّه عنهم.

ثم ذكر تعالى علة ابتلاء المؤمنين وغيرهم وإيلامهم في الحرب ، فقال :

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أي إنما يختبر اللّه عباده بالخوف ولقاء الأعداء ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر كل واحد منهما بالفعل ، ويكافئ الصادقين في إيمانهم بصبرهم على ما عاهدوا اللّه عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه ، وصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا وعودهم ، ويعذب المنافقين الذين كذبوا ونقضوا العهد وأخلفوا أوامره ،

فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه.

والكل تحت مشيئة اللّه في الدنيا ، إن شاء بقوا على ما هم عليه حتى يلقوه ، فيعذبهم ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى الإقلاع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ، أي إن الهداية إلى الإيمان والتوبة بمراد اللّه ومشيئته.

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال :

ج ٢١ ، ص : ٢٧٧

(٢٨٧/٢١)

إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً حيث ستر ذنوبهم ، ورحمهم ورزقهم الإيمان ووفقهم إلى التوبة ، ولا يعاقبهم على ما مضى بعد التوبة. وهذا حث على التوبة والإيمان قبل فوات الأوان.

ونظير الآية كثير ، منها : قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ [محمد ٤٧/ ٣١] وقوله عز وجل : ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [آل عمران ٣/ ١٧٩].

رابعا- نهاية المعركة أو الإجلاء :

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ، وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً أي إن اللّه تعالى أجلى الأحزاب عن المدينة ، وردهم خائبين خاسرين مع غيظهم ، لم يشفوا صدرا ، ولم يحققوا أمرا ، ولم ينالوا أي خير من غنيمة أو أسر أو نصر حاسم ، بما أرسل عليهم من الريح الباردة والجنود الإلهية ، فتفرقت جموعهم ، وتشتت شملهم ، ولم يحققوا خيرا لأنفسهم ، لا في الدنيا من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة من الآثام في إعلان عداوتهم للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ومبارزته ، وهمهم بقتله ، واستئصال زمرته وجيشه ، ومن همّ بشيء ، وبدأ بتنفيذ همه بالفعل ، فهو في الحقيقة كالفاعل.

وكفى اللّه المؤمنين القتال ، أي لم يحوجهم إلى قتال ومبارزة حتى يجلوا عن بلادهم ، بل كفى اللّه وحده شرهم ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولهذا

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم- فيما أخرجه الشيخان- يقول : « لا إله إلا اللّه وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

و

(٢٨٨/٢١)

في الصحيحين أيضا عن عبد اللّه بن أبي أوفى رضي اللّه عنه قال : « دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على الأحزاب ، فقال : اللهم منزّل الكتاب ، سريع الحساب ،

ج ٢١ ، ص : ٢٧٨

اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

و

قال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم »

فلم تغز قريش بعد ذلك ، بل غزاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعد ذلك ، حتى فتح اللّه تعالى مكة.

وكان اللّه قويا عزيزا ، أي غير محتاج إلى قتالهم ، قادرا على استئصال الكفار وإذلالهم ، ردهم بحوله وقوته خائبين ، لم ينالوا خيرا ، وأعز اللّه الإسلام وأهله.

خامسا- حصار بني قريظة :

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ أي وأنزل اللّه يهود بني قريظة الذين هم من أهل الكتاب والذين عاونوا الأحزاب من حصونهم وقلاعهم.

وذلك لأنهم بمسعى حيي بن أخطب النضيري نقضوا عهدهم الذي كان بينهم وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذ لم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك قد جئتك بعزّ الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل واللّه أتيتني بذل الدهر ، ويحك يا حيي ، إنك مشؤوم ، فدعنا منك ، فلم يزل يفتل له في الذروة والغارب (أي يخادعه) حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون أسوتهم.

فلما أيد اللّه تعالى رسوله والمسلمين ، وكبت أعداءهم ، وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجعوا إلى المدينة ،

أرسل اللّه جبريل عليه السلام ، فأوحى إلى

ج ٢١ ، ص : ٢٧٩

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قائلا : « إن اللّه تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة » فنهض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من

المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الشيخان : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة »

فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق ، وقالوا : لم يرد منا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة ، فلم يعنّف واحدا من الفريقين.

وتبعهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد استخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم رضي اللّه عنه ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، ثم نازلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة

، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي اللّه عنه لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية.

فلما جاء سعد

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « قوموا إلى سيدكم » فقام إليه المسلمون إعظاما وإكراما واحتراما له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم ، فلما جلس قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن هؤلاء- وأشار إليهم- قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت » .

فقال رضي اللّه عنه : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « نعم » قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » قال : وعلى من هاهنا ؟ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو معرض بوجهه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « نعم » .

فقال رضي اللّه عنه : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم وأموالهم ، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لقد حكمت بحكم اللّه تعالى من فوق سبعة

أرقعة » أي سبع سموات. أو « لقد حكمت فيهم بحكم اللّه تعالى وحكم رسوله » .

ثم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالأخاديد ، فخدّت في الأرض ، وجيء بهم مكتّفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبع مائة إلى الثمان مائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء

، وأموالهم ، لذا قال تعالى :

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ، وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً أي وألقى في نفوسهم الخوف الشديد ،

لممالأتهم المشركين على حرب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإخافتهم المسلمين ، وقصدهم قتلهم ، فانعكس الحال عليهم ، وأسلموا أنفسهم للقتل ، وأولادهم ونساءهم للسبي ، فريقا تقتلون ، وهم الرجال المقاتلة ، وتأسرون فريقا ، وهم النساء والصبيان.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً أي جعل اللّه لكم أراضيهم المزروعة ومنازلهم المعمورة وأموالهم المدخرة ، وأرضا أخرى لم تطأها أقدامكم بعد وهي التي ستفتح في المستقبل ، بعد بني قريظة ، مثل خيبر ومكة وبلاد فارس والروم.

وكان اللّه صاحب القدرة المطلقة على كل شيء ، فهو كما ورّثكم أرض بني قريظة ، ونصركم عليهم ، قادر على أن يورثكم غير ذلك ، وينصركم على أقوام آخرين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت هذه الآيات إلى الأحكام والمبادئ التالية :

١- إن النصر الحاسم للمسلمين على المشركين في غزوة الخندق والأحزاب ، وعلى يهود بني قريظة ناقضي العهد نعمة عظمي تستوجب الشكر والحمد للّه تعالى لأنه نصر دبره اللّه عز وجل بإرسال الريح والملائكة ، وقد صدقت فيه

عزيمة المؤمنين على خوض المعركة ، والدفاع عن مدينتهم عاصمة الإسلام.

٢- إن السلطان يشاور أصحابه وخاصته في أمر القتال لأنه لما سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم باجتماع الأحزاب وخروجهم إلى المدينة ، شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق ، فرضي رأيه ، وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « سلمان منا آل البيت » .

وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو يومئذ حرّ ، فقال : يا رسول اللّه ، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين.

وفي هذا الخبر أيضا وجوب التحصن من العدوّ بما أمكن من الأسباب ، وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ ، فالمسلمون يد على من سواهم.

أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رأيته ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى عنّي الغبار جلد بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ويقول :

اللهمّ لو لا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

(٢٩٢/٢١)

٣- دلت أخبار السيرة السالفة الذكر ورواية النسائي عن البراء وغيره أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ضرب صخرة أثناء حفر الخندق ضربات ثلاثا ، أضاءت له الضربة الأولى مدائن كسرى وما حولها ، وأنارت له الثانية مدائن قيصر وما حولها ، وأبدت له الثالثة مدائن الحبشة وما حولها ، ورأى سلمان بعينه ذلك ، وتلك معجزة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بشّر بها بفتح هذه البلاد ، و قال عند ذلك فيمارواه مالك : « دعوا الحبشة ما ودعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم » .
ج ٢١ ، ص : ٢٨٢
٤- أعلن بنو قريظة بتواطئهم مع الأحزاب من قريش وغطفان نقضهم العهد مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ،
فقال لهم الرسول : « نقضتم العهد يا إخوة القرود ، أخزاكم اللّه ، وأنزل بكم نقمته »
وحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى أموالهم وذراريهم. وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة من الهجرة.
٥- كان تجمع الأحزاب على المدينة وحصارها مثار قلق واضطراب ، ومبعث بلاء وشدة خوف ، فانتابتهم الظنون ، وأظهر المنافقون كثيرا مما يسرّون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ، فإنا نخاف عليها ، وممن قال ذلك : أوس بن قيظي. ومنهم من قال : يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك : معتّب بن قشير أحد بني عمرو بن عوف.
فأقام المشركون في حصارهم المدينة بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ، لم يكن بينهم وبين المسلمين إلا الرمي بالنّبل والحصى ،

(٢٩٣/٢١)

فلما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه اشتد على المسلمين البلاء ، بعث إلى عيينة بن حصن الفزاري ، وإلى الحارث بن عمرو المرّي ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا

بمن معهما من غطفان ، ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم. وكان ذلك مراوضة ولم تكن عقدا. فلما وافقا استشار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول اللّه ، واللّه لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان ، لا نعبد اللّه ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شراء أو قرى ، فحين أكرمنا اللّه بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! واللّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم!! فسرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بذلك ، وقال : « أنتم وذاك » .

ج ٢١ ، ص : ٢٨٣

و قال لعيينة والحارث : « انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف » .

وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة ، فمحاها.

٦- اختراق الخندق : اخترق فوارس من قريش الخندق ، منهم عمرو بن ودّ العامري من بني عامر بن لؤي ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب الفهريّ ، حتى صاروا بين الخندق وبين سلع ، و

خرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثّغرة التي اقتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، فنادى عمرو : من يبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب وقال له : يا عمرو ، إنك عاهدت اللّه فيما بلغنا أنك لا تدعى إلى إحدى خلّتين إلا أخذت إحداهما ؟ قال : نعم. قال : فإني أدعوك إلى اللّه والإسلام. قال :

(٢٩٤/٢١)

لا حاجة لي بذلك. قال : فأدعوك إلى البراز. قال : يا ابن أخي ، واللّه ، ما أحبّ أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فقال له علي : أنا واللّه أحبّ أن أقتلك ، فحمي عمرو ونزل عن فرسه ، فعقره ، وصار نحو علي ، فتنازلا وتجاولا ، حتى رئي علي على صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابه أنه قد قتله علي ، اقتحموا بخيلهم الثّغرة منهزمين هاربين.

ورمي يومئذ سعد بن معاذ ، فقطع منه الأكحل « ١ » ، ومات شهيدا في غزوة بني قريظة ، وهو الذي قال فيه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « اهتز لموته عرش الرحمن »

يعني سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم روحه ، واهتزوا له.

٧- مشروعية الخدعة في الحرب ، لما فعل نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي الذي استطاع بدهائه وحيلته بذر بذور الفرقة بين العرب وبين اليهود ، ونجح في خدعته ، كما تقدم بيانه.

٨- الاجتهاد جائز ، سواء أصاب المجتهد أو أخطأ ، فقد أقرّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كلّا

(١) الأكحل : عرق في وسط الذراع.

ج ٢١ ، ص : ٢٨٤

من الفريقين : الذي صلى العصر في الطريق إلى بني قريظة ، والذي أخّر الصلاة حتى فات وقتها ، عملا

بقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة »

فتخوف ناس فوت الوقت ، فصلوا دون بني قريظة ، وقال آخرون : لا نصلّي العصر إلا حيث أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإن فاتنا الوقت ، فما عنف واحدا من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين.

٩-

قسم صلّى اللّه عليه وسلّم أموال بني قريظة ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهما

،

(٢٩٥/٢١)

قيل : وهي أول غنيمة قسّم فيها للفارس والراجل ، وأول غنيمة جعل فيها الخمس. وفي قول آخر : إن أول ذلك كان في بعث عبد اللّه بن جحش. ووفّق ابن عبد البر بين القولين : أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ الآية [الأنفال ٨/ ٤١]. وكان عبد اللّه بن جحش قد خمّس قبل ذلك في بعثه ، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله ، وكان ذلك من فضائله رحمة اللّه عليه.

١٠- أرسل اللّه على الأحزاب ريح الصّبا يوم الخندق ، حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم ، وأنزل الملائكة لتفريق الجموع ، ولم تقاتل يومئذ ،

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيما أخرجه أحمد والشيخان : « نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور » .

وكانت هذه الريح معجزة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكان المسلمون قريبا منها ، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا في عافية منها ، ولا خبر عندهم بها.

قال المفسرون : بعث اللّه تعالى الملائكة ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وأرسل اللّه عليهم الرّعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيّد كل خباء يقول : يا بني فلان هلمّ إلي ، فإذا اجتمعوا قال

لهم : النّجاء النّجاء ، لما بعث اللّه تعالى عليهم من الرّعب.

ج ٢١ ، ص : ٢٨٥

١١- لن يمنع حذر من قدر ، فمن حضر أجله ، مات أو قتل ، ولا ينفعه الفرار ، ويكون تمتعه في الدنيا بعد الفرار إلى انقضاء الأجل زمنا قليلا ، وكل ما هو آت فقريب.

(٢٩٦/٢١)

١٢- للمنافقين خصال اجتماعية وشخصية قبيحة ومذمومة ، فهم بخلاء على المسلمين فيما يحقق المصلحة العامة ، بخلاء بأنفسهم وأحوالهم وأموالهم ، جبناء يخافون من لقاء الشجعان ، سليطو اللسان يؤذون غيرهم بالكلام يتفاخرون بما هو كذب وزور ، والحقيقة أنهم كفرة ، لم يؤمنوا بقلوبهم ، وإن كان ظاهرهم الإسلام ، لوصف اللّه عز وجل لهم بالكفر في قوله : أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا وهم كغيرهم من الكفار حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فلا ثواب لهم إذا لم يقصدوا وجه اللّه تعالى بها ، وإحباط أعمالهم على اللّه هيّن يسير.

ولجبنهم يظنون الأحزاب لم ينصرفوا ، وكانوا قد انصرفوا ، وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال ، يتمنوا أن يكونوا مع أعراب البادية ، حذرا من القتل.

وانتظارا لإحاطة السوء والهلاك بالمسلمين ، يتساءلون ويتحدثون : أما هلك محمد وأصحابه! أما غلب أبو سفيان وأحزابه! ولو كانوا في ميدان المعركة ما قاتلوا إلا رياء وسمعة.

١٣- قوله تعالى : لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ الآية عتاب للمتخلفين عن القتال ، معناه : كان لكم قدوة في النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حيث بذل نفسه لنصرة دين اللّه في خروجه إلى الخندق ، والتأسي لمن كان يرجو ثواب اللّه في اليوم الآخر ، ويرجو لقاء اللّه بإيمانه ، ويصدّق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال ، ويذكر اللّه ذكرا كثيرا ، خوفا من عقابه ، ورجاء لثوابه.

وهل التأسي بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على سبيل الإيجاب أو الاستحباب! قولان :

أحدهما- على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

ج ٢١ ، ص : ٢٨٦

الثاني- على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

قال القرطبي : ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين ، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

(٢٩٧/٢١)

١٤- موقف المؤمنين نقيض موقف المنافقين ، فهم مصدقون واثقون بوعد اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم تزدهم المحنة والابتلاء والنظر إلى الأحزاب إلا إيمانا باللّه وتسليما للقضاء.

١٥- التجسس على الأعداء أمر جائز شرعا ،

فقد أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حذيفة بن اليمان بأن يتعرف أخبار الأحزاب وانصرافهم عن المدينة ، قائلا له : « انطلق حتى تدخل في القوم ، فتسمع كلامهم ، وتأتيني بخبرهم ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تردّه إلي ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني » .

والدعاء للّه تعالى مطلوب في أي وقت ولأي حاجة ، وبخاصة وقت الشدة ،

فقد انطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يده يقول : « يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همّي وغمّي وكربي ، فقد ترى حالي وحال أصحابي » .

فنزل جبريل وقال : « إن اللّه قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك » فخرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول :

« شكرا شكرا كما رحمتني ، ورحمت أصحابي » .

وأخبره جبريل أن اللّه تعالى مرسل عليهم ريحا فبشر أصحابه بذلك.

١٦- تتلاحق مواكب الشهداء وتتوالى على درب الجهاد في سبيل اللّه ، فمنهم من يستشهد في معركة ، ومنهم من ينتظر أجله في معركة أخرى ، وهذا أمارة الخير ، ودليل على استدامة الكفاح والإخلاص جيلا بعد جيل.

ج ٢١ ، ص : ٢٨٧

١٧- أمر اللّه بالجهاد ليجزي الصادقين في الآخرة بصدقهم ، ويعذب في الآخرة المنافقين ، وذلك بمشيئة اللّه ، فإن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت.

١٨- كانت الهزيمة الساحقة في غزوة الخندق لجيوش الأحزاب ، إذ ردّ اللّه أولئك الكفار إلى ديارهم ، فرجع أبو سفيان إلى تهامة ، ورجع عيينة بن بدر إلى نجد ، ونصر اللّه جيش الإيمان بغير قتال كبير ، بأن أرسل على الأحزاب ريحا وجنودا ، حتى رجعوا ، ورجعت بنو قريظة إلى حصونهم أو قلاعهم ، فكفى أمر قريظة بالرعب ، وكان اللّه قويا أمره ، عزيزا لا يغلب.

١٩- وهزم بنو قريظة هزيمة نكراء بعد أن عاونوا الأحزاب : قريشا وغطفان ، وأنزلوا من حصونهم ، وشاع الذعر والهلع في صفوفهم ، وكان مصيرهم قتل رجالهم ، وأسر نسائهم وأطفالهم ، وتوريث المسلمين أراضيهم وبساتينهم ومنازلهم وأموالهم المدخرة.

وبشر اللّه المؤمنين بأنهم سيرثون بلاد فارس والروم ، وكل أرض تفتح إلى يوم القيامة ، واللّه على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير ، وعلى ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير ، لا ترد قدرته ، ولا يجوز عليه العجز بحال.

تخيير زوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بين الدنيا والآخرة ومقدار ثوابهن وعقابهن [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠)

ج ٢١ ، ص : ٢٨٨

الإعراب :

فَتَعالَيْنَ أصله من العلو ، إلا أنه كثر استعماله في معنى « انزل » فيقال للمتعالي : تعال ، أي انزل.

البلاغة :

إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ بينهما ما يسمى بالمقابلة أي الطباق بين جملتين.

المفردات اللغوية :

لِأَزْواجِكَ هن تسع ، وطلبن منه من زينة الدنيا ما ليس عنده. الْحَياةَ الدُّنْيا السعة والتنعم فيها. وَزِينَتَها زخارفها. أُمَتِّعْكُنَّ أعطكن المتعة وهي متعة الطلاق وهي مال يعطى للمطلقة. وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أطلقكن من غير ضرار وبدعة ، والتسريح : الطلاق ، روي أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة ، فنزلت ، فبدأ بعائشة ، فخيرها ، فاختارت اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم اختارت الباقيات اختيارها ، فشكر لهن اللّه ذلك ، فأنزل لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ [الأحزاب ٣٣/ ٥٢].

وتعليق التسريح بإرادتهن الدنيا يدل على أن المخيّرة إذا اختارت زوجها لم تطلق ، خلافا لرواية عن علي ، ويؤيده

قول عائشة : « خيرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فاخترناه ، فلم يعدّ طلاقا »

فإذا اختارت نفسها فإنه طلقة رجعية عند الشافعية ، وبائنة عند الحنفية. وتقديم التمتيع على التسريح : من الكرم وحسن الخلق.

وَالدَّارَ الْآخِرَةَ الجنة. فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ بإرادة الآخرة. أَجْراً عَظِيماً الجنة ، يستحقر دونه

الدنيا ، ومن في قوله مِنْكُنَّ للتبيين لأنهن كلهن كن محسنات.
بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ كبيرة ظاهرة القبح كالنشوز. يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ أي مثلي عذاب غيرهن لأن الذنب منهن أقبح ، كما أن ثوابهن مرتان ، كما قال تعالى : نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ [الأحزاب ٣٣/ ٣١].
وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.
ج ٢١ ، ص : ٢٨٩
سبب النزول : نزول الآية (٢٨) :

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ :
روى أحمد ومسلم والنسائي عن جابر رضي اللّه عنه قال : « أقبل أبو بكر رضي اللّه عنه يستأذن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر ، فاستأذن ، فلم يؤذن له ، ثم أذن لهما ، فدخلا ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم جالس ، وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول اللّه ، لو رأيت ابنة زيد- امرأة عمر- سألتني النفقة آنفا ، فوجأت عنقها ، فضحك النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حتى بدا ناجذه ، وقال : هن حولي يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما ليس عنده ، وأنزل اللّه الخيار ، فبدأ بعائشة ، فقال : إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه ، حتى تستأمري أبويك ، قالت : ما هو ؟ فتلا عليها : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية.
قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : إن اللّه تعالى لم يبعثني معنّفا ، ولكن بعثني معلّما ميسرا ، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » .
المناسبة :
لما نصر اللّه نبيه ، وفرق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله ، وقلن :
« يا رسول اللّه ، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل ، والإماء والخول (الخدم) ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق » .
وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأمره

اللّه تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن.
ج ٢١ ، ص : ٢٩٠

(٣٠١/٢١)

و أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذ ذاك تسع : هن خمسة من قريش وهن عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية ، وأربعة من غير قريش : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة ، وصفيّة بنت حييّ بن أخطب الخيبرية. فلما خيرهن رسول اللّه اخترن كلهن اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم. هذا وجه تعلق الآيات بما قبلها. أما مناسبة هذه الآيات للسورة فهي أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين : التعظيم لأمر اللّه تعالى ، والشفقة على خلق اللّه تعالى ، وإلى هذا أشار صلّى اللّه عليه وسلّم
بقوله فيما رواه البزار عن أبي رافع : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .
فلما أرشد اللّه سبحانه نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم للّه بقوله :
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ [الأحزاب ٣٣/ ١] ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة ، وبدأ بالزوجات ، فإنهن أولى الناس بالشفقة ، ولهذا قدمهن بالنفقة.
التفسير والبيان :
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها ، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا يأمر اللّه تعالى رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بتخيير نسائه بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة ، والمعنى : يا أيها الرسول قل لأزواجك :
اخترن لأنفسكن إحدى حالين : إما المفارقة إن أحببتن وكان عظيم همكن التعمق في لذات الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها ونعيمها ، وحينئذ أعطيكن متعة الطلاق المستحقة وهي مال يهدى للزوجة المطلقة تطييبا لخاطرها ، وأطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ولا بدعة ، وإما الصبر على ما عندي من ضيق الحال ، وهو المذكور في الآية التالية.

(٣٠٢/٢١)

أما متعة الطلاق : فهي كسوة أو هدية أو مال بحسب حال الزوج يسارا وإعسارا ، كما قال تعالى : وَمَتِّعُوهُنَّ ، عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ،

مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ

[البقرة ٢/ ٢٣٦] وأما الطلاق الذي لا ضرر فيه ولا بدعة : فهو ما يكون في حال الطهر مع استقبال العدة أي الابتداء بها ، لا في الحيض لقوله تعالى : إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ [الطلاق ٦٥/ ١].

وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً أي وإن أردتن رضا اللّه ورسوله وثواب الآخرة وهو الجنة ، فإن اللّه أعدّ للمحسنة منكن ثوابا عظيما ، تستحقر زينة الدنيا دونه. وهذا دليل على أن من أراد اللّه ورسوله والدار الآخرة كان محسنا صالحا. وقوله : تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فيه معنى الإيمان.

ولما خيرهن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بين الدنيا والآخرة ، اخترن جميعا الآخرة ، فسرّ بذلك ، وشكرهن اللّه على حسن اختيارهن ، وكرّمهن ، فقال : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ [الأحزاب ٣٣/ ٥٢] وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً [الأحزاب ٣٣/ ٥٣].

وزوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اثنتا عشرة ، وهن أمهات المؤمنين ، ولم يتزوج إلا بكرا واحدة هي السيدة عائشة ، وكان زواجه بالأخريات تأليفا للقلوب ، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية ، وبناء الدولة ، ووحدة الكلمة ، وهن « ١ » :

١- خديجة بنت خويلد : أول زوجاته ، تزوجها بمكة ، وعاشت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد النبوة سبع سنين ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت ، وسنّه ٥٤ عاما ، وهي أول من آمن من النساء. وجميع أولاده منها غير إبراهيم.

٢- سودة بنت زمعة بنت عبد شمس العامرية ، دخل بها بمكة ، وتوفيت بالمدينة.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ١٦٤ وما بعدها.

٣- عائشة بنت أبي بكر الصديق ، الصديقة بنت الصديق ، العالمة الفقيهة راوية الحديث الكثير عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، بنى بها بالمدينة وهي بنت تسع ، وبقيت عنده تسع سنين ، ومات رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وهي بنت ثمان عشرة ، ولم يتزوج بكرا غيرها.

٤-
حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية ، تزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم طلّقها ، فقال له جبريل : « إن اللّه يأمرك أن تراجع حفصة ، فإنها صوّامة قوّامة » فراجعها.
٥- أم سلمة : تزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من ابنها سلمة على الصحيح ، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية.
٦- أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان ، تزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سنة سبع من الهجرة ودخل بها بعد الهجرة بسبع سنين وكان وكيله في زواجها عمرو بن أمية الضّمري ، وقد أصدقها النجاشي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أربع مائة دينار ، لما مات زوجها.
٧- زينب بنت جحش : تزوجها بأمر اللّه بعد طلاقها من زوجها أسامة بن زيد ، لإبطال التبني وآثاره. وكان اسمها برّة ، فسماها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم زينب.
٨- زينب بنت خزيمة بن الحارث : تزوجها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم ماتت بعد ثمانية أشهر ، كانت تسمى في الجاهلية أمّ المساكين لإطعامها إياهم.

(٣٠٤/٢١)

٩- صفية بنت حييّ بن أخطب الهارونية : تزوجها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد أن أعتقها ، وكانت من سبايا خيبر ، اشتراها الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من دحية الكلبي بسبعة أرؤس.
١٠- ريحانة بنت زيد : تزوجها الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم سنة ست ، وماتت إثر حجة

الوداع ، وكان زوجها قد قتل في الحرب ، فتزوجها إكراما له ولأولاده.
١١- جويرية بنت الحارث بنت أبي ضرار المصطلقيّة الخزاعية ، من سبايا بني المصطلق ، تزوجها في شعبان سنة ست ، وكان اسمها برّة ، فسماها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جويرية.
١٢- ميمونة بنت الحارث الهلالية آخر امرأة تزوجها.
هؤلاء المشهورات من أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهن اللاتي دخل بهن ، رضي اللّه عنهن.
وله نساء تزوجهن ولم يدخل بهن ، منهن الكلابية واسمها فاطمة أو عمرة وهي المستعيذة ، وأسماء بنت النعمان بن الجون ، وقتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس ، وعددهن عشر ، وكان له من السراري سرّيّتان : مارية القبطية وريحانة ، وأما من خطبهن فلم يتم نكاحه معهن ومن وهبت له نفسها فعددهن تسع ، كأم هانئ بنت أبي طالب.
وبعد أن خيرهن واخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة ، وعظهن وهددهن بمضاعفة العذاب على المعصية

فقال :

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً أي يا نساء النبي وأمهات المؤمنين من يرتكب منكن معصية كبيرة ظاهرة القبح كالنشوز وعقوق الزوج وسوء الخلق ، يكون عقابها مضاعفا ، لشرف منزلتكن ، وفضل درجتكن ، وتقدمكن على سائر النساء ، فأنتن أهل بيت النبوة ، وكان تضعيف العذاب لهن يسيرا هينا على اللّه الذي لا يحابي أحدا لأجل أحد.

(٣٠٥/٢١)

قال أبو حيان : ولا يتوهم أن الفاحشة : الزنى لعصمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من

ج ٢١ ، ص : ٢٩٤

ذلك ، ولأنه تعالى وصف الفاحشة بالتبيين ، والزنى مما يتستر به ، وينبغي حمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته. ولما كان مكانهن مهبط الوحي من الأوامر والنواهي ، لزمهن بسبب ذلك ، وكونهن تحت الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب.

فقه الحياة أو الأحكام :

١- الآيات حث واضح على منع إيذاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أو مضايقته ، ولو من أقرب الناس إليه ، وفيها أدب عال لبيت النبوة الطاهر ، وتسأم لمستوى الأنبياء ، وترفع عن حطام الدنيا ، وتربية لنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الزهد والعفة والخلق السامي ، وإعظام اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم.

قال العلماء : هذه الآية : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ .. متصلة بما تقدم من المنع من إيذاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الذي كان قد تأذى ببعض الزوجات.

وقال الشافعي رحمه اللّه تعالى : إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها.

أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يخيّر نساءه فاخترنه. وجملة ذلك أن اللّه سبحانه خيّر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بين أن يكون نبيا ملكا ، وعرض عليه مفاتح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبيا مسكينا ، فشاور جبريل ، فأشار عليه بالمسكنة فاختارها فلما اختارها- وهي أعلى المنزلتين- أمره اللّه عز وجل أن يخير زوجاته ، فربما كان فيهن من يكره المقام معه على الشدة تنزيها له.

(٣٠٦/٢١)

٢- القول الأصح في كيفية تخيير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أزواجه أنه خيّرهن بإذن اللّه تعالى في البقاء على الزوجية ، أو الطلاق ، فاخترن البقاء لقول عائشة رضي اللّه عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته ، فقالت : قد خيّرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فاخترناه ، فلم يعدّه طلاقا ، ولم يثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق.

ج ٢١ ، ص : ٢٩٥

و قيل : إنما خيّرهن بين الدنيا فيفارقهنّ ، وبين الآخرة فيمسكهن ، لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن ، ولم يخيرهن في الطلاق.

٣- اختلف العلماء في المخيّرة إذا اختارت زوجها ، فقال جمهور العلماء : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر لقول عائشة فيما أخرجه الصحيحان :

خيّرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فاخترناه ، فلم يعده علينا طلاقا.

و

روي عن علي أنها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية.

وهذا غريب.

و

في رواية أخرى عن علي ، وهو قول الحنفية : أنها إذا اختارت نفسها أنها واحدة بائنة

لأن قوله : اختاري ، كناية عن إيقاع الطلاق ، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة ، كقوله : أنت بائن.

وروي عن زيد بن ثابت : أنها إذا اختارت نفسها أنها ثلاث.

(٣٠٧/٢١)

و ذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء ، والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما ، وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملّكتك أي قد ملّكتك ما جعل اللّه لي من الطلاق ، واحدة أو اثنتين أو ثلاثا ، فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القول قوله مع يمينه. أما المخيّرة إذا اختارت نفسها ، وهي مدخول بها ، فهو الطلاق كله ، ولا عبرة بإنكار الزوج لأن معنى التخيير : التسريح ، والتسريح : البتات قال اللّه تعالى : الطَّلاقُ مَرَّتانِ : فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ [البقرة ٢/ ٢٢٩] وقال تعالى في آية التخيير : فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا والتسريح بإحسان : هو الطلقة الثالثة ، ومعنى التخيير التسريح. وعلى هذا يكون طلاق المخيرة ثلاثا عند الإمام مالك.

وأكثر الفقهاء في تحديد زمن الخيار على أن لها الخيار : ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغال

بما يدل على الإعراض ، فإن لم تختر ولم تقض شيئا حتى افترقا

ج ٢١ ، ص : ٢٩٦

من مجلسهما ، بطل ما كان من ذلك إليها ، ويرى آخرون أن ما ملكته يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها ، وهذا عند المالكية هو الصحيح

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم لعائشة فيما رواه البخاري والترمذي : « إني ذاكر لك أمرا ، فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك »

فهذا دليل على استمرار التخيير ، حيث جعل لعائشة التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر.

والظاهر أن من اختارت اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم كان يحرم على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم طلاقها ، أي لا يباشره أصلا ، عملا بعلو منصبه ، وسمو خلقه.

(٣٠٨/٢١)

٤- جعل اللّه ثواب طاعة أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعقاب معصيتهن أكثر مما لغيرهن ، بنص الآية هنا : يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ والآية التي بعدها : نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ فأخبر اللّه تعالى أن من جاء من نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بفاحشة- واللّه عاصم رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم من ذلك ، كما مرّ في حديث الإفك- يضاعف لها العذاب ضعفين لشرف منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقدمهن على سائر النساء أجمع. وبينت الشريعة في مواضع كثيرة أنه كلما تضاعفت الحرمات ، فهتكت تضاعفت العقوبات ، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد ، والثيب على البكر.

ولما كان أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في مهبط الوحي ، وفي منزل أوامر اللّه ونواهيه ، قوي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب.

وضعف الشيء مثله ، فمعنى الضعفين : معنى المثلين أو المرتين ، فلو فرض وقوع ما يوجب الحدّ منهن- وقد أعاذهن اللّه من ذلك- حدّت الواحدة حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حد الحرة على الأمة ، والعذاب بمعنى الحدّ ، قال اللّه تعالى : وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النور ٢٤/ ٢]. ويدل على هذا نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ.

انتهى الجزء الحادي والعشرون وللّه الحمد

(٣٠٩/٢١)

ج ٢٢ ، ص : ٥

[الجزء الثاني والعشرون]

[تتمة سورة أحزاب]

خصائص أهل بيت النبوة [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣١ الى ٣٤]

وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤)

الإعراب :

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ ... وَتَعْمَلْ من ذكّر يقنت ويعمل حمله على لفظ مَنْ.

ومن أنّث « تعمل » حمله على لفظ « من » لأن المراد بها المؤنث. ولا مانع في النحو من التذكير بعد التأنيث ، كما في قوله تعالى : وَقالُوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا ، وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا [الأنعام ٦/ ١٣٩].

إِنِ اتَّقَيْتُنَّ شرط ، وجوابه : إما قوله : فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ أو ما دل عليه قوله تعالى : لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ وتقديره : إن اتقيتن انفردتن بخصائص من جملة سائر النساء ، بدليل قوله تعالى : لَسْتُنَّ.

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ قَرْنَ أصله « اقررن » من قرّ يقرّ ، فنقلت فتحة الراء بعد حذفها إلى القاف ، فلما فتحت القاف استغني عن همزة الوصل ، وحذفت الراء لتكررها مع نظيرها ، وتكررها مع نفسها ، وقرئ « قرن » بكسر القاف ، إما من « وقر يقر » أي اسكن ، وإما من « قرّ يقرّ » والأصل فيه « اقررن » فنقلت الكسرة إلى القاف بعد حذف الراء.

ج ٢٢ ، ص : ٦

أَهْلَ الْبَيْتِ إما منصوب على الاختصاص والمدح ،

كقوله صلّى اللّه عليه وسلم : « سلمان منا أهل البيت »

أي أعني وأمدح أهل البيت ، وإما منصوب على النداء ، كأن قال : يا أهل البيت ، والأول أوجه.

البلاغة :

وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ تشبيه بليغ ، أي كتبرج أهل الجاهلية ، فحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ عطف عام على خاص بعد قوله : أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ فإن الطاعة تشمل جميع الأوامر والنواهي.

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً استعارة ، استعار الرجس للذنوب والمعاصي ، والطهر للتقوى لأن عرض العاصي يتدنس ، وعرض التقي نقي كالثوب الطاهر.

وتَطْهِيراً ترشيح للتنفير.

المفردات اللغوية :

يَقْنُتْ يخشع ويخضع ويدم على الطاعة ، والقنوت : الطاعة في سكون والعبادة في خشوع. نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ مثلي ثواب غيرها من النساء ، مرة على الطاعة ومرة على طلبها رضا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالقناعة وحسن المعاشرة. وَأَعْتَدْنا أعددنا وهيأنا. رِزْقاً كَرِيماً في الجنة زيادة على أجرها سالما من العيوب والآفات. لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل أي لا مثيل لكن في جماعة النساء في الفضل. وأصل كَأَحَدٍ وحد بمعنى الواحد ، ثم وضع في النفي العام ، وهو في النفي يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع الكثير. إِنِ اتَّقَيْتُنَّ اللّه ، فلم تخالفوا حكمه ، وأرضيتم رسوله. فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ لا تلنّ القول للرجال مثل قول المريبات. مَرَضٌ تطلع إلى الفسق والفجور والريبة. وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً حسنا من غير خضوع ، بعيدا عن الريبة غير مطمع أحدا.

قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ أصله : اقررن ، أي الزمن بيوتكن ، بفتح القاف من قررت ، وبكسرها من وقر يقر ، من القرار أي السكون ، يقال : قررت في المكان أقرّ به : أقمت فيه. أو من قرّ يقرّ. وَلا تَبَرَّجْنَ أي لا تتبرجن ، والتبرج : إبداء المرأة للرجل ما يجب عليها ستره من محاسنها. تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى ما كان قبل الإسلام من الجهالات كإظهار النساء محاسنهن للرجال. وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ في سائر الأوامر والنواهي. الرِّجْسَ الذنب أو الإثم أو النقص المدنّس للعرض. أَهْلَ الْبَيْتِ نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو منصوب على المدح أو النداء.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً أي ويطهركم من المعاصي.

ج ٢٢ ، ص : ٧

قال البيضاوي : وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما الحسن والحسين رضي اللّه عنهم ، والاحتجاج بذلك على عصمتهم ، وكون إجماعهم حجة : ضعيف لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، وحديث العباءة التي أدخل فيها النبي فاطمة وعلي وولديهما يقتضي أنهم أهل البيت ، لا أنه ليس غيرهم.

وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ أي عظن النساء بما يتلى ، وتذكرن نعم اللّه عليكن من جعلكن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة. وَالْحِكْمَةِ هي حديث المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم. إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً بأوليائه وأهل طاعته. خَبِيراً بجميع خلقه ، يعلم ويدبر ما يصلح في الدين.

المناسبة :

اقتضى عدل اللّه ورحمته أن تكون زيادة العقاب مقرونة بزيادة الثواب ، فبعد ذكر مضاعفة العذاب على نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عند ارتكاب الفاحشة ، ذكر تعالى خصائص لهن ، أولها- مضاعفة الثواب لهن على العمل الصالح ، وإعداد الرزق الكريم في الجنة وهو ما يأتي بنفسه ، على نقيض رزق الدنيا الذي لا يأتي بنفسه ، وإنما بواسطة الغير. وثانيها- امتيازهن على سائر النساء ، وثالثها- أمرهن بقوة الكلام وعدم إلانة القول للرجال ، ورابعها- الأمر بالقرار في البيوت والنهي عن التبرج ، وخامسها- مطالبتهن بمداومة الطاعة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما يأمر وينهى ، وسادسها- تحقيق صون العرض والسمعة عن الذنوب والمعاصي والتجمل بالتقوى ، وسابعها- الأمر بتعليم غيرهن القرآن والسنة النبوية ، وتذكر نعمة اللّه تعالى عليهن.

التفسير والبيان :

١- مضاعفة الثواب : وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعْمَلْ صالِحاً ، نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً أي ومن تطع منكن اللّه ورسوله ، وتخشع جوارحها ، وتستجب لأمر ربها ، وتعمل صالح الأعمال ،

ج ٢٢ ، ص : ٨

نضاعف لها الأجر والثواب مرتين ، لكونها من أهل بيت النبوة ومنزل الوحي ، وأعددنا لها زيادة على هذا رزقا كريما في الآخرة والجنة ، لا عيب ولا نقص فيه ولا منّة لأحد ويأتي بنفسه ، على عكس رزق الدنيا المشوب بالعيوب والنقائص والمنة ويتوقف على الغير الذي يمسكه ويرسله بواسطة إلى غيره ، ولأجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم وصفا حقيقيا كاملا إلا الرزاق ، وفي الآخرة يوصف بالكريم الرزق نفسه.

و يلاحظ أنه تعالى عبّر هنا عند إيتاء الأجر بقوله نُؤْتِها للتصريح بالمؤتي وهو اللّه ، وفي الآية السابقة عبر عند العذاب بقوله يُضاعَفْ فلم يصرح بالمعذّب ، إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، ولأن الكريم عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضرّ لا يذكر نفسه « ١ » .

٢- امتيازهن على سائر النساء : يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ أي يا زوجات النبي ليس لكنّ شبيه في جماعة النساء في الفضل والمنزلة والشرف والكرامة ، لكونكن أمهات جميع المؤمنين ، وزوجات خير المرسلين ، ونزول القرآن في بيتكن وفي حقكن. وهذا التعبير كقولهم : ليس فلان كآحاد الناس ، ومعناه أن فيه وصفا أخص ومزية وفضيلة لا توجد في غيره. ونساء النبي كذلك ، وشرفهن مستمد من سمو منزلة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم القائل في

الحديث المتفق عليه : « لست كأحدهم » .

٣- النهي عن لين الكلام : إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً أي إن أردتن التقوى أو كنتن متقيات « ٢ » مخالفة حكم اللّه تعالى ورضا رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلا تلنّ الكلام ولا ترققنّه عند محادثة الرجال ، وليكن كلامكن بجد وحزم وقوة ، حتى لا يطمع في الخيانة من في قلبه

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٢٠٨

(٢) الكشاف : ٢/ ٥٣٧.

ميل إلى الريبة والفسق والفجور ، وقلن القول المعروف المعتاد الذي ليس فيه ترخيم الصوت ، البعيد عن الريبة ، الذي يختلف عن مخاطبة الأزواج.

و هذا النهي لا يعني أن أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على حال من السوء تقتضي المنع والكف ، وإنما المراد حملهن على أسمى الفضائل وملازمتها ، فلما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح ، منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال على وجه فيه ريبة وإطماع ، وإساءة فهم من في قلبه ميل إلى الفجور والفسوق والنفاق.

ونساء الأمة تبع لنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه الآداب التي أمر اللّه تعالى بها.

والخلاصة : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله : إِنِ اتَّقَيْتُنَّ إما متعلق بما قبله ، على معنى : لستن كأحد إن اتقيتن ، فإن الأكرم عند اللّه هو

الأتقى ، وإما أن يكون متعلقا بما بعده ، على معنى : إن اتقيتن فلا تخضعن.
ويصح أن يكون اتَّقَيْتُنَّ بمعنى استقبلتن أحدا من الرجال ، واتقى بمعنى استقبل معروف في اللغة ، قال النابغة :
سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
أي استقبلتنا باليد. قال أبو حيان : ويكون هذا المعنى أبلغ في مدحهن إذ لم يعلّق فضيلتهن على التقوى ، ولا علق نهيهن عن الخضوع بها إذ هن متقيات للّه في أنفسهن ، والتعليق يقتضي ظاهرة أنهن لسن متحليات بالتقوى « ١ » . والمراد بقوله : مَرَضٌ ميل أو تشوف لفجور ، وهو الفسق وحديث السوء ، وهذا هو الأصوب فليس للنفاق مدخل في هذه الآية.

---

(١) البحر المحيط : ٧/ ٢٢٨

ج ٢٢ ، ص : ١٠

٤- الأمر بالقرار في البيوت والنهي عن التبرج : وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى أي الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن لغير حاجة ،
أخرج الترمذي والبزّار عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحة- رحمة- ربها ، وهي في قعر بيتها » .

و
روى أبو داود أيضا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها » .
أما خروج النساء للمساجد فجائز للعجائز دون الشابات
لما أخرجه أحمد ومسلم عن ابن عمر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا تمنعوا إماء اللّه مساجد اللّه ، وليخرجن تفلات » .
ولا تتبرجن تبرج الجاهلية القديمة قبل الإسلام : وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ، والتبرج : إبداء الزينة والمحاسن للرجال كالصدر والنحر ، بأن تلقي المرأة الخمار على رأسها ولا تشده ، فتظهر عنقها وقرطها وقلائدها.
٥- مداومة الطاعة للّه ورسوله : وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بعد أن أمرهن تعالى

بالقول المعروف (و هو القول الحسن الجميل المعروف في الخير) وأتبعه ببيان الفعل المناسب للمرأة وهو القرار في البيوت ، ثم نهاهن عن الشر ، أمرهن بالخير في إقامة الصلاة (و هو أداؤها على الوجه المطلوب شرعا من الخشوع وإتمام الأركان والشروط) وإعطاء الزكاة (و هي الفريضة الواجبة شرعا والإحسان إلى الناس) وإطاعة اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم في كل أمر ونهي.

وخص تعالى الصلاة والزكاة ، لأهميتهما وخطورتهما وآثارهما الكبرى ، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين ، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر ، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية.

ج ٢٢ ، ص : ١١

و قوله : وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ من باب عطف العام على الخاص إذ ليس التكليف منحصرا بالصلاة والزكاة ، وإنما هو شامل لكل ما أمر اللّه تعالى به ونهى عنه ، وأمر اللّه والرسول واحد.

٦- تحقيق السمعة العالية : إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً أي سبب تلك الأوامر والنواهي والمواعظ إنما هو لإذهاب المأثم عنكن ، وتطهيركن من دنس المعاصي والذنوب ، وتعمير قلوبكن بنور الإيمان.

وقد استعار الرجس (أو الرجز) للذنوب ، والطهر للتقوى لأن عرض المقترف للمعاصي يتدنس بها ويتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس القذرة الحسية.

وأما الطاعات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة تنفير عما نهى اللّه عنه ، وترغيب فيما أمر به. والرجس يطلق على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسة وعلى النقائص ، فأذهب اللّه جميع ذلك عن أهل البيت.

وأهل البيت : كل من لازم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الأزواج والأقارب. وتوجيه الأوامر لهم لأنهم قدوة الأمة ،

روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يمرّ بباب فاطمة رضي اللّه عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » .

٧- الأمر بتعليم القرآن والسنة والتذكير بالنعم : وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً أي تذكرن نعم اللّه عليكن من جعل بيوتكن مهابط الوحي ، ولا تنسين ما يتلى فيها من آيات اللّه في قرآنه ، وما ينزل على الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم من الحكمة البالغة والأحكام والعلوم والشرائع ، فاعملوا بها وعلموها ، إن اللّه لطيف خبير حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في

دينكم ، فأنزله

ج ٢٢ ، ص : ١٢

(٨/٢٢)

عليكم ، وجعل في بيوتكن الآيات والشرائع ، واختاركن زوجات لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم فهو اللطيف فعله يصل إلى كل شي ء.

وفي هذا حث على الطاعة والتزام التكاليف الشرعية ، وتنفير عن العصيان والمخالفة واقتراف المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآداب سبعة أمر اللّه تعالى بها نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ونساء الأمة في أغلبها تبع لهن في ذلك.

١- طاعة اللّه والرسول والعمل الصالح من أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لها ثواب مضاعف ، ورزق كريم وهو الجنة.

٢- لنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم منزلة وفضل وشرف يتميزون بها عن سائر جماعات النساء الأخرى ، لكن هذه الفضيلة مشروطة بشرط التقوى ، لما منحهن اللّه من صحبة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ونزول القرآن في حقهن ، وهذه درجة عالية. وكذلك تمتاز نساء الأمة عن غيرهن من جنس النساء بالتقوى والعمل الصالح ، ولكن درجتهن بالطبع أدنى من درجات أمهات المؤمنين أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

٣- على نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يكون قولهن جزلا ، وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يظهر اللين والميل من الفجار ، كما كانت عليه الحال في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه مثل كلام المريبات والمومسات.

وهذا النهي ليس خاصا بنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإنما هو شامل لنساء المؤمنين أيضا.

وعلى هذا ، فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام ، ويندب لها إذا خاطبت الأجانب ، وكذا المحرّمات عليها بالمصاهرة ، كزوج الأخت أن تكون نبرات صوتها قوية من غير رفع الصوت.

ج ٢٢ ، ص : ١٣

و في الجملة : القول المعروف : هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

(٩/٢٢)

٤- أمر اللّه تعالى نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بملازمة بيوتهن ، ونهاهن عن التبرج : وهو إظهار ما ستره أحسن. والخطاب وإن كان لنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى ، ولأن الشريعة تكرر الأمر فيها بلزوم النساء بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لضرورة. وإنما خوطبت نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بذلك تشريفا لهن ، وليكونن قدوة الأمة في الطهر والصون والعفاف.

وأما خروج السيدة عائشة رضي اللّه عنها في موقعة الجمل بين أنصار علي وبين طلحة والزبير ، فما كان لحرب ، ولكن اشتدت شكاوى الناس إليها من عظيم الفتنة ، ورجوا بركتها ، وطمعوا في الاستحياء منها إذا رأتها الجموع المتقاتلة ، فخرجت بقصد الإصلاح بين الناس ، وآثرت ذلك على خروجها للحج الذي كانت قد عزمت عليه ، مقتدية بقول اللّه تعالى : لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ [النساء ٤/ ١١٤] وقوله سبحانه :

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما [الحجرات ٤٩/ ٩]. والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى ، ولكن لم يرد اللّه تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، فدارت رحى الحرب واشتد الطعان ، وطعن جمل عائشة وعرقبه بعضهم ، فاحتملها محمد بن أبي بكر إلى البصرة ، ثم أركبها علي رضي اللّه عنه إلى المدينة في ثلاثين امرأة ، فوصلت إليها برّة تقية مجتهدة ، مصيبة مثابة في تأويلها ، مأجورة فيما فعلت إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب.

٥- الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم في كل أمر ونهي.

٦- إن كل تلك الأوامر والآداب بقصد تطهير أهل بيت النبوة من دنس

ج ٢٢ ، ص : ١٤

المعاصي ورجس المنكرات ، وجعلهن في طليعة النساء صونا وعفة ، وطاعة للّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم.

وأهل البيت النبوي : هم نساؤه وقرابته منهم العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم ، قال الرازي : والأولى أن يقال : هم وأولاده وأزواجه ، والحسن والحسين وعلي منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وملازمته للنبي « ١ » . وهذا واضح من ألفاظ الآية وسياقها ، فالخطاب في مطلع الآيات ونهايتها موجّه إلى زوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

لكن قال القرطبي : والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنما قال : وَيُطَهِّرَكُمْ لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وعليا وحسنا وحسينا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكّر والمؤنث غلّب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهنّ ،

يدل عليه سياق الكلام « ٢ » .

و

أما الحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره عن أم سلمة فهو كما قال الترمذي :

هذا حديث غريب. ونصه : قالت : نزلت هذه الآية في بيتي ، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فدخل معهم تحت كساء خيبري ، وقال : « هؤلاء أهل بيتي » وقرأ الآية ، وقال : « اللهم أذهب عنهم الرجس ، وطهّرهم تطهيرا » فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول اللّه ؟ قال :

« أنت على مكانك ، وأنت على خير » . وقال القشيري : وقالت أم سلمة :

أدخلت رأسي في الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول اللّه ؟ قال : « نعم » .

٧- التذكير بنعمة اللّه على نساء النبي إذ صيّرهن اللّه في بيوت يتلى فيها

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٢٠٩

(٢) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٢٧

القرآن والحكمة وهي كلمات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والأمر بالتفكير فيها ، والاتعاظ بمواعظ اللّه تعالى ، وإحسان الأفعال ، وحفظ أوامر اللّه تعالى ونواهيه ، وإخبار الناس وتبليغهم بها ليعملوا بها ويقتدوا.

وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدّين.

قال ابن العربي : في هذه الآية مسألة بديعة ، وهي أن اللّه تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علّمه من الدين ، فكان إذا قرأه على واحد أو ما اتفق ، سقط عنه الفرض ، وكان على من سمعه أن يبلّغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علّم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس ، فيقول لهم : نزل كذا ، ولا كان كذا ، ولا يلزم أن يبلّغ ذلك الرجال « ١ » .

المساواة بين الرجال والنساء في ثواب الآخرة [سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٥]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ

فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٢٧

ج ٢٢ ، ص : ١٦

الإعراب :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ .. الآية : كله منصوب بالعطف على اسم إِنَّ ، وخبرها : أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً. وقوله : وَالذَّاكِراتِ حذف منه المفعول ، وكذلك :

وَ الْحافِظاتِ حذف مفعوله ، وتقديره : والذاكرات اللّه ، والحافظات فروجهن ، فحذف المفعول لدلالة ما تقدم عليه. وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين ، وأما عطف الصنفين على الصنفين فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ، لتغاير الوصفين ، وكأن معناه أن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات لهم مغفرة.

البلاغة :

وَالذَّاكِراتِ وَالْحافِظاتِ فيهما إيجاز بالحذف ، حذف المفعول لدلالة السابق عليه ، أي والذاكرات اللّه ، والحافظات فروجهن.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ من باب التغليب لأنه إذا اجتمع الذكور والإناث ، غلّب الذكور ، ثم أدرجهم في الضمير.

المفردات اللغوية :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ الداخلين في السلم المنقادين لحكم اللّه الآتين بأركان الإسلام ، والإسلام : الانقياد والخضوع لأمر اللّه. وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ المصدقين بأركان الإيمان ، والإيمان : التصديق بما جاء عن اللّه من أمر ونهي. وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ الخاضعين للّه المداومين على الطاعة ، والقنوت : الطاعة في سكون. وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ في القول والعمل.

وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ على الطاعات وعن المعاصي ، فالصبر : تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصي. وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ المتواضعين للّه بقلوبهم وأعضائهم ، والخشوع : السكون والطمأنينة. وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ بما وجب في مالهم. وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ الصوم المفروض في رمضان وغيره من النذور وكفارات الأيمان والقتل الخطأ.

وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ عن الحرام. وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ بقلوبهم وألسنتهم. أَعَدَّ اللَّهُ

لَهُمْ مَغْفِرَةً هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وهي ما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفّرات. وَأَجْراً عَظِيماً على طاعتهم : وهو نعيم الآخرة.

(١٣/٢٢)

سبب النزول :

أخرج الترمذي وحسّنه عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت :

ج ٢٢ ، ص : ١٧

ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ، فنزلت : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ الآية.

و

أخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال : قالت النساء :

يا رسول اللّه ، ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ، فنزلت : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ الآية.

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال : لما ذكر أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، قالت النساء :

لو كان فينا خير لذكرنا ، فأنزل اللّه : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ الآية.

و

أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن جرير عن عبد الرحمن بن شيبة قال : سمعت أم سلمة رضي اللّه عنها زوج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تقول : قلت للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت : وأنا أسرّح شعري ، فلففت شعري ، ثم خرجت إلى حجرتي- حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس ، إن اللّه تعالى يقول : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ إلى آخر الآية.

المناسبة :

بعد أمر نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ونهيهن عن الأمور السابقة ، وبيان ما يكون لهن من ثواب ، أبان اللّه تعالى ما أعدّ للمسلمين والمسلمات من المغفرة والثواب العظيم في الآخرة.

التفسير والبيان :

هذه الآية وعد للرجال والنساء على الطاعة ، والاتصاف بهذه الخصال ، ذكر اللّه تعالى فيها عشر مراتب إشارة إلى ما يجب أن يكونوا عليه ، دون اتكال نساء النبي على صحبته وملازمته وقربهن منه :

ج ٢٢ ، ص : ١٨

(١٤/٢٢)

١- الإسلام والانقياد لأمر اللّه واتباع أحكام الدين قولا وعملا.
٢- الإيمان والتصديق التام بما جاء عن اللّه من شرائع وأحكام وآداب. وهذا دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وأن الأول أخص من الثاني ، فالإيمان : هو الاعتقاد والتصديق الكامل مع العمل الصالح ، والإسلام قول وعمل بالفعل قال تعالى : قالَتِ الْأَعْرابُ : آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات ٤٩/ ١٤]. و
في الصحيحين : « لا يزني الزاني حين يزني ، وهو مؤمن »
فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم منه كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.
٣- القنوت : وهو دوام العمل الصالح ، والطاعة في سكون ، كما قال تعالى : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ [الزّمر ٣٩/ ٩] وقال سبحانه : وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ [الروم ٣٠/ ٢٦]. وقال عز وجل : يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ، وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران ٣/ ٤٣].
ويلاحظ التدرج بين هذه المراتب ، فالإسلام : إسلام الظاهر من النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ثم يأتي بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الإيمان الذي هو الإذعان والتصديق الباطني في القلب ، من الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، ثم ينشأ عن مجموعهما القنوت الذي هو السكون والخشوع في الطاعة وأداء العبادة.
٤- الصدق في القول والعمل ، وهو خصلة محمودة ، وعلامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق ، فمن صدق نجا ، و

في الحديث الصحيح عند أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي عن ابن مسعود : « عليكم بالصدق ، فإن

الصدق يهدي إلى البرّ ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند اللّه صدّيقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب ، حتى يكتب عند اللّه كذّابا » .
لذا كان بعض الصحابة رضي اللّه عنهم لم تجرّب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

وهذه المرتبة تلي القنوت ، فإن من آمن وعمل صالحا كمل ، فيكمّل غيره ، ويأمر بالمعروف ، وينصح أخاه بصدق.

٥- الصبر على المصائب ، وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك المعاصي ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة ، وتلقي ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أي أصعبه وأوجبه في أول وهلة من الحادث. وهو سجية الراسخين الأثبات. ويأتي بعد المراتب السابقة لأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى ، فيصبر عليه.

٦- الخشوع : وهو السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار ، والتواضع للّه تعالى قلبا وسلوكا ، خوفا من عقاب اللّه تعالى ، ومراقبته ، كما

في الحديث الصحيح عند مسلم عن عمر : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك »

.

وهذه المرتبة تأتي بمثابة المراقبة على أعمال الحسنات ، فإذا عملها الإنسان قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته ، فأمر تعالى بالتواضع حتى لا تجمح الأهواء والشهوات بالنفس ، فتوقعها فيما يرديها ، وقد تعصف بثمرات جميع الأعمال الصادرة عنها.

٧- التصدق بالمال : وهو الإحسان إلى المحتاجين الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، فيعطون حال الفرض والنفل طاعة للّه وإحسانا إلى خلقه ، و

قد

ج ٢٢ ، ص : ٢٠

ثبت في الصحيحين : « سبعة يظلهم اللّه في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله- فذكر منهم- : ورجل تصدّق بصدقة ، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »

و

في حديث آخر : « و الصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار » .

وهذه مرتبة تعد ترجمانا عمليا للخصال السابقة لأن بذل المال شاق على النفس ، لمحبتها إياه ، وهي دليل على محبة الإنسان لأخيه ، فيساعده لينقذه من آفات الفقر والحاجة ، كما أن الصدقة تزكية للمال وتطهير له.

٨- الصوم فرضا ونفلا : وفيه تسأم روحي عن التعلق بالماديات ، والإقبال على عبادة اللّه ، ومن أكبر المعونة على كسر حدّة الشهوة ، كما

ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عن ابن مسعود عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء »

وهو أيضا تزكية للبدن ، كما

في الحديث الذي رواه ابن ماجه عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : « و الصوم : زكاة البدن »

أي يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا ، كما قال سعيد بن جبير : « من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل في قوله تعالى : وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ.

٩- العفّة وحفظ الفروج عن المحارم والمآثم ، إلا عن المباح ، كما قال تعالى :

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ [المؤمنون ٢٣/ ٥- ٧]. ومن اخترق حرمة الفروج وزنى ، هان عليه اختراق حرمات الدين كلها ، ومن صان فرجه وعفّ نفسه ، كان من الطاهرين الأصفياء الذين استحقوا رضوان اللّه تعالى.

و يلاحظ أن بين المرتبتين الأخيرتين تجانسا ، فالصّوام إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة الباطنية من عبادة اللّه ، والأعفّاء حفظة الفروج إشارة إلى الذين لا تمنعهم شهوة الفرج عن العبادة.

ج ٢٢ ، ص : ٢١

١٠- الذّكر الكثير للّه تعالى : وهو استحضار عظمة اللّه تعالى في القلب ، وتنزيهه باللسان عن كل نقص ، ووصفه بكل كمال في جميع الأحوال ، بنية صادقة للّه. ويلاحظ أن اللّه تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر « الذّكر » قرنه بالكثرة ، ليرشدنا إلى أنه لا يصير الإنسان ذاكرا حتى يداوم على الذكر قائما وقاعدا ومضطجعا ، وهذا مروي عن مجاهد. وقد يصبح ذاكرا بصلاة التهجد ليلا ، كما أخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ، كانا تلك الليلة من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات » .

ويكون الذكر أيضا بالصلاة وفي الأكل والشرب والمشي والبيع والشراء والركوب والهبوط ، وغير ذلك من الأحوال في غير أماكن القاذورات ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ [آل عمران ٣/ ١٩١].

وقال سبحانه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الأحزاب ٣٣/ ٤١-

٤٢].

وقد ختمت هذه الآداب بالذكر لأن صحة جميع الأعمال الدينية من إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وصدقة وصوم بذكر اللّه تعالى وهي النية.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون ؟ قال : الذاكرون اللّه كثيرا والذاكرات » .

و

أخرج أحمد أيضا عن معاذ الجهني عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن رجلا سأله ، فقال : أيّ المجاهدين أعظم أجرا يا رسول اللّه ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم : أكثرهم للّه تعالى ذكرا ، قال : فأيّ الصائمين أكثر أجرا ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم : أكثرهم للّه عز وجل ذكرا ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم :

ج ٢٢ ، ص : ٢٢

أكثرهم للّه ذكرا » فقال أبو بكر لعمر رضي اللّه عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « أجل » .

ثم ذكر اللّه تعالى جزاء هؤلاء جميعا فقال :

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً أي إن اللّه تعالى هيّأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية كما وضح في تفسيرها عشرة آداب أمر اللّه تعالى بها ، وهي تجمع أصول الإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك والعمل الاجتماعي البناء في إطار من النية الصادقة والإخلاص للّه عز وجل وهو المراد بذكر اللّه كثيرا.

وقد بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعم الإيمان وعمل الجوارح ، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه دعامة الإسلام ، وأتبعه بالقانت :

العابد المطيع ، ثم الصادق : الذي يفي بما عوهد عليه ، والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات وقت الرخاء والشدة (أو المنشط والمكره) والخاشع : الخائف للّه ، والمتصدق بالفرض والنفل ، والصائم

فرضا ونفلا ، وحافظ الفرج عما لا يحلّ من الزنى وغيره ، وذاكر اللّه كثيرا في أدبار الصلوات وغدوّا وعشيا ، وفي المضاجع وعند الانتباه من النوم ، وفي الذكر فوائد كثيرة محورها ربط المؤمن باللّه تعالى في جميع الأحوال. قال مجاهد : لا يكون ذاكرا للّه تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا. وقال أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه : من أيقظ أهله بالليل ، وصلّيا أربع ركعات ، كتبا من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات.

ج ٢٢ ، ص : ٢٣

قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي اللّه عنهما [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

الإعراب :

أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. تذكير الفعل على أن الخيرة بمعنى التخيير ، فهي مصدر بمعنى الاختيار ، ومن قرأ بالتاء لأن اللفظ مؤنث.

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ وَاللَّهُ : مبتدأ ، وأَحَقُّ : خبر المبتدأ ، وأَنْ تَخْشاهُ : إما منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، وإما مرفوع على أنه مبتدأ ، وأَحَقُّ خبره ، والجملة من المبتدأ أو الخبر في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ الأول وهو اللّه تعالى ، أو مرفوع على أنه بدل من اللّه تعالى.

ج ٢٢ ، ص : ٢٤

سُنَّةَ اللَّهِ منصوب مصدر لفعل دل عليه ما قبله وهو فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أي سنّ له سنة ، أو منصوب بنزع الخافض ، أي كسنة اللّه.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ صفة للذين خلوا أو مدح لهم منصوب أو مرفوع.

وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ رَسُولَ خبر كانَ مقدرة ، أي ولكن كان محمد رسول اللّه.

ومن قرأه بالرفع جعله خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو رسول اللّه.

البلاغة :

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ التنكير لإفادة العموم لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي ليس لمؤمن ولا لمؤمنة أن يريد غير ما أراده اللّه ورسوله.

تُخْفِي ومُبْدِيهِ بينهما طباق.

قَدَراً مَقْدُوراً بينهما جناس اشتقاق.

وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ فيهما طباق السلب.

المفردات اللغوية :

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ أي ما يصح له أو ما ينبغي له إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أي قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذكر اللّه لتعظيم أمره ، والإشعار بأن قضاءه قضاء اللّه. والسبب أنه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته : أميمة بنت عبد المطلب ، خطبها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها عبد اللّه الْخِيَرَةُ الاختيار ، فليس لهم أن يختاروا من أمرهم شيئا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعا لاختيار اللّه ورسوله ضَلالًا مُبِيناً أي ظاهرا بيّن الانحراف عن الصواب.

وَ إِذْ تَقُولُ أي اذكر حين تقول أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالإسلام وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بالعتق والتحرير ، وهو زيد بن حارثة ، كان من سبي الجاهلية اشتراه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قبل البعثة ، والأصح أن السيدة خديجة وهبته له ، ثم أعتقه وتبناه ، وقد تقدمت قصته أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ زينب وَاتَّقِ اللَّهَ في أمر طلاقها ، ولا تطلقها ضرارا وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ أي تخفي في نفسك ما اللّه مظهره وهو الأمر من اللّه بزواجها بعد طلاقها من زوجها « ١ » وَتَخْشَى النَّاسَ أي

---

(١) الإخفاء هو لزواجها المأمور به من اللّه لإبطال عادة التبني وآثاره في الجاهلية ، وليس المراد كما جاء في تفسير الجلالين وغيره إخفاء حبها حين وقع بصره عليها بعد حين من زواجها ، فهذا الكلام باطل لا أصل له ، ويتنافى مع منصب النبوة ، فهي ابنة عمته يعرفها من قديم ، وكان بإمكانه أن يتزوجها

قبل تزويجه إياها من زيد.

ج ٢٢ ، ص : ٢٥

تستحييهم وتخاف تعييرهم إياك وقولهم : تزوج زوجة ابنه الذي تبناه وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ في كل شيء ، والواو للحال ، فتزوجها ولا تأبه لقول الناس ، قال البيضاوي : وليست المعاتبة على الإخفاء وحده ، فإنه وحده حسن ، بل على الإخفاء مخافة قالة الناس وإظهار ما ينافي إضماره ، فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه.

(٢٣/٢٢)

فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً حاجة ، أي لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها زَوَّجْناكَها جعلناها لك زوجة وأمرناك بزواجها ، فدخل عليها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بغير إذن بشر ، بعد إذن اللّه تعالى ، وأشبع المسلمين خبزا ولحما ، فكانت بلا واسطة عقد بشري ، بدليل أنها كانت تقول لسائر نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إن اللّه تولى إنكاحي ، وأنتن زوّجكن أولياؤكن. حَرَجٌ مشقة وضيق دائم أَدْعِيائِهِمْ جمع دعي وهو الابن المتبنى وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ أي مقضيه مَفْعُولًا نافذا حاصلا لا محالة ، كما كان تزويج زينب. وجملة لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ .. علة للتزويج ، وهو دليل على أن حكم النبي وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل.

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أي قسم له وقدر وأجل ، مأخوذ من قولهم : فرض له في الديوان كذا ، وفرض للعسكر أو الجند كذا ، أي قدر لهم أرزاقهم فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ مضوا من الأنبياء ألا حرج عليهم في ذلك ، وفيما أباح لهم وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً فعله قضاء مقضيا وحكما مبتوتا كائنا لا بد منه وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ أي لا يخشون مقالة الناس فيما أحل اللّه لهم ، وهو تعريض بعد تصريح وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً حافظا لأعمال خلقه ومحاسبتهم ، فينبغي ألا يخشى إلا منه.

(٢٤/٢٢)

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ على الحقيقة ، فيثبت ما يترتب على البنوة من حرمة المصاهرة وغيرها ، فليس أبا زيد ، أي والده ، فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ أي ولكن كان رسول اللّه ، وكل رسول أبو أمته ، لا مطلقا ، بل من حيث إنه رؤف بهم ، ناصح لهم ، واجب التوقير والطاعة عليهم ، وزَيْدٌ منهم كبقية المؤمنين وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ بكسر التاء ، فاعل الختم ، أي فلا يكون له ابن رجل بعده يكون نبيا ، وبفتح التاء بمعنى الطابع كآلة الختم ، أي وآخرهم الذي ختمهم ، أو به

ختموا وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً يعلم من يليق بأن يختم به النبوة ، فلا نبي بعده ، وكيف ينبغي شأنه.
وكون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم لا ينافي الآية ، فإن هؤلاء قد أخرجوا من حكم النفي بقوله : مِنْ رِجالِكُمْ لأن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ولأنه قد أضاف الرجال إليهم ، وهؤلاء رجاله ، لا رجالهم.
وأما كون عيسى ينزل في آخر الزمان ، فلا يتناقض مع قوله تعالى : وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ لأن

المعنى : لا يكون هناك بعد محمد صلّى اللّه عليه وسلّم نبوة مبتدأة جديدة ، فلا ينبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبّئ قبله ، وحين ينزل يحكم بشريعة محمد ، ويصلي إلى قبلته ، كأنه بعض أمته.
سبب النزول :
نزول الآية (٣٦) :
وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ الآيات ،
أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال : خطب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم زينب ، يريدها لزيد ، فظنت أنه يريدها لنفسه ، فلما علمت أنه يريدها لزيد ، أبت ، فأنزل اللّه : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ الآية ، فرضيت وسلّمت.
و

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل اللّه : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ الآية كلها.
وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، فوهبت نفسها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فزوجها زيد بن حارثة ، فسخطت هي وأخوها ، قالا : إنما أردنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فزوجنا عبده. وهذا قول أضعف مما سبق ، فيكون الراجح ما
ذكره قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خطب زينب بنت جحش ، وكانت بنت عمته ، فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد ، كرهت وأبت وامتنعت ، فنزلت الآية.
نزول الآية (٣٧) :
وَإِذْ تَقُولُ :

أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. وأخرج الحاكم عن أنس قال : جاء زيد بن

ج ٢٢ ، ص : ٢٧

حارثة يشكو إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من زينب بنت جحش ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

أمسك عليك أهلك ، فنزلت : وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.

و

أخرج مسلم وأحمد والنسائي قال : لما انقضت عدة زينب ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لزيد : اذهب ، فاذكرها علي ، فانطلق ، فأخبرها ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر « ١ » ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فدخل عليها بغير إذن. قال : ولقد رأيتنا حين دخلنا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس ، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم واتبعته ، فجعل يتبع حجر نسائه ، ثم أخبرته أن القوم قد خرجوا ، فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب. قال : ووعظ القوم بما وعظوا به : لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ الآية.

نزول الآية (٤٠) :

ما كانَ مُحَمَّدٌ .. :

أخرج الترمذي عن عائشة قالت : لما تزوج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم زينب قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل اللّه : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ الآية.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بتخيير زوجاته بين البقاء معه ، والتسريح الجميل ، حتى لا يظن أن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يريد ضرر الغير ، ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان في كل شيء ، كما في شأن الزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار فيها لأحد ، وهي ما حكم اللّه فيه ، فما أمر به فهو المتّبع ، وما أراد النبي

---

(١) آمره في أمره ، ووامره واستأمره : شاوره.

ج ٢٢ ، ص : ٢٨

فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا لأن اللّه هو المقصد ، والنبي هو الهادي الموصل.

(٢٧/٢٢)

ثم ذكر اللّه تعالى قصة زواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بزينب ، تنفيذا لأمر اللّه ، وتقريرا لشرع محكم دائم مشتمل على فائدة ، خال من المفاسد ، وأن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بدعا بين الرسل فيما أباح اللّه له من الزوجات ، وأنه من أولئك الرسل الكرام الذين يبلّغون رسالات ربهم ، ولا يخشون أحدا غير اللّه ، وهو بهذا الزواج من زينب قد أبطل بالفعل بعد القول ما كان مقررا في الجاهلية من حرمة الزواج بحليلة الابن بالتبني ، كما قال تعالى في هذه الآيات : لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ثم أكد ذلك بقوله : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ .. الآية.

التفسير والبيان :

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ أي ليس لأي مؤمن أو مؤمنة إذا حكم اللّه ورسوله بأمر أن يختاروا أمرا آخر ، وإنما عليهم الامتثال لأمر اللّه ورسوله ، وتجنب معصيته. ومبلّغ الأمر هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وذكر اللّه لتعظيم أمر رسوله ، فصار حكم اللّه ورسوله واحدا ، وقضاؤهما واحدا ، فإذا قضى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بأمر لم يكن لبشر اختيار غيره. وهذه الآية داخلة في ضمن قوله تعالى : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [الأحزاب ٣٣/ ٦].

ثم حذر اللّه تعالى من عصيان الأمر فقال :

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً أي ومن يخالف أمر اللّه أو أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم أو يعصي ما نهيا عنه ، فقد انحرف عن طريق الهدى والرشاد ، ووقع في متاهات الضلال المبين البعيد عن منهج الحق والخير ، المؤدي إلى ضياع

ج ٢٢ ، ص : ٢٩

(٢٨/٢٢)

المصالح والانغماس في المفاسد ، كما قال تعالى : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [النور ٢٤/ ٦٣].

وإزاء هذا الحكم الإلهي القاطع والتحذير من العصيان ، فإن زينب بنت جحش التي نزلت الآية بسببها ، امتثلت أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بقبول زواجها من زيد بن حارثة مولى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعبده المعتق ، وهي من علية قريش وذؤابة القوم ، وبنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقالت : « إذن لا أعصي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قد أنكحته نفسي » بعد أن استنكفت من زيد ، وقالت : أنا خير منه حسبا » لأنها كانت امرأة فيها حدّة.

وكان في زواجها بزيد حكمة بالغة هي إعلان المساواة بين الناس ، والقضاء على فوارق النسب والحسب ، ما دامت مظلة الإسلام واحدة يتساوى فيها الجميع ، وأن التفاضل فيه إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

ولكن بالرغم من الموافقة الظاهرية على هذا الزواج ، ظلت الكوامن النفسية والآلام قائمة ، وبقيت زينب كارهة لزيد ، متعالية عليه ، فاشتكى منها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مرارا ، فكان صلّى اللّه عليه وسلّم ينصحه قائلا : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ إلى أن نفذ حكم اللّه ، وحدث الطلاق

، وهو ما قررته الآيات التالية :

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، وَاتَّقِ اللَّهَ أي واذكر يا محمد حين كنت تقول لزيد الذي أنعم اللّه عليه بالإسلام وأنعمت عليه بالإعتاق والحرية والتربية والتقريب منك : أبق على زواجك بزينب ، واصبر على طبعها وخلقها ، واتق اللّه في شأنها وفي طلاقها ، فلا تطلقها لتعاليها وشعورها بالرفعة والشرف ، فإن الطلاق مضرة. وهذا نهي تنزيه وتعليم وتربية ، لا نهي تحريم وحظر لأن الأولى على كل حال ألا يطلقها ، لأن الطلاق شائن لها.

ج ٢٢ ، ص : ٣٠

وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ أي وتخفي أيها الرسول في نفسك ما اللّه مظهره من الحكم ، وهو علمك بأن زيدا سيطلقها وستنكحها لأن اللّه قد أعلمه بذلك ، وتخاف من تعيير الناس ونقدهم واعتراضهم النابع من منطق الجاهلية ، واللّه بعد أن أنزل عليك وحيه وشرعه المصحح لأعراف الجاهلية وتقاليدها أو المبطل لها ، أجدر وحده أن تخاف منه ، وتلزم أمره ، وتمضي حكمه دون مبالاة بشرائع غيره. فقوله : وَاتَّقِ اللَّهَ أي في طلاقها ، فلا تطلّقها ، وأراد بذلك نهي تنزيه ، لا نهي تحريم لأن الأولى ألا يطلق.

عن عائشة رضي اللّه عنها : لو كتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم شيئا مما أوحي إليه ، لكتم هذه

الآية.

والمراد من هذا التوجيه للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : أن يصمت حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ، حتى لا يتناقض سرّه مع علانيته ، وليتساوى ظاهر الأنبياء وباطنهم ، ولتبدو ظاهرة التصلب في الأمور الجادة التي نزل فيها وحي إلهي.

ثم أعلن اللّه تعالى حكم زواج زينب المطلقة بعد انتهاء عدتها من نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال :

(٣٠/٢٢)

فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً ، زَوَّجْناكَها ، لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا أي لما طلقها زيد ، وانتهت حاجته منها ، وملّها ، وانقضت عدتها ، جعلناها لك زوجة ، ليرتفع الحرج والضيق من بين المؤمنين إذا أرادوا الزواج بمطلّقات أدعيائهم وهم الذين تبنوهم في الجاهلية ، ثم أبطل الإسلام حكم التبني وألغى جميع آثاره ، وصفّى كل نتائجه ، وكان قضاء اللّه وقدره نافذا وكائنا لا محالة ، وحكمه سائدا وشرعه دائما في كل زمان ، ومن أحكام اللّه في سابق علمه أن زينب ستصير زوجة

ج ٢٢ ، ص : ٣١

للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم. والوطر : كل حاجة للمرء له فيها همّة ، والجمع : الأوطار ، قال ابن عباس : أي بلغ ما أراد من حاجته ، يعني الجماع. وفي التعبير إضمار أي لما قضى وطره منها ، وطلّقها زوجناكها ، وقراءة أهل البيت : زوجتكها.

وفي هذا إشارة إلى أن التزويج لزينب من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يكن لقضاء شهوة ، بل لبيان الشريعة بفعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإن الفعل أوكد ، والشرع يستفاد على نحو أقطع من فعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد أريد من هذا الزواج نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انتهاء رابطة الزوجية بينهم وبينهن.

روى البخاري والترمذي رحمهما اللّه عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال :

« إن زينب بنت جحش رضي اللّه عنها كانت تفخر على أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فتقول : زوّجكن أهاليكنّ ، وزوجني اللّه تعالى من فوق سبع سموات » .

(٣١/٢٢)

و قال محمد بن عبد اللّه بن جحش : تفاخرت زينب وعائشة رضي اللّه عنهما فقالت زينب رضي اللّه عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي اللّه عنها : أنا التي نزل عذري من السماء ، فاعترفت لها زينب رضي اللّه عنها.

وذكر ابن جرير عن الشعبي رضي اللّه عنها عن الشعبي قال : كانت زينب رضي اللّه عنها تقول للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إني لأدلّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدلّ بهن : إن جدّي وجدّك واحد ، وإن اللّه عز وجل أنكحك إياي من السماء ، وإن السفير في ذلك جبريل عليه السلام » .

ثم أخبر اللّه تعالى عن سنته وحكمه في الرسل والأنبياء ، فقال :

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً أي لم يكن على النبي حرج أو عيب فيما أحل

ج ٢٢ ، ص : ٣٢

له وأمره من زواج زينب مطلّقة دعيه ومتبناة سابقا زيد بن حارثة رضي اللّه عنه. وهذا حكم اللّه تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء ، وعليهم في ذلك حرج وضيق ، وكان أمر اللّه الذي يقدره كائنا لا محالة ، وواقعا لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وهذا رد على المنافقين الذين عابوا رسول اللّه في تزوجه امرأة زيد مولاه ودعيّه الذي كان قد تبناه ، ورد أيضا على اليهود الذين عابوه من كثرة الزوجات ، فقد كان لداود وسليمان عليهما السلام عدد كثير من النساء.

ثم مدح اللّه رسله الكرام ، فقال :

(٣٢/٢٢)

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً أي إن أولئك الرسل الذين رفع اللّه الحرج عنهم فيما أحل لهم ، وخاتمهم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم مهمتهم تبليغ رسالات اللّه وشرائعه إلى الناس وأداؤها بأمانة ، وهم يخافون اللّه وحده في ترك تبليغ شيء من الوحي ، ولا يخافون أحدا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد أو انتقاده عن إبلاغ رسالات اللّه تعالى ، وكفى باللّه ناصرا ومعينا ، وحافظا لأعمال عباده ومحاسبهم عليها.

ثم رد اللّه تعالى على نقد من قالوا : إن محمدا تزوج حليلة ابنه ، فقال :

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ، وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً أي إن التزوج بزوجة الابن النسبي بالفعل هو غير جائز ، أما التزوج بزوجة المتبنى بالتبني المصطنع فهو جائز ، خلافا لشرعة الجاهلية ، وإن زيدا لم يكن ابنا لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم حقيقة وإن كان قد تبناه ،

وليس هو أبا على الحقيقة لأحد من الرجال ، وإنما هو رسول اللّه لتبليغ رسالته وشرعه إلى الناس ، وهو الذي ختم به أنبياء اللّه ورسله ، وكان اللّه وما يزال عليما مطلعا على كل شيء ، يعلم من بدئت به النبوة ومن ختمت به ، ولا يفعل إلا ما هو الأصلح ، ولا يختار إلا من هو

ج ٢٢ ، ص : ٣٣

الأجدر ، كما قال تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ [الأنعام ٦/ ١٢٤].

(٣٣/٢٢)

فليس بين محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وبين أحد من الناس أبوة شرعية يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها ، وإنما هو أب روحي لجميع المؤمنين ، شديد الإشفاق عليهم ، يستوجب التوقير والاحترام ، كما قال تعالى : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [الأحزاب ٣٣/ ٦] وهذا أمر أجمع وأعم ، وأما قوله تعالى : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. فهو خاص.

وأما أبوته صلّى اللّه عليه وسلّم الخاصة فهو أب لأربعة ذكور ، وأربع بنات ، فقد ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي اللّه عنها ، ثم ماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ثم مات رضيعا ، وكان له أربع بنات من خديجة :

زينب ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد ماتت الثلاث الأول في حياته صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم ماتت فاطمة بعده لستة أشهر.

وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعد نبي اللّه محمد ، ولا رسول بعده بالطريق الأولى لأن النبوة أعم من الرسالة ، والرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا عكس ، وإذا انتفى وجود النبي بصريح الآية ، انتفى وجود الرسول أيضا.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١- يحظر ويمنع على أي مؤمن أو مؤمنة إذا قضى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بأمر أن يختار غيره لأن لفظة ما كان ، وما ينبغي معناها هنا الحظر والمنع ، فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون ، كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا ، كقوله تعالى : ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها

ج ٢٢ ، ص : ٣٤

]

(٣٤/٢٢)

النمل ٢٧/ ٦٠]. وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى : ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [آل عمران ٣/ ٧٩] وقوله تعالى : وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ [الشورى ٤٢/ ٥١]. وربما كان في المندوبات كما تقول : « ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل » ونحو هذا.

٢- في هذه الآية دليل للمالكية على أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان ، خلافا للجمهور لأن الموالي تزوجت في قريش ، تزوج زيد زينب بنت جحش ، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير ، وزوّج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد أراد اللّه امتحان زينب بزواج زيد لهدم مبدأ العصبية الجاهلية والامتياز الطبقي أو العنصري ، وجعل أساس التمايز هو الإسلام والتقوى.

٣- يجب اتباع أمر اللّه ورسوله لأن اللّه أخبر أن من يعصي اللّه ورسوله فقد ضل طريق الهدى. قال القرطبي : وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا ، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين ، من أن صيغة « افعل » للوجوب في أصل وضعها لأن اللّه تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية ، ثم علّق على المعصية بذلك الضلال ، فلزم حمل الأمر على الوجوب « ١ » .

٤- أراد اللّه تعالى من عتاب نبيه بآية : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ .. إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية ، وأن يكون ظاهرهم

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ١٨٨ [.....]

و باطنهم سواء لأن اللّه تعالى أعلم نبيه بأن زيدا سيطلّق زينب وينكحها هو ، فما الداعي لوعظه وقوله له : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ؟ .

وقد أخفى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما أخبره اللّه به من طلاق زينب وزواجه ، لا أنه أخفى استحسانها وحبّه لها والحرص على طلاق زيد إياها ، كما يقول قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ، منهم الطبري وغيره ، فهذا لا يليق بمنصب النبوة ، ولا يتفق مع الواقع ، فإنه كان بإمكانه أن يتزوجها وهي بكر ، وهو يعرفها لأنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت هي ترغب بذلك ، بدليل أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لما خطبها لزيد ، ظنت أنه خطبها لنفسه ، والخلاصة : أن قائل ذلك- إن تعمد-

جاهل بعصمة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن مثل هذا ، أو مستخف بحرمته.
وأشد قبحا ما قال مقاتل : زوّج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم زينب بنت جحش من زيد ، فمكثت عنده حينا ، ثم إنه صلّى اللّه عليه وسلّم أتى زيدا يوما يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش ، فهويها وقال : « سبحان مقلّب القلوب » فسمعت زينب بالتسبيحة ، فذكرتها لزيد ، ففطن زيد ، فقال :
يا رسول اللّه ، ائذن لي في طلاقها ، فإن فيها كبرا ، تعظم علي وتؤذيني بلسانها ،
فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ.
وأحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري الفقيه المالكي الذي ولي قضاء العراق ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم : هو ما

روي عن علي بن الحسين : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان قد أوحى اللّه تعالى إليه أن زيدا يطلّق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج اللّه إياها ، فلما تشكّى زيد للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم خلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على جهة الأدب

و الوصية : « اتق اللّه في قولك وأمسك عليك زوجك » وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها وخشي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه اللّه تعالى على هذا القدر من خشيته الناس في شيء قد أباحه اللّه له ، بأن قال : « أمسك » مع علمه بأنه يطلّق ، وأعلمه أن اللّه أحق بالخشية ، أي في كل حال.
ويدل تحرج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيرا كبيرا في المجتمعات والسلوك.
٥- اقترنت واقعة زواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بزينب في السيرة بأحكام شرعية ، منها : استخارة اللّه في الأمور ، فعند ما جاء زيد يخطبها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن.
ومنها : ندب وليمة الزواج ، قال أنس بن مالك فيما يرويه مسلم :
« ما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أولم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ، فإنه ذبح شاة.

ومنها : أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علي فلانة ، وهو زوجها المطلقة منه ، ولا حرج في ذلك ، كما

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لزيد في رواية : « اذكرها علي » أي اخطبها.

(٣٧/٢٢)

٦- اختصاص النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بتزويج اللّه تعالى له ، فلما وكّلت زينب أمرها إلى اللّه ، وصح تفويضها إليه ، تولى اللّه إنكاحها ، ولما أعلمه اللّه بذلك دخل عليها بغير إذن ، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، ولا شيء مما يكون شرطا في عقود زواجنا ، ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتقول : « زوجكن آباؤكن ، وزوّجني اللّه تعالى » . أخرج النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت

ج ٢٢ ، ص : ٣٧

زينب تفخر على نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تقول : إن اللّه عز وجل أنكحني من السماء ، وفيها نزلت آية الحجاب.

٧- المنعم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة إذ أعتقه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عند ما اختار البقاء عنده ، مفضلا إياه على أبيه وعمه ، و

قال الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : « اشهدوا أني وارث وموروث » فلم يزل يقال : زيد بن محمد ، إلى أن نزل قوله تعالى : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ ونزل : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ.

٨- قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السّهيلي رحمه اللّه تعالى : كان يقال :

زيد بن محمد ، حتى نزل : ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ فقال : أنا زيد بن حارثة ، وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد. فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر ، وعلم اللّه وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدا من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهي أنه سماه في القرآن فقال تعالى : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً يعني من زينب. ومن ذكره اللّه تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب ، نوّه به غاية التنويه ، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم له.

(٣٨/٢٢)

فهو لا يزال مترددا على ألسنة المؤمنين ، ومذكورا على الخصوص عند رب العالمين إذ القرآن كلام اللّه القديم ، وهو باق لا يبيد فاسم زيد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة ، تذكره في التلاوة السّفرة الكرام البررة.

وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضا من اللّه تعالى له مما نزع عنه.

وزاد في الآية أن قال : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أي بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة ، علم ذلك قبل أن يموت ، وهذه فضيلة أخرى.

٩- قوله تعالى : زَوَّجْناكَها دليل على ثبوت الولي في النكاح.

ج ٢٢ ، ص : ٣٨

١٠- أعلم اللّه جميع الأمة أنه سنّ لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم التوسعة عليه في النكاح سنّة الأنبياء الماضية ، كداود وسليمان ، فكان لداود مائة امرأة ، وثلاث مائة سرّية ، ولسليمان ثلاث مائة امرأة وسبع مائة سرّية.

١١- دلت آية ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ على أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بأب شرعي لزيد ، وليس زيد ابنا له ، حتى تحرم عليه حليلته ، ولكنه أبو أمّته في التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب اللّه بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم ، واعتراضهم بقولهم : تزوج النبي امرأة ابنه وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة.

ولم يقصد بهذه الآية أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يكن له ولد ، فقد ولد له ذكور كما تقدم : إبراهيم ، والقاسم ، والطيب ، والمطهّر ، ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا. وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرين له.

١٢- الحقيقة أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم كان رسول اللّه ، وخاتم النبيين ، وقوله خاتَمَ بفتح التاء ، بمعنى أنهم به ختموا ، فهو كالخاتم والطابع لهم ، وبكسر التاء : بمعنى أنه ختمهم ، أي جاء آخرهم.

وهذا دليل قاطع على أنه لا نبي ولا رسول بعده صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفيه وردت الأحاديث المتواترة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من حديث جماعة من الصحابة رضي اللّه عنهم ، منها

ما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن جابر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ، ويتعجبون منها ،

ويقولون : لو لا موضع اللّبنة ، فأنا موضع اللّبنة حيث جئت ، فختمت الأنبياء » ونحوه عن أبي هريرة ، غير أنه قال : « فأنا اللّبنة وأنا خاتم النبيين » .

و

منها ما أخرجه الصحيحان عن جبير بن مطعم رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « إن لي

ج ٢٢ ، ص : ٣٩

أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو اللّه تعالى بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » .

و

منها ما رواه أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدي ولا نبي » فشق ذلك على الناس ، فقال : « و لكن المبشّرات » قالوا : يا رسول اللّه ، وما المبشّرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة » .

و

روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « لا نبوة بعدي إلا ما شاء اللّه » قال ابن عبد البر : يعني الرؤيا- واللّه أعلم- التي هي جزء منها كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة » .

وإتمام النبوات مشابه لإتمام الأخلاق ،

قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وهذا كله رد قاطع على المتنبئين كالأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذّاب باليمامة ، وسجاح ، وغيرهم من أدعياء النبوة الأفاكين ، كما قال تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [الشعراء ٢٦/ ٢٢١- ٢٢٢].

تعظيم اللّه تعالى وإجلاله بالأذكار والتسابيح الكثيرة [سورة الأحزاب (٣(٣) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤(١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤(٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤(٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤)

ج ٢٢ ، ص : ٤٠

البلاغة :

بُكْرَةً وَأَصِيلًا بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً أي في أغلب الأوقات ، ويشمل مختلف أنواع التقديس والتمجيد والتهليل والتحميد وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا أول النهار وآخره ، وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات ، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ أي بالرحمة وَمَلائِكَتُهُ بالاستغفار لكم ، والاهتمام بما يصلحكم ، والمراد بالصلاة المشتركة بين اللّه وملائكته : هو العناية بصلاح أمركم ، وظهور شرفكم ورفعة شأنكم لِيُخْرِجَكُمْ ليديم إخراجه إياكم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً أي كان اللّه وما يزال رحيما بعباده المؤمنين ، حتى اعتنى بصلاح أمرهم ورفع قدرهم وهو دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة تَحِيَّتُهُمْ أي تحية اللّه للمؤمنين بلسان الملائكة هي السلام ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي يحيّون يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبر ، أو دخول الجنة سَلامٌ إخبار بالسلامة من كل مكروه وآفة وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً هي الجنة.

سبب النزول : نزول الآية (٤٣) :

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي .. : أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما نزلت :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ [الأحزاب ٣٣/ ٥٦] قال أبو بكر رضي اللّه عنه : يا رسول اللّه ، ما أنزل اللّه تعالى عليك خيرا إلا أشركنا فيه ، فنزلت :

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ.

المناسبة :

بعد بيان ما ينبغي أن يكون عليه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مع اللّه وهو التقوى والإخلاص ، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه بقوله تعالى : يا أَيُّهَا

ج ٢٢ ، ص : ٤١

النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ

و هو تحقيق الحرية والاستقرار الزوجي ، أمر اللّه تعالى عباده المؤمنين بما أمر به أنبياءه المرسلين من تعظيم اللّه وإجلاله بذكره وتسبيحه في أغلب الأوقات ومختلف أنواع الطاعات ، بقوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ليحقق لهم أجزل الثواب ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

التفسير والبيان :

يأمر اللّه تعالى عباده المؤمنين بكثرة ذكر ربهم تبارك وتعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم ، لينالوا جزيل الثواب وجميل المآب ، فيقول :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا أي يا أيها الذين أيقنوا وصدقوا باللّه ورسوله اذكروا اللّه بألسنتكم وقلوبكم ذكرا كثيرا ، يملأ عليكم مشاعركم ، في جميع الأحوال ، ويحقق في نفوسكم خشية ربكم ، ونزهوه عن كل ما لا يليق به أول النهار وآخره ، أي في غالب الأوقات لأن بداية الشيء ونهايته تشمل وسطه أيضا بحكم الاستمرار ، قال الزمخشري في تفسير بُكْرَةً وَأَصِيلًا أي في كافة الأوقات. وإنما ذكر هذان الوقتان لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ذكر اللّه على فم كل مسلم »

و

روي « في قلب كل مسلم »

و

عن قتادة : « قولوا : سبحان اللّه ، والحمد اللّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم » .

و

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يا رسول اللّه ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم :

ذكر اللّه عز وجل » .

ج ٢٢ ، ص : ٤٢

و نظير الآية في وصف المؤمنين : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ [آل عمران ٣/ ١٩١].

وقرن التسبيح بالذكر معناه : إذا ذكرتم اللّه تعالى ، فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء ، وهو المراد بالتسبيح.

ثم حرّض تعالى على الذكر والتسبيح وأبان سببه فقال :

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً أي إن اللّه ربكم الذي تذكرونه وتسبحونه هو الذي يرحمكم ، وملائكته تستغفر لكم ، وهو بهذه الرحمة يريد هدايتكم وإخراجكم من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الحق والهدى والإيمان ، وكان ربكم وما يزال رحيما تام الرحمة بعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم ، وأما في الآخرة : فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

ومن مظاهر رحمته تعالى

ما ورد في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « أ ترون هذه تلقي ولدها في النار ، وهي تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم :

فو اللّه اللّه أرحم بعباده من هذه بولدها » .

ثم ذكر تعالى دليل رحمته الشامل في الآخرة وعنايته فيها بعد بيان عنايته في الدنيا ، فقال :

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً تحيتهم من اللّه تعالى بواسطة ملائكته يوم لقائه في الآخرة هو السلام ، كما قال تعالى : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس ٣٦/ ٥٨] وقال عز وجل : وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد ١٣/ ٢٣- ٢٤].

وهيّأ لهم ثوابا حسنا في الآخرة وهو الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والملاذّ والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- الحض على ذكر اللّه وشكره على نعمه ، وتسبيحه في معظم الأحوال بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ، دون تقدير بقدر معين أو تحديد بحد ، ليسهل الأمر على العبد ، وليعظم الأجر فيه.
روى أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا : مجنون » .
٢- إسباغ الرحمة الإلهية على المؤمنين وتسخير الملائكة للاستغفار لهم ، بقصد هدايتهم وإخراجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الهدى واليقين.
والصلاة من اللّه على العبد : هي رحمته له وبركته لديه ، وصلاة الملائكة :
دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال تعالى : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا [غافر ٤٠/ ٧].
قال ابن عباس : لما نزل إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ [الأحزاب ٣٣/ ٥٦] قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول اللّه خاصّة ، وليس لنا فيه شيء فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ، أي هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ...
ج ٢٢ ، ص : ٤٤

و قال القرطبي : وهذه نعمة من اللّه تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ودليل على فضلها على سائر الأمم ، وقد قال : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران ٣/ ١١٠].
ذكر النحاس حديثا : أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أيصلّي ربّك جلّ وعزّ ؟ فأعظم ذلك فأوحى اللّه جل وعز : « إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي » .
٣- قوله تعالى : لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ أي من الضلالة إلى الهدى : معناه التثبيت على الهداية لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية.
وقوله : وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً إخبار برحمته تعالى للمؤمنين وتأنيس لهم ، فهو يرحمهم في الدنيا بهدايتهم إلى الحق ، ويؤمنهم من عذاب اللّه يوم القيامة ، وتكون تحية اللّه لهم يوم القيامة بعد دخول الجنة : سلام ، أي سلامة من عذاب اللّه ، وقيل : عند الموت وقبض الروح.
قال ابن كثير : الظاهر أن المراد- واللّه أعلم- تحيتهم ، أي من اللّه تعالى يوم يلقونه : سلام ، أي يوم يسلم عليهم ، كما قال عز وجل : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس ٣٦/ ٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون اللّه في الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير. وكذا قال القرطبي :
تَحِيَّتُهُمْ أي تحية بعضهم لبعض ، ويؤيده قوله تعالى : دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها

سَلامٌ ، وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ [يونس ١٠/ ١٠].

ج ٢٢ ، ص : ٤٥

مهام دعوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩)

الإعراب :

شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِراجاً مُنِيراً كلها منصوبات على الحال.

وقوله : وَسِراجاً أي وذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفا للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفا لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يكن سراجا حقيقة.

البلاغة :

وَسِراجاً مُنِيراً تشبيه بليغ ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه ، أي أنت يا محمد كالسراج المضيء في الهداية والإرشاد.

وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَسِراجاً مُنِيراً فَضْلًا كَبِيراً توافق الفواصل. وكذا أيضا وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا سَراحاً جَمِيلًا.

المفردات اللغوية :

شاهِداً على من أرسلت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم وَمُبَشِّراً من صدّقك وأطاعك

ج ٢٢ ، ص : ٤٦

بالجنة وَنَذِيراً من كذبك وعصاك بالنار وَداعِياً إِلَى اللَّهِ إلى الإقرار به وبتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته وإلى طاعته بِإِذْنِهِ بتيسيره وأمره وَسِراجاً مُنِيراً أي كالسراج الوضاء يستضاء به ، ويكون مثله في الاهتداء به فَضْلًا كَبِيراً على سائر الأمم في الدنيا ، وأجرا واسعا على أعمالهم في جنات النعيم.

وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ فيما يخالف شريعتك ، والمراد به التهييج والإثارة له على ما هو عليه من مخالفتهم ، تحقيقا لاستقلال الذات وصون الشريعة من الاختلاط. ويحتمل كون المراد به : الدوام

والثبات على ما كان عليه وَدَعْ أَذاهُمْ أي اترك إلحاق الأذى والضرر بهم ، وخذ بظاهرهم ، وحسابهم على اللّه في باطنهم. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فوض أمرك إليه ، فهو كافيك وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا مفوضا إليه الأمر في الأحوال كلها.

نَكَحْتُمُ النكاح هنا العقد أَنْ تَمَسُّوهُنَّ أي تجامعوهن ، ويعبر عن الجماع في القرآن أدبا بالمس والملامسة والقربان والتغشي والإتيان فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها أي ليس عليهن انتظار أيام أو أقراء تستوفون عددها ، يمتنعن فيها عن الزواج بآخرين ، فالعدة : الشيء المعدود فَمَتِّعُوهُنَّ أعطوهن ما يستمتعن به ، والمتعة سنة للمفروض لها المهر ، وواجب لمن لم يفرض لها مهر وهي المفوضة في رأي الحنابلة والحنفية ، وسنة فقط في غير المفوضة عند الجمهور ، وواجبة لكل مطلّقة عند الشافعية ، إلا المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر ، فإنه يكتفى لها بنصف المهر ، وتكون المتعة سنة مستحبة لها ، وهو كسوة شاملة أو ثلاثون درهما وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أي خلّوا سبيلهن من غير إضرار ولا إيذاء إذ ليس لكم عليهن عدة.

سبب النزول : نزول الآية (٤٧) :

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ :

(٤٨/٢٢)

أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا : لما نزل لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ [الفتح ٤٨/ ٢] قال رجال من المؤمنين : هنيئا لك يا رسول اللّه ، قد علمنا بما يفعل بك ، فما ذا يفعل بنا ، فأنزل اللّه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ الآية [الفتح ٤٨/ ٥]. وأنزل في سورة الأحزاب وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً.

و

أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت :

ج ٢٢ ، ص : ٤٧

وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ [الأحقاف ٤٦/ ٩] نزلت بعدها : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ [الفتح ٤٨/ ٢] فقالوا : يا رسول اللّه قد علمنا ما يفعل بك ، فما ذا يفعل بنا ؟ فنزل : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً قال : الفضل الكبير : الجنة. وأخرجه أيضا ابن جرير وعكرمة عن الحسن البصري.

المناسبة :

موضوع السورة متعلق بآداب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فبعد أن أمره اللّه تعالى بما ينبغي أن يكون

عليه مع ربه بقوله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ [الأحزاب ٣٣/ ١] وما ينبغي أن يكون عليه مع أزواجه بقوله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ أمره بما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق بقوله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ.

(٢٢/٤٩)

و كلما ذكر اللّه تعالى أدبا أو مكرمة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، ففي مقابل أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالتقوى ، أمر المؤمنين بالذكر : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ وفي مقابل أدب الزوجات ذكر ما يتعلق بأزواج المؤمنين ، ثم في الآيات التالية ذكر تعالى في مقابل بيان مهام النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أدب المؤمنين مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بقوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ [الأحزاب ٣٣/ ٥٣] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ.

التفسير والبيان :

ذكر اللّه تعالى في هذه الآيات سبع مهامّ للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

١- ٣ : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ، وَمُبَشِّراً ، وَنَذِيراً أي يا أيها الرسول المنزل عليه الوحي ، إنا بعثناك شاهدا على من أرسلت إليهم بتصديقك

ج ٢٢ ، ص : ٤٨

و تكذيبك ، واتباع هداك ومخالفتك ، أي متحملا للشهادة في الدنيا ، ومؤديا لما تحمّلته في الآخرة أمام ربك ، وأرسلناك لتبشير من أطاعك بالجنة ، ولإنذار من عصاك بالنار ، فهذه ثلاث مهام من مهمات الدعوة المكلّف بتبليغها إلى البشر كافة. ونظير الآية في الشهادة قوله تعالى : لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً [البقرة ٢/ ١٤٣].

(٢٢/٥٠)

روى الإمام أحمد والبخاري وابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في التوراة ، قال : « أجل ، واللّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا اللّه ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا » .

٤- ٥ : وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِراجاً مُنِيراً أي وداعيا الخلق إلى عبادة ربهم ، وطاعته ومراقبته سرا وعلانية ، بأمره إياه ، والإقرار به ، والإيمان بما يجب له من صفات الكمال ، وجعلناك ذا سراج أو كالسراج الوضاء الذي يستضاء به في الظلمات ، ليهتدي بك الناس ، ويستنيروا بشرعك في تحقيق سعادتي الدنيا والآخرة. فقوله بِإِذْنِهِ معناه : بأمره إياك ، وتقديره ذلك في وقته وأوانه ، وَسِراجاً معناه : ذا سراج ، أو يكون كقول القائل : « رأيته أسدا » أي شجاعا ، فيكون قوله : سِراجاً أي هاديا مبينا كالسراج ، يري الطريق ويبين الأمر ، ويهدي الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

ومقتضى تشبيه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالسراج أن دينه أو أمره يكون ظاهرا واضح الحجة والبرهان ، لا تعقيد فيه ولا التواء ، ولا خفايا فيه ولا أستار.

ج ٢٢ ، ص : ٤٩

و إنما شبّه بالسراج لا بالشمس التي هي أشد إضاءة من السراج لأن ضوء الشمس يبهر العين ، وأما ضوء السراج فترتاح له الأعين.

ووصف السراج بالإنارة لأن بعض السرج لا يضيء لضعفه ودقة فتيلته.

(٥١/٢٢)

٦- وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً أي أعلن البشارة لكل من آمن برسالتك وأطاع شرعك بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، وأجرا عظيما لا يوصف في الدار الآخرة ، وبعد البشارة أتى بالإنذار ، فقال :

٧- وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ، وَدَعْ أَذاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا أي لا تطع هؤلاء الذي كفروا برسالتك ، أو نافقوا فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، ولا تسمع منهم اعتراضا أو نقدا في أمر الدعوة ، ولا تأبه بهم ، وبلّغ رسالة ربك إلى الناس قاطبة ، ودع عنك أذاهم ، واصفح عنهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، وامض لما أمرك به ربك ، وفوّض أمرك إلى اللّه تعالى في كل ما تعمل وتذر ، وثق به ، فإن فيه كفاية لهم ، وهو حافظك وراعيك ، وكفى باللّه كافيا عبده. والوكيل : الحافظ القائم على الأمر. وفي هذا الكلام القوي وعد بالنصر.

وبعد بيان مهمات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، عاد الكلام إلى قضايا الأزواج ، فلما ذكر تعالى قصة زيد وزينب وتطليقه إياها ، وكانت مدخولا بها ، واعتدت ، وخطبها الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بعد انقضاء عدتها ، بيّن حال من طلقت قبل الدخول (المسيس) وأنها لا عدة عليها ، فقال :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أي يا أيها الذين صدقوا باللّه ورسوله ، إذا عقدتم عقد

النكاح على النساء المؤمنات ، ثم أوقعتم الطلاق عليهن من قبل الدخول بهن ، فلا عدّة لكم عليهن بأيام تستوفون

ج ٢٢ ، ص : ٥٠

(٥٢/٢٢)

عددها ، ولكن قدموا لهن بعد الطلاق تطييبا لخاطرهن متعة وهي كسوة تليق بكم وبهن بحسب الزمان والمكان ، وطلقوهن طلاقا لا ضرر فيه إذ ليس لكم عليهن عدة. والجمال في التسريح : ألا يطالبها بما آتاها.

وتخصيص المؤمنات بالذكر في الآية إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة ، فإنها أشد تحصينا لدينه.

وقوله : فَمَتِّعُوهُنَّ قيل بأنه واجب مختص بالمفوّضة التي لم يسم لها مهر إذا طلقت قبل الدخول ، وقيل : بأنه عام يشمل المفوضة وغيرها ، والأمر إما أمر وجوب أو أمر ندب على حسب اختلاف العلماء ، فمنهم من قال للوجوب ، فيجب مع نصف المهر المتعة أيضا ، ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتّعها مع الصداق بشي ء.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية :

أولا- وصف النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بسبع صفات أو أسماء ، فهو الشاهد على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ، وهو المبشر للمؤمنين برحمة اللّه وبالجنة ، وهو المنذر للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد ، وهو الداعي إلى اللّه بتبليغ التوحيد والأخذ به ومكافحة الكفرة ، وهو نور كالسراج الوضاء بشرعه الذي أرسله اللّه به ، وهو الذي بشر المؤمنين بالفضل الكبير من اللّه تعالى ، وهو ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة في الدين والممالأة ، لكنه مأمور أيضا أن يدع أذاهم مجازاة على إذايتهم إياه ، فلا يعاقبهم ، وإنما يصفح عن زللهم ، معتمدا على اللّه وحده بنصر دينه وحفظه وتأييده وعصمته من الناس.

ج ٢٢ ، ص : ٥١

(٥٣/٢٢)

روى ابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس قال : لما نزلت : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عليّا ومعاذا فقال : « انطلقا ، فبشّرا ولا تنفرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، فإنه قد نزل علي الليلة آية : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً- بالجنة- وَنَذِيراً- من النار- وَداعِياً إِلَى اللَّهِ- شهادة أن لا إله إلا اللّه- بِإِذْنِهِ- بأمره- وَسِراجاً مُنِيراً بالقرآن » .

ثانيا- قال القرطبي « ١ » : هذه الآية فيها تأنيس للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم. وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلّى اللّه عليه وسلّم ستة أسماء ، ولنبينا صلّى اللّه عليه وسلّم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة ، وقد سماه اللّه في كتابه محمدا وأحمد.

و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما روى عنه الثقات العدول عند الطبراني عن جابر : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو اللّه بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » .

و

في صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم : وقد سماه اللّه رؤفا رحيما.

و

فيه أيضا عن أبي موسى الأشعري قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يسمّي لنا نفسه أسماء ، فيقول : « أنا محمد وأحمد ، والمقفّي (أي أنه آخر الأنبياء) ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

وذكر القاضي ابن العربي في أحكامه (٣/ ١٥٣)(٤) بمناسبة هذه الآية سبعا وستين اسما للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم هي :

الرسول ، المرسل ، النبي ، الأمي ، الشهيد ، المصدّق ، النور ، المسلم ، البشير ، المبشّر ، النذير ، المنذر ، المبين ، الأمين « ٢ » ، العبد ، الداعي ، السراج ،

)

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٢٠٠

(٢) مكرر مع ما بعده « أمين » ويكون النبيء والنبي اسمين.

ج ٢٢ ، ص : ٥٢

المنير ، الإمام ، الذّكر ، المذكّر ، الهادي ، المهاجر ، العامل ، المبارك ، الرحمة ، الآمر ، الناهي ، الطيب ، الكريم ، المحلّل ، المحرّم ، الواضع ، الرافع ، المخبر ، خاتم النبيين ، ثاني اثنين ، منصور ، أذن خير ، مصطفى ، أمين ، مأمون ، قاسم ، نقيب ، مزمّل ، مدثّر ، العليّ ، الحكيم ، المؤمن ، المصدّق « ١ » ، الرؤوف ، الرحيم ، الصاحب ، الشفيع ، المشفّع ، المتوكل ، محمد ، أحمد ، الماحي ، الحاشر ، المقفي ، العاقب ، نبي التوبة ، نبي الرحمة ، نبي الملحمة ، عبد اللّه ، نبي الحرمين. ذكر ذلك أهل ما وراء النهر.

فالرسول : الذي تتابع خبره عن اللّه ، وهو المرسل من ربّه ، والمرسل غيره لتبليغ الشرائع إلى الناس مشافهة ، والنبيء مهموز من النبأ وهو الخبر ، وغير مهموز من النّبوة : وهو المرتفع من الأرض ، فهو مخبر عن اللّه ، رفيع القدر عنده ، والأمي : الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والشهيد لشهادته على الخلق في الدنيا والآخرة ، والمصدّق بجميع الأنبياء قبله ، وصدّق ربه بقوله ، وصدق قوله بفعله ، والمنور الذي نور اللّه به الأفئدة بالإيمان والعلم ، وبدد ظلمات الكفر والجهل ، والمسلم خير المسلمين وأولهم ، والبشير : الذي أخبر الخلق بثوابهم إن أطاعوا وبعقابهم إن عصوا ، والنذير والمنذر : المخبر عما يخاف ويحذر ، والمبين :

الذي أبان عن ربه الوحي والدين وأظهر الآيات والمعجزات ، والأمين : الذي حفظ ما أوحي إليه وما وظف به ، والعبد : الذي ذل للّه خلقا وعبادة ، والداعي الخلق إلى الحق وترك الضلال ، والسراج : النور الذي يبصر به الخلق الرشد ، والمنير : المنور ، والإمام : المقتدى به المرجوع إلى قوله وفعله ، والذّكر :

الشريف في نفسه ، المشرّف غيره ، والمذكّر : الذي يخلق اللّه على يديه الذّكر ، أي تذكر اللّه ، والهادي : الذي أبان النجدين ، أي طريقي الخير والشر ، والمهاجر : لأنه هجر ما نهى اللّه عنه ، وهجر أهله ووطنه ، والعامل : لأنه قام

---

(١) مكرر مع ما قبله ، ويكون المرسل والمرسل اسمين.

ج ٢٢ ، ص : ٥٣

بطاعة ربه ، ووافق فعله قوله واعتقاده ، والمبارك : الذي جعل اللّه في حاله زيادة الثواب ، وفي حال أصحابه فضائل الأعمال ، وفي أمته زيادة العدد على جميع الأمم ، والرحمة : الذي رحم اللّه به العالمين في الدنيا من العذاب الشامل ، وفي الآخرة بتعجيل الحساب ، والآمر والناهي : المبلّغ الأمر والنهي ، والطيب :

فلا أطيب منه ، لسلامته عن خبث القلب وخبث القول وخبث الفعل.

والكريم : الجواد على التمام والكمال ، والمحلّل والمحرّم : مبيّن الحلال والحرام ، والواضع والرافع : الذي وضع اللّه به قوما ورفع آخرين ، والمخبر : النبيء ، وخاتم النبيين : آخرهم ، وثاني اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر في غار جبل ثور ، والمنصور : المعان من قبل اللّه بالعزة والظهور على الأعداء ، وأذن خير : لا يعي من الأصوات إلا خيرا ولا يسمع إلا الأحسن ، والمصطفى : المخبر عنه بأنه صفوة الخلق ، والأمين كما تقدم : المؤتمن على المعاني ، والمأمون : الذي لا يخاف من جهته شرّ ، وقاسم : يقسم الزكوات والأخماس وسائر الأموال بين الناس ، ونقيب : يتولى الأمور ، ويحفظ الأخبار ، وقد وصف نفسه للأنصار بذلك فقال : أنا نقيبكم ، والمزمّل : المتلفف بثيابه ، والمدثر : المتغشّي بثيابه ، والعلي :

الرفيع القدر والمكان ، الشريف الشأن ، والحكيم : العامل بما علم ، والمؤمن :

المصدّق لربه اعتقادا وفعلا ، والرؤوف الرحيم : لما أعطاه اللّه من الشفقة على الناس ، والصاحب : الذي كان مع أتباعه حسن المعاملة ، عظيم الوفاء ، والشفيع المشفّع : الراغب إلى اللّه في أمر الخلق بتعجيل الحساب ، وإسقاط العذاب وتخفيفه ، والمتوكل : الملقي مقاليد الأمور إلى اللّه علما وعملا ، والمقفّي : العابد ، ونبي التوبة : لأنه تاب اللّه على أمته بالقول والاعتقاد ، دون تكليف بقتل أو إصر ، ونبي الرحمة : المشفق على الناس ، ونبي الملحمة : المبعوث بحرب الأعداء والنصر عليهم.

ثالثا- يرى مجاهد أن الأمر بالعفو والصفح عن الكافرين في قوله تعالى :

وَدَعْ أَذاهُمْ منسوخ بآية السيف.

ج ٢٢ ، ص : ٥٤

رابعا- في آية إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ .. أحكام كثيرة منها :

١- المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك ، فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا.

والمشهور عند الفقهاء أن العدّة ليست خالص حق العبد ، وإنما يتعلق بها حق اللّه وحق العبد معا لأن

منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضا ، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلّق لأن الشرع أثبتها. والعدة شرعا :

المدة التي تنتظر فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل ، أو للتعبد ، أو للتفجع على زوج مات.

٢- إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اتفق العلماء على أن المراد بالنكاح هنا العقد ، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب اللّه إلا في معنى العقد. والنكاح في الأصل حقيقة في الوطء ، لكن من أدب القرآن الكناية عن الوطء أو الجماع بلفظ : الملامسة والمماسّة والقربان والتغشّي والإتيان. وسمي العقد نكاحا من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثما لأنه سبب في اقتراف الإثم.

٣- إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها ، وهذه الآية مخصّصة لقوله تعالى :

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ [البقرة ٢/ ٢٢٨] ولقوله تعالى :

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ ، فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ [الطلاق ٦٥/ ٤].

٤- قوله تعالى : الْمُؤْمِناتِ خرج مخرج الغالب من حال المؤمنين أنهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات ، ولكن لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في إباحة الزواج بالاتفاق.

٥- استدل جمهور العلماء منهم الشافعي أحمد بقوله تعالى :

إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ بمهلة ثُمَّ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح ، ولا طلاق قبل النكاح ، فمن طلق المرأة قبل نكاحها وإن عيّنها ، فلا يلزمه ، فمن قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، أو إن تزوجت فلانة فهي طالق ، لا يعد طلاقا ، فإذا تزوج لم تطلق زوجته حينئذ ، سواء خص أو عم ، وسواء أنجز أو علّق.

وسئل ابن عباس عن ذلك ، فقال : هو ليس بشيء ، فقيل له : إن ابن مسعود كان يقول : إن طلق ما لم ينكح فهو جائز ، فقال : رحم اللّه أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال ، لقال اللّه تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا طلّقتم المؤمنات ، ثم نكحتموهن) ولكن إنما قال : إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ.

و

روى ابن ماجه عن علي والمسور بن مخرمة رضي اللّه عنهما عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « لا طلاق قبل النكاح » .

و
روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » .

(٢٢/٥٨)

و قال أبو حنيفة رحمه اللّه : لا فرق بين من خص أو عم لأن الطلاق يقع في الملك ، فإن عمّ ، فقال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، تطلق منه ، وهذا تعليق معنوي للطلاق على الملك ، ومثله التعليق اللفظي : « إن تزوجت فلانة فهي طالق » « ١ » . أما تنجيز الطلاق على الأجنبية فلا يقع لأن الطلاق الناجز لا يقع في غير الملك بالاتفاق.
وقال مالك رحمه اللّه : إن عم لم يقع لأنه ضيق على نفسه أنواع الزواج ،

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣/ ٣٦٤
ج ٢٢ ، ص : ٥٦
و الأمر إذا ضاق اتسع وإن عين امرأة بذاتها أو بقبيلة أو ببلد معين ، يلزم ويقع.
٦- هل الخلوة قبل الدخول بمثابة الجماع ؟
يرى الشافعي وأحمد أن الخلوة ليست كالجماع لأن ظاهر التقييد بعدم المس في قوله تعالى : مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ دليل على الفرق بين الخلوة والجماع والمس كناية عن الجماع ، كما بينا ، والخلوة لا توجب ما يوجبه الجماع من العدة بعد الطلاق.
ويرى الحنفية والمالكية أن الخلوة الصحيحة كالجماع توجب العدة لما رواه الدار قطني والجصاص الرازي في أحكام القرآن : « من كشف خمار امرأة ، ونظر إليها ، وجب الصداق ، دخل بها أو لم يدخل » .
وروي عن زرارة بن أبي أوفى أنه قال : قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملا ، وعليها العدة ، دخل بها أو لم يدخل.
والعدة عند الحنفية واجبة بعد الخلوة قضاء وديانة ، فلا يحل للمرأة أن تتزوج بزوج آخر قبل أن تعتد ، ما دامت الخلوة بالأول كانت صحيحة ، ولو من غير وقاع. ومنهم من يقول : إنه يحل لها ذلك متى كان الزوج لم يواقعها ، أما في القضاء فلا اعتبار إلا بالظاهر.

(٢٢/٥٩)

٧- استدلّ داود الظاهري بظاهر الآية على أنه لا عدّة على المرأة المدخول بها المطلقة الرجعية أو البائنة بينونة صغرى إذا راجعها زوجها أو عقد عليها قبل انقضاء عدتها ، ثم طلقها قبل أن يمسها لأنها مطلقة قبل الدخول بها ، فليس عليها عدة جديدة للطلاق الثاني لأنه طلاق قبل الدخول ، وليس عليها أيضا

ج ٢٢ ، ص : ٥٧

أن تكمل العدة الأولى لأن الطلاق الثاني قد أبطل الطلاق الأول ، ثم يكون لها نصف الصداق في صورة البينونة.

وقال عطاء بن أبي رباح والشافعي في أحد قوليه : يجب على المرأة في الحالتين أن تبني على عدة الطلاق الأول ، ولا تستأنف عدة جديدة إذ الطلاق الثاني لا عدة له ، ولكن لا يبطل ما وجب بالطلاق الأول ، فإنه طلاق بعد دخول ، يجب أن تراعى فيه حكمة الشارع في إيجاب الاعتداد ، وعلى الزوج نصف الصداق في صورة البينونة ، كما قال الظاهرية.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي : يجب على المرأة أن تستأنف عدة جديدة في الحالتين لأنه وإن لم يحصل دخول ، فإن المرأة كان مدخولا بها من قبل ، وعلى الرجل في صورة البينونة مهر كامل بسبب كون المرأة مدخولا بها.

وفرق المالكية بين الطلاق الرجعي والبائن ، فأوجبوا على الرجعية أن تستأنف عدة كاملة إذ إنها في حكم الموطوءة بعد المراجعة ، ولم يوجبوا على البائن عدة لأن النكاح بعد البينونة عقد جديد ، فالطلاق بعده يصدق عليه أنه طلاق قبل الدخول ، فلا يوجب عدة ، لكنه لا يصح أن يهدم ما وجب على المرأة بالطلاق ، فعليها أن تكمل العدة الأولى ، ولها على المطلّق نصف المهر.

٨- استدل الحسن البصري وأبو العالية بظاهر قوله تعالى : فَمَتِّعُوهُنَّ على إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء أفرض لها مهر أم لم يفرض ، ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى : وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ [البقرة ٢/ ٢٤١].

و هذا مذهب الشافعية أيضا ، لكنهم استثنوا المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر ، فإن لها نصف المهر فقط ، والمتعة سنة مستحبة ، ودليلهم قوله تعالى :

ج ٢٢ ، ص : ٥٨

وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ [البقرة ٢/ ٢٣٧] فلم يذكر متعة ، قال سعيد بن المسيب : هذه الآية ناسخة لآية الأحزاب : فَمَتِّعُوهُنَّ.

ويرى الحنفية والحنابلة أن المرأة المفوّضة وهي التي لم يفرض لها مهر تجب لها المتعة ، وأما غيرها فالمتعة لها سنة ، واستدلوا بقوله تعالى : لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ ، عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ [البقرة ٢/ ٢٣٦].

وجعل المالكية المتعة سنة مستحبة لكل مطلقة لأنهم حملوا الأوامر الواردة في شأن المتعة كلها على الندب والاستحباب لظاهر قوله تعالى : مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ.

والخلاصة : أن هناك تعارضا بين آية البقرة وبين آية الأحزاب ، وقد دفع بعض العلماء التعارض بجعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب أو ناسخة لعمومها ، ويكون المعنى : فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهن المهر في النكاح ، وهو مذهب الحنفية والشافعية.

ومن العلماء من حمل المتعة في آية الأحزاب على العطاء مطلقا ، فيشمل نصف المفروض والمتعة المعروفة في الفقه ، إلا أن ذلك الشيء في صورة الفرض مقدر بنصف المفروض بالنص ، وفي صورة عدم الفرض غير مقدر ، فإن اتفقا على شيء فذاك ، وإلا قدرها القاضي باجتهاده على حسب حال الزوجين يسارا وعسرا.

و منهم من حمل الأمر في آية فَمَتِّعُوهُنَّ على الإذن الشامل للوجوب والندب ، مع بقاء المتعة على معناها المعروف ، فيكون التمتيع واجبا في صورة

ج ٢٢ ، ص : ٥٩

عدم الفرض لقوله تعالى : وَمَتِّعُوهُنَّ ومستحبا في صورة الفرض الصحيح لأنه من الفضل المندوب إليه عموما في قوله تعالى : وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ [البقرة ٢/ ٢٣٧].

٩- المتعة : كسوة كاملة ،

روى البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي اللّه عنهما قالا : « إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلّى اللّه عليه وسلّم بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين « ١ » » .

النساء اللاتي أحلّ اللّه زواجهن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم [سورة الأحزاب (٣)(٣) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)

---

(١) نوع من الثياب مشهور حينئذ.

ج ٢٢ ، ص : ٦٠

الإعراب :

وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً منصوب بالعطف على أَزْواجَكَ وعامله : أَحْلَلْنا أو منصوب بتقدير فعل ، أي ويحل لك امرأة مؤمنة.

إِنْ وَهَبَتْ بالفتح إما بدل من امْرَأَةً أو على حذف حرف الجر ، أي لأن وهبت.

خالِصَةً لَكَ مصدر مؤكد أو حال من ضمير وَهَبَتْ أو صفة لمصدر محذوف ، أي هبة خالصة.

لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ متعلق ب أَحْلَلْنا أي أحللنا لك هذه الأشياء ، لكيلا يكون عليك حرج ، أي ضيق.

وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ كُلُّهُنَّ : مرفوع لأنه تأكيد للضمير الفاعل في يَرْضَيْنَ.

إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ما : إما مرفوع على البدل من النِّساءُ في قوله تعالى :

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وإما منصوب على أصل الاستثناء ، وهو النصب ، وما في هذين الوجهين : اسم موصول يفتقر إلى صلة وعائد ، فالصلة مَلَكَتْ والعائد محذوف للتخفيف. أو أن تكون ما مصدرية في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة :

إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكررا ، تنويها بشأنه.

المفردات اللغوية :

أُجُورَهُنَّ مهورهن. وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ أي ما كان من الإماء بسبب السبي والغنيمة
ج ٢٢ ، ص : ٦١
في الحرب كصفية وجويرية. أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ردّه عليك. اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ من مكة إلى المدينة ، بخلاف من لم يهاجرن. يَسْتَنْكِحَها أي إرادته أن ينكحها ، فإن هبتها نفسها جار مجرى القبول ، والاستنكاح : طلب النكاح والرغبة فيه. خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أي خصوصية لك لشرف نبوتك واستحقاقك التكريم ، وهو النكاح بلفظ الهبة من غير صداق ، وبه احتج الشافعية على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى ، وقد خصّ عليه الصلاة والسلام بالمعنى ، فيخص باللفظ.

(٦٤/٢٢)

قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ أي على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام ، من شرائط العقد ، ووجوب المهر بالوطء إذا لم يسمّ في العقد ، ووجوب القسم بين الزوجات ، وألا يزيدوا على أربع نسوة ، ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر. وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ من الإماء بشراء أو غيره من أصل رقيق لا من الأحرار ، وبأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية ، بخلاف المجوسية والوثنية ، وأن تستبرأ بحيضة قبل الوطء. لِكَيْلا متعلق ب أَحْلَلْنا. حَرَجٌ ضيق ومشقة. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً فيما يعسر التحرز عنه. رَحِيماً بالتوسعة في مظان الحرج.
تُرْجِي تؤخر من الإرجاء : وهو التأخير ، قرئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ، يقال : أرجيت الأمر وأرجأته : إذا أخرته. مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ أي من أزواجك عن نوبتها.
وَتُؤْوِي تضم وتضاجع. ابْتَغَيْتَ طلبت. مِمَّنْ عَزَلْتَ تجنبت ، من العزلة : الإزالة والتنحية من القسمة. فَلا جُناحَ عَلَيْكَ لا إثم عليك ، في طلبها وضمها إليك. وهذا تيسير على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد أن كان القسم واجبا عليه. ذلِكَ التخيير. أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ أقرب إلى قرة أعينهن وارتياحهن ، وتقرّ : تسرّ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ من أمر النساء والميل إلى بعضهن ، فاجتهدوا في الإحسان ، وإنما خيرناك يا رسول اللّه فيهن تيسيرا عليك في كل ما أردت.
وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بخلقه وبذات الصدور. حَلِيماً لا يعاجل بالعقوبة ، فهو حقيق بأن يتقى.

(٦٥/٢٢)

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ من بعد التسع التي اخترنك ، وهو في حقه كالأربع في حقنا ، أو من بعد اليوم ، حتى لو ماتت واحدة ، لم يحل له نكاح أخرى. وقرئ : يحل وتحل بالياء والتاء ، وعلى قراءة

الياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقي. وَلا أَنْ تَبَدَّلَ أي تتبدل ، بأن تطلقهن كلهن أو بعضهن ، ثم تتزوج بدل المطلقة. وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ حسن الأزواج المستبدلة ، وهو حال من فاعل تَبَدَّلَ. إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ من الإماء ، فتحل لك ، وهو استثناء من النساء اللاتي يشملن الأزواج والإماء ، وقيل : استثناء منقطع ، وقد ملك صلّى اللّه عليه وسلّم بعدهن مارية القبطية ، وولدت له إبراهيم ومات في حياته. رَقِيباً مراقبا ومحافظا ، فلا تتخطوا ما حدّ لكم.

ج ٢٢ ، ص : ٦٢

سبب النزول :

نزول الآية (٥٠) :

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ :

أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : خطبني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فاعتذرت إليه ، فعذرني ، فأنزل اللّه : إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ إلى قوله : اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أم هانئ قالت : نزلت فيّ هذه الآية : وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ. أراد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتزوجني ، فنهي عني ، إذ لم أهاجر.

وقوله تعالى : وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً : أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله :

وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً الآية قال : نزلت في أم شريك الدوسية. و

أخرج ابن سعد عن منير بن عبد اللّه الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكانت جميلة ، فقبلها ، فقالت عائشة : ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير ، قالت أم شريك : فأنا تلك ، فسماها اللّه مؤمنة ، فقال : وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ فلما نزلت هذه الآية ، قالت عائشة : إن اللّه يسرع لك في هواك.

نزول الآية (٥١) :

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ : أخرج الشيخان عن عائشة : أنها كانت تقول : أما تستحي المرأة أن تهب نفسها! فأنزل اللّه : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ الآية ، فقالت عائشة : أرى ربك يسارع لك في هواك.

و

أخرج ابن سعد عن أبي رزين العقيلي قال : همّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يطلق

ج ٢٢ ، ص : ٦٣

من نسائه ، فلما رأين ذلك ، جعلناه في حلّ من أنفسهن ، يؤثر من يشاء على من يشاء ، فأنزل اللّه : إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ إلى قوله : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ الآية.

نزول الآية (٥(٢) :

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ :

أخرج ابن سعد عن عكرمة قال : لما خيّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أزواجه اخترن اللّه ورسوله ، فأنزل اللّه : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ.

وهذا ما ذكره غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم : أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن اللّه ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، كما تقدم في الآية.

المناسبة :

سبق الكلام في أنكحة المؤمنين وأحكامها ، وهنا خصص الكلام لنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اللاتي يحل له نكاحهن ، وقصر التحريم عليهن ، وتخييره في القسم بين الزوجات دون إلزام ، بالمبيت عند من يشاء ، وترك البيتوتة عند من يريد ، وزواجه بهبة المرأة نفسها له بغير صداق ، مما يجري مجرى القبول ، وكل من ترك إيجاب القسم والزواج بلفظ الهبة خصوصية للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم دون بقية المؤمنين.

التفسير والبيان :

١- يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ذكر اللّه تعالى في هذه الآية أربع مجموعات أو فئات من النساء اللاتي أباح اللّه لنبيه الزواج بهن ، وهذه هي الفئة الأولى وهي النساء الممهورات ، والمعنى : يا أيها الرسول ،

ج ٢٢ ، ص : ٦٤

إنا أبحنا لك الأزواج اللاتي أعطيتهن مهورهن ، وهي الأجور هنا ، والمرأة التي أوتيت مهرها أو صداقها أفضل وأولى ممن لم تأخذ صداقها ، فهذه هي الحالة الكاملة التي بدأ النص بها ، ويكون الأكمل إيتاء المهر كاملا ، دون تأخير شيء منه ، وأما تأخير الناس الآن بعض المهر ، فهو من مستحدثات العرف ، بقصد الحذر ، وبسبب التغالي في المهور وتعذر دفع كامل المهر.

وقد كان مهره صلّى اللّه عليه وسلّم لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصفا ، أي خمس مائة درهم فضة ، إلا

أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فإن النجاشي رحمه اللّه أمهرها عنه أربع مائة دينار ، وإلا صفية بنت حييّ ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويريّة بنت الحارث المصطلقية أدى عنها نجوم كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس ، وتزوجها.

(٢٢/٦٨)

٢- وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم ، وهذه هي الفئة الثانية من النساء ، وهي الإماء المملوكات. وقد ملك صلّى اللّه عليه وسلّم كما بيّنا صفية وجويرية ، وريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم إبراهيم ، وكانتا من السراري.

٣- وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ أي وأحللنا لك من الأقارب بنات العم ، وبنات العمات ، وبنات الخال ، وبنات الخالة المهاجرات معك ، دون غير المهاجرات. وهذه هي الفئة الثالثة التي شرط فيها كون المرأة مهاجرة ، ولم تحل له غير المهاجرة كأم هانئ ، كما تقدم. والمراد من بنات العم والعمة : القرشيات ، فإنه يقال للقرشيين قربوا أم بعدوا : أعمامه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويقال للقرشيات قربن أم بعدن :

عماته ، والمراد من بنات الخال والخالة : بنات بني زهرة ، وقد كان عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ستّ من القرشيات ، ولم يكن عنده زهرية.

ج ٢٢ ، ص : ٦٥

و الحكمة في إفراد العم مجاراة مألوف العرب بإفراده في حال إضافة الابن والبنت له ، وجاء الكلام في الخال على مثاله ، وقيل : جاء الكلام في العمة والخالة بالجمع ، وإن كانتا مضافين ، لمكان تاء الوحدة ، وهي تأبى العموم في الظاهر ، وأما عدم الجمع في العم والخال فقد جاء على الأصل من إرادة العموم عند الإضافة.

(٢٢/٦٩)

٤- وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة التي تهب نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك ، وهذه هي الفئة الرابعة ، وإباحتها بشرطين : هبة نفسها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ورغبة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في نكاحها ، والزواج بلفظ الهبة من خصوصيات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم دون سائر المؤمنين ، فله الزواج بها من غير مهر ولا ولي ولا شهود.

هذه هي الأصناف الأربعة التي أحلها اللّه لنبيه : الممهورات ، والمملوكات ، والأقارب ، والواهبات أنفسهن من غير مهر. والمراد بالإحلال : الإذن العام بالنكاح. ويلاحظ كما قال ابن عباس ومجاهد : « لم يكن عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم امرأة موهوبة » ، وأما المرأة التي وهبت نفسها له وهي أم شريك الدوسية ، فإنها لما قالت للنبي : وهبت نفسي لك ، سكت عنها حتى قام رجل ، فقال : زوّجنيها يا رسول اللّه ، إن لم تكن لها بها حاجة. وكذلك وهبت نساء أخريات أنفسهن للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولكن لم يكن عنده صلّى اللّه عليه وسلّم امرأة وهبت نفسها ، أخرج ابن سعد « أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ووهب نساء أنفسهن ، فلم نسمع أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبل منهن أحدا » .

فإن كانت الواهبة نفسها كافرة فلا تحل للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، قال ابن العربي :

والصحيح عندي تحريمها عليه ، وبهذا يتميز علينا ، فإنه ما كان من جانب

الفضائل والكرامة فحظّه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أظهر ، فجوز لنا نكاح الحرائر من الكتابيات ، وقصر هو لجلالته على المؤمنات ، وإذا كان لا يحلّ له من لم يهاجر لنقصان فضل الهجرة ، فأحرى ألا تحلّ له الكتابية الحرة ، لنقصان الكفر « ١ » .

أما لو وهبت امرأة نفسها لرجل غير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهي المفوّضة ، وجب عليه لها مهر مثلها بالدخول أو بالموت ، و

قد حكم بذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في بروع بنت واشق ، لما فوضت نفسها ، ومات عنها زوجها ، فقضى لها بصداق مثلها.

ثم أكد تعالى مضمون جملة خالِصَةً لَكَ .. ببيان مغايرة أحكامه صلّى اللّه عليه وسلّم لأحكام المؤمنين أحيانا ، فقال :

قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ، لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أي إن ما ذكر حكمك أيها الرسول مع نسائك ، وأما حكم أمتك مع نسائهم ، فعندنا علمه ، نبينه لهم على حسب مقتضى الحكمة والمصلحة ، والمعنى : قد علم اللّه ما فرض من أحكام وشرائط وقيود في شأن أزواج المؤمنين والمملوكات ، مما فيه صلاحهم وجعلهم غير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في تلك الأحكام ، من حصرهم في أربع نسوة حرائر ، وما شاؤوا من الإماء المؤمنات والكتابيات غير الوثنيات والمجوسيات ، وعدم إباحة الزواج لهم بلفظ الهبة ، واشتراط الولي والمهر والشهود.

وهذه جملة اعتراضية تؤكد ما سلف وتبينه ، ثم ذكر تعالى علة اختصاصه صلّى اللّه عليه وسلّم ببعض الأحكام مثلما تقدم ، وهو أننا أبحنا أو أحللنا لك ما ذكر من النساء والمملوكات والأقارب والواهبة ، لندفع عنك الضيق والمشقة التي تلحقك ، وتتفرغ لتبليغ الرسالة ، وكان اللّه وما يزال غفورا لك وللمؤمنين

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٤٧

ج ٢٢ ، ص : ٦٧

ما لا يمكن التحرز عنه ، رحيما بك وبهم بدفع الحرج والعنت (المشقة) ، وعدم العقاب على ذنب تابوا عنه. وفي الجملة : إن قوله : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً آنس به تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته.

ثم أجاب اللّه تعالى عن غيرة بعض نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مثل عائشة من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعن تفويضهن أمر القسم للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ ، وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ أي لك يا رسول اللّه الحرية المطلقة في القسم بين زوجاتك ، فلك أن تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتبيت مع من تشاء ، لا حرج لك أن تترك القسم لهن ، ولا يجب عليك قسم ، بل الأمر لك ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت. ومع هذا كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقسم لهن.

وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ أي ومن طلبت إلى المبيت معك ممن تجنبت وتركت البيتوتة معهن ، فلا إثم ولا حرج ولا ضيق عليك في ذلك ، وكذلك لا ضير عليك في إرجاع من طلقت منهن.

ثم أبان اللّه تعالى سبب هذا التفويض للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الإيواء والإرجاء وأنه لمصلحتهن ، فقال :

ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ، وَلا يَحْزَنَّ ، وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ أي إذا علمن أن اللّه قد وضع عنك الحرج في القسم وأنه غير واجب عليك ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، وأنت مع ذلك تقسم لهن باختيارك لا جبرا عنك ، فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وقدرن جميلك ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن ، ورضين كلهن بما تفعل ،

دون إقلاق ولا بلبلة.

ج ٢٢ ، ص : ٦٨

(٧٢/٢٢)

ثم خاطب اللّه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأزواجه بطريق تغليب الذكور ، فقال :

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً أي إن اللّه عليم تام العلم بالميل إلى بعضهن دون بعض ، من غير اختيار ، ومما لا يمكن دفعه ، وكان اللّه وما يزال عليما بما تخفيه النفوس ، وتكتمه السرائر ، حليما يحلم ويغفر ، فلا يعاجل المذنبين بالعقوبة ، ليتمكنوا من التوبة والإنابة. وفي هذا حثّ على حسن النوايا ، وسلامة الطوية ، وتحسين معاملة النساء للتغلب على أثر الغيرة.

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقسم بين نسائه ، فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » زاد أبو داود : يعني القلب.

ثم ذكر اللّه تعالى مجازاة نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اللاتي اخترن اللّه ورسوله ، فمنع طلاقهن ، وحرّم غيرهن عليه ، فقال :

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ

أي يحرم عليك أيها الرسول الزواج بغير هؤلاء النساء التسع اللاتي عندك الآن ، جزاء لاختيارهن اللّه ورسوله ، أخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال : « لما خيّرهنّ ، فاخترن اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، قصره سبحانه عليهن » .

وهذا هو الحكم الأول : تحريم بقية النساء عليه.

(٧٣/٢٢)

وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وهذا هو الحكم الثاني : منع استبدالهن وتحريم طلاقهن ، أي ولا يحلّ لك أيها الرسول أن تتزوج غير اللاتي في عصمتك ، وأن تستبدل بهن غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتتزوج بدلها أخرى ، وإن أعجبك حسنها ، إلا ما ملكت يمينك من الإماء ، مثل مارية القبطية التي أهداها المقوقس له ، فتسرّى بها ، وولدت له إبراهيم ومات رضيعا.

ج ٢٢ ، ص : ٦٩

و قوله : وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ دليل على جواز النظر إلى المخطوبة ،
أخرج أبو داود أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل » .
و
قال المغيرة بن شعبة : « خطبت امرأة ، فقال لي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا ، قال : انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .
وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً أي وكان اللّه وما يزال مطلعا على كل شيء ، عالما مراقبا كل ما يكون من أحد وما يحدث في الكون ، فاحذروا مخالفة أوامره ، فإن اللّه يجازي كل امرئ بما عمل.
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآيات على الأحكام التالية :
١- إباحة أصناف أربعة من النساء للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم توسعة عليه ، وتيسيرا له في تبليغ الرسالة ، وهنّ :
أ- جميع النساء حاشا ذوات المحارم إذا آتاهن مهورهن ، وهذا قول جمهور العلماء ، بدليل ما أخرجه الترمذي عن عطاء قال : قالت عائشة رضي اللّه عنها :
ما مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى أحلّ اللّه تعالى له النساء. وقال ابن عباس : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يتزوج في أي الناس شاء ، وكان يشقّ ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية ، وحرم عليه بها النساء إلا من سمّي ، سرّ نساؤه بذلك.

و قد استنبط الكرخي من تسمية المهر أجرا جواز انعقاد النكاح بلفظ الإجارة ، ولم يتابعه الحنفية في ذلك ، لأن معنى الإجارة يتنافى مع عقد النكاح ، إذ الإجارة عقد مؤقت ، والنكاح عقد مؤبد يبطله التوقيت. ثم إن النكاح ليس عقد تمليك وإنما هو استباحة ، وكذلك المهر في النكاح ليس عوضا ، وإنما هو عطية أوجبها اللّه تعالى ، إظهارا لخطر المحل.
ج ٢٢ ، ص : ٧٠
ب- السراري مملوكات اليمين اللاتي ردها اللّه عليه من غنائم الحرب المأخوذة على وجه القهر والغلبة في وقت كان السبي أو الاسترقاق مشروعا في العالم ، معاملة بالمثل.
ج- قريباته بنات العم والخال والعمة والخالة المهاجرات معه من مكة إلى المدينة ، وهن بنات عمه العباس وغيره من أولاد عبد المطلب وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وذلك يشمل القرشيات ، وبنات

الخال من ولد بنات عبد مناف بن زهرة. وقد كان عنده خمس قرشيات ، ولم يكن عنده من أولاد الخال والخالة أحد.

والمراد بالمعية في قوله : مَعَكَ الاشتراك في الهجرة ، لا في الصحبة فيها ، فمن هاجر حلّ له ، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن.

وذكر اللّه تعالى العم فردا والعمات جميعا ، وكذا الخال والخالات لحكمة عدا ما ذكرنا هي : أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة ، وهذا عرف لغوي.

د- النساء اللاتي وهبن له أنفسهن من غير مهر ، وهن أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم. ولكن لم يكن عنده إحدى الواهبات أنفسهن له ، إذ لم يقبل منهن أحدا.

٢- قوله تعالى : وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً يدل على أن الكافرة لا تحلّ له ، كما بيّنا.

و قوله سبحانه : إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة. وقوله تعالى : إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها دليل

على أن الهبة لا تتم إلا بقبول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإن قبل حلّت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك ، كما إذا وهبت شيئا لرجل ، فلا يجب عليه القبول.

وقوله تعالى : خالِصَةً لَكَ دليل على أن انعقاد النكاح بلفظ الهبة من خصوصيات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأن الهبة لا تحلّ لأحد بعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إن كانت هبة نكاح ، ولا يحلّ للمرأة أن تهب نفسها لأحد ، وهذا قول جمهور العلماء.

وقال الحنفية والمالكية : ينعقد النكاح لغير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بلفظ الهبة ، ويكون للمرأة ما سمي من المهر في العقد ، ومهر المثل إن لم يسمّ شيء ، وللمفوضة طلب المهر قبل الدخول ، ومهر المثل بعد الدخول.

ومنشأ الخلاف هو في معنى قوله تعالى : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فذهب جماعة إلى أن الخصوصية في انعقاد النكاح بلفظ الهبة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، لقوله تعالى : لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وقوله : إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها وقوله سبحانه : إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ. وهذا رأي الجمهور.

وذهب آخرون إلى أن الخصوصية الواردة في الآية هي في نكاح الواهبة بغير مهر ، أما عقد النكاح

بلفظ الهبة فكان جائزا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأمته على السواء ، أي إن الخصوصية في المعنى دون اللفظ ، لأن اللّه تعالى أضاف لفظ الهبة إلى المرأة بقوله : وَهَبَتْ وأضاف إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إرادة الاستنكاح ، فدلت المخالفة على أن المراد مدلول اللفظ الذي من جانب المرأة ، وهو ما يدل عليه لفظ الهبة من ترك العوض.

(٧٦/٢٢)

٣- ذكر ابن العربي والقرطبي « ١ » بمناسبة هذه الخصوصية ما خصّ اللّه تعالى به

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٤٩- ١٥٥٣ ، تفسير القرطبي : ١٤/ ٢١١- ٢١٣

ج ٢٢ ، ص : ٧٢

رسوله من أحكام في الشريعة لم يشاركه فيها أحد ، سواء في مجال الفرض أو التحريم أو الإباحة ، ففرضت عليه أشياء لم تفرض على غيره ، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وأبيحت له أشياء لم تبح لهم.

فأما ما اختص به من الفرائض فهو تسعة :

الأول- التهجد بالليل ، لقوله تعالى : يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا [المزمل ٧٣/ ١] ، والصحيح أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى :

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ [الإسراء ١٧/ ٧٩].

الثاني- الضحى. الثالث- الأضحى. الرابع- الوتر. الخامس- السواك.

السادس- قضاء دين من مات معسرا. السابع- مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن- تخيير النساء. التاسع- إذا عمل عملا أثبته.

وأما ما اختص به مما حرّم عليه فهو عشرة :

الأول- تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني- صدقة التطوع عليه ، وفي آله اختلاف. الثالث- خائنة الأعين : وهو أن يظهر خلاف ما يضمر ، أو ينخدع عما يجب. الرابع- حرّم اللّه عليه إذا لبس لأمته (درعه) أن يخلعها عنه أو يحكم اللّه بينه وبين محاربه. الخامس- الأكل متكئا. السادس- أكل الأطعمة كريهة الرائحة. السابع- التبدل بأزواجه. الثامن- نكاح امرأة تكره صحبته.

التاسع- نكاح الحرّة الكتابية. العاشر- نكاح الأمة.

وحرّم اللّه عليه أشياء لم يحرّمها على غيره تنزيها له وتطهيرا ، فحرّم اللّه عليه الكتابة وقول الشعر

وتعليمه ، تأكيدا لحجته وبيانا لمعجزته ، قال اللّه تعالى :
وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ [العنكبوت ٢٩/ ٤٨].

و هذا هو المشهور. وذكر النقاش أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما مات حتى كتب.
ج ٢٢ ، ص : ٧٣
و حرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متّع به الناس ، قال اللّه تعالى :
وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ [طه ٢٠/ ١٣١].
وأما ما اختص به مما أحلّ له فهو ستة عشر :
الأول- صفيّ المغنم. الثاني- الاستقلال بخمس الخمس أو الخمس. الثالث- صوم الوصال. الرابع- الزيادة على أربع نسوة. الخامس- النكاح بلفظ الهبة.
السادس- النكاح بغير ولي. السابع- النكاح بغير صداق. الثامن- نكاحه في حالة الإحرام. التاسع- سقوط القسم بين الأزواج عنه. العاشر- إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ، وحلّ له نكاحها. هذا ما قاله إمام الحرمين. وقد بيّنا في قصة زيد بن حارثة أن هذا لا يليق بمنصب النبوة ، وكل ما روي مما فيه مساس بذلك هو ساقط غير معتبر ولا دليل عليه « ١ » .
الحادي عشر- أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها. الثاني عشر- دخوله مكة بغير إحرام ، وفي حقنا فيه اختلاف. الثالث عشر- القتال بمكة. الرابع عشر- أنه لا يورث ، ويصبح ملكه صدقة. الخامس عشر- بقاء زوجيته من بعد الموت. السادس عشر- إذا طلّق امرأة تبقى حرمته عليها ، فلا تنكح.
وأبيح له صلّى اللّه عليه وسلّم أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان ، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك ، لقوله تعالى : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [الأحزاب ٣٣/ ٦] ، وعلى كل أحد من المسلمين أن يقي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بنفسه ، وأبيح له أن يحمي لنفسه.
وأكرمه اللّه بتحليل الغنائم. وجعلت الأرض له ولأمته مسجدا وطهورا ، وكان من الأنبياء من لا تصح صلاتهم إلا في المساجد ، ونصر بالرعب ، فكان

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي : ٣/ ١٥٣١

يخافه العدو من مسيرة شهر ، وبعث إلى كافة الخلق ، وقد كان من قبله من الأنبياء يبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض.

وجعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة. وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجار الماء من الصخرة. وقد انشق القمر للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وخرج الماء من بين أصابعه صلّى اللّه عليه وسلّم. وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وقد سبّح الحصى في يد النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وحنّ الجذع إليه ، وهذا أبلغ. وفضّله اللّه عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ، ولهذا جعلت نبوته مؤبدة لا تنسخ إلى يوم القيامة.

٤- لم يكن القسم بين الزوجات واجبا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، توسعة عليه في ترك القسم وإباحة له ، وإنما كان مخيرا في أزواجه ومع هذا كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقسم بينهن ، دون فرض ، تطييبا لنفوسهن ، وصونا لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي. وهذا أصح ما يراد بالآية.

وقيل : كان القسم واجبا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية.

قال أبو رزين : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قد همّ بطلاق بعض نسائه ، فقلن له : اقسم لنا ما شئت ، فكان ممن آوى : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن. وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان يقسم لهن ما شاء.

٥- قوله تعالى : ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ بيان الحكمة في التخيير بالقسم ، قال قتادة وغيره : أي ذلك التخيير الذي خيّرناك في صحبتهنّ أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من اللّه قرّت أعينهن بذلك ورضين ، لأن المرء إذا علم أنه لا حقّ له في شيء ، كان راضيا بما أوتي منه وإن قلّ. وإن علم أن له حقّا لم يقنعه ما أوتي منه ، واشتدت غيرته عليه ، وعظم

حرصه فيه ، فكان ما فعل اللّه لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه.

وكان صلّى اللّه عليه وسلّم مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ، كما قدّمنا ، و

يقول فيما رواه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي اللّه عنها : « اللهم هذه قدرتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ، يعني ميل قلبه ، لإيثاره عائشة رضي اللّه عنها ، دون أن يكون ذلك ظاهرا في شيء من فعله. وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت عائشة. أخرج البخاري في صحيحة عن عائشة قالت :

« أول ما اشتكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيتها– يعني بيت عائشة– فأذنّ له »

و

في الصحيح أيضا عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : إن كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليتفقد ، يقول : « أين أنا اليوم ، أين أنا غدا ؟ »

استبطاء ليوم عائشة رضي اللّه عنها ، قالت : فلما كان يومي قبضه اللّه بين سحري ونحري « ١ » ، صلّى اللّه عليه وسلّم.

(٨٠/٢٢)

٦– على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ، ولا يسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها ، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته ، إلا أن يعجز عن الحركة ، فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صح استأنف القسم. والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء ، وأما السراري فلا قسم بينهن وبين الحرائر.

روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

---

(١) أي بين جنبي وصدري. والسحر : الرئة ، أطلق على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه ، والنحر : الصدر.

ج ٢٢ ، ص : ٧٦

و لا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة ، ويجوز عند الأكثرين دخوله لحاجة وضرورة.

قال مالك : ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال ، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل. فأما الحبّ والبغض فخارجان عن الكسب ، فلا يتأتى العدل فيهما ، وهو المعنيّ

بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم في قسمه : « اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »

وإليه الإشارة بقوله تعالى : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ [النساء ٤/ ١٢٩] وقوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ [الأحزاب ٣٣/ ٥١].

٧- قوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ خبر عام ، يدخل فيه الإشارة إلى ما في قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من محبة شخص دون شخص ، ويدخل في المعنى أيضا المؤمنون.

أخرج البخاري عن عمرو بن العاص « أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أي الناس أحبّ إليك ؟ فقال : عائشة ، فقلت : من الرجال ؟ قال : أبوها ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر بن الخطاب ، فعدّ رجالا » .

والقلب قد يكون مصدر خير أو شر ، يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيده : اذبح شاة وائتني بأطيبها بضعتين ، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاة أخرى ، فقال له : ألق أخبثها بضعتين ، فألقى اللسان والقلب.

فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين ، فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي بأخبثها بضعتين ، فألقيت اللسان والقلب ؟ ! فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

٨- حظر على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتزوج على نسائه ، لأنهن اخترن اللّه ورسوله

و الدار الآخرة ، ويكون ذلك قصرا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم على أزواجه مجازاة لهن ، وشكرا على هذا الاختيار ، كما قصرهن اللّه عليه إكراما له في قوله : وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ [الأحزاب ٣٣/ ٥٣].

وقيل : إن هذه الآية منسوخة بالسنة ، وهو حديث عائشة ، قالت :

ما مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى أحلّ له النساء. وبه قال الشافعي وقيل : إنها منسوخة بآية أخرى ، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى أحلّ اللّه له أن يتزوج من النساء من شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قوله عز وجل : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ.

والراجح أن الآية محكمة غير منسوخة ، لأن حديث عائشة كما قال ابن العربي حديث ضعيف واه ، أي شديد الضعف « ١ » . وأما نسخها بآية :

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ ... فقال فيه بعض فقهاء الكوفة : محال أن تنسخ هذه الآية : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

وأما القول بأن الترتيب في التلاوة ليس دليل الترتيب في النزول ، فهو صحيح ، لكن النسخ في الحقيقة يتطلب أمرين : ثبوت تأخر الناسخ عن المنسوخ ، وأن يكون بينهما تعارض. وهذان لم يتوافرا هنا.

٩- ظاهر قوله تعالى : وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ناسخ لما كان قد ثبت له صلّى اللّه عليه وسلّم من أنه إذا رأى واحدة ، فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ، ويجب عليه طلاقها. وهو دليل على منع تبديل زوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم اللاتي اخترنه وهن تسع.

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٥٩

ج ٢٢ ، ص : ٧٨

قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتي وأعطني زوجتك.

ولكن أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري : وما فعلت العرب قط هذا.

١٠- قوله سبحانه : وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ دليل كما تقدم على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، وقد أراد المغيرة بن شعبة زواج امرأة ،

فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الخمسة (أحمد وأصحاب السنن الأربعة) عن المغيرة : « انظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم « ١ » بينكما »

و

أخرج البخاري في صحيحة أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال لآخر : « انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا »

أي صفرة أو زرقة أو رمص.

والأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة ، فإنه إذا نظر إليها ، فلعله يرى منها ما يرغّبه في نكاحها ، بدليل

ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل » فقوله : « فإن استطاع فليفعل » لا يقال مثله في الواجب. وهذا قول جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والظاهرية وغيرهم.
واختلف العلماء فيما يجوز أن ينظر منها ، فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفّيها ، ولا ينظر إلا بإذنها.
وقال الشافعي وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة. وقال الأوزاعي : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها. وأما قول داود الظاهري : ينظر إلى سائر جسدها ، تمسكا بظاهر اللفظ ، فأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة.

---

(١) أي يؤلف ويوفق.

ج ٢٢ ، ص : ٧٩

١١- ظاهر عموم قوله تعالى : إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ يدل على إحلال الأمة الكافرة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم.
والأصح أن الكافرة لا تحل له ، تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال اللّه تعالى : وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ
]

الممتحنة ٦٠/ ١٠] فكيف به صلّى اللّه عليه وسلّم ؟ ! ١٢- إن الذي استقر عليه عدد أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كما تقدم هو تسع نسوة مات عنهن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يكن هذا التعدد لغرض جنسي أو شهواني ، وإنما من أجل غاية أسمى هي نشر الدعوة الإسلامية ، وتأليف القبائل العربية وترغيبهم في قبول عقيدة الإسلام ، والدليل على ذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ظل على زوجة واحدة هي السيدة خديجة بنت خويلد حتى نهاية الرابعة والخمسين ، وفي هذه السن تفتر الرغبة الجنسية عادة ، وقد تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي ثيّب بنت أربعين سنة ، ومنها رزق الأولاد ، وماتت وهي في سن الخامسة والستين.
ثم تزوج بعد خديجة سودة بنت زمعة.
وتزوج بعائشة البكر الوحيدة تقديرا لجهود وتضحيات والدها أبي بكر ، وتزوج حفصة حبا في عمر ، وتقديرا لصدقه وجهاده ، مع أنها لم تكن جميلة ، وكان زواجه بأم سلمة ذات الأولاد الكثر وفي سن كبيرة تعويضا عن مصابها بزوجها الذي هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة

العجوز المسن أرملة السكران بن عمرو وفاء له لموته في سبيل الدفاع عن الحق في الحبشة التي هاجر إليها هربا من أذى المشركين ، وتزوج زينب بن جحش لإبطال عادة التبني وإلغاء جميع آثاره بتزويج اللّه له كما بينا ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش التي أسلمت قبل أبيها وهاجرت إلى الحبشة ، وقد أصدقها النجاشي أربع مائة دينار عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، تزوجها إكراما لها وتقديرا لإخلاصها وصدقها ، وصفية بنت حييّ بن أخطب زعيم اليهود تزوجها رأفة بها بعد سبيها ، وجويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق ، تزوجها بعد سبيها وإعتاقها وكان

ج ٢٢ ، ص : ٨٠

عمرها زهاء خمسين عاما ، فآمنت قبيلتها بالإسلام ، وكانت سببا في إسلام خالد بن الوليد البطل الشهير.

(٨٥/٢٢)

هذه هي الأسباب الخاصة بالزواج من أمهات المؤمنين ، أما الأسباب العامة فتتلخص في أن المصاهرة من أقوى عوامل التالف والتناصر ، ونشر دعوة الإسلام في مبدأ أمرها بحاجة إلى الأعوان ، وكان المؤمنون يرون أن أعظم شرف مصاهرتهم للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقربهم منه ، كما أن تشريعات الإسلام الخاصة بالنساء تحتاج معرفتها إلى نسوة يبلغن الأحكام إلى المسلمات ، فكانت أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقمن بهذه المهمة.

وأما أسباب تعدد الزوجات لغير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فهي كثيرة ، منها : إصابة المرأة بالعقم أو بالمرض الفتاك ، المعدي أو المزمن ، ومنها : قلة الرجال أحيانا كما يحدث عقب الحروب ، ومنها : الترغيب في كثرة النسل لتقوية الإسلام ، ومنها تفاقم الرغبة الجنسية أحيانا عند بعض الرجال.

آداب دخول البيت النبوي وحجاب نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٥٣ الى ٥٥]

(٨٦/٢٢)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً

(٥(٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥(٤) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

ج ٢٢ ، ص : ٨١

الإعراب :

غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ غَيْرَ منصوب على الحال من واو تَدْخُلُوا.

أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ وصلتها : في موضع رفع اسم كانَ وكذلك قوله تعالى : وَلا أَنْ تَنْكِحُوا لأنه عطف عليه.

البلاغة :

لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ الإضافة للتشريف.

فَادْخُلُوا فَانْتَشِرُوا بينهما طباق ، وكذا بين تُبْدُوا تُخْفُوهُ.

فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ بينهما طباق السلب.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً عليم وشهيد على وزن فعيل للمبالغة.

المفردات اللغوية :

إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ أي إلا وقت أن يؤذن لكم في الدخول بالكلام أو الإشارة ، أو إلا مأذونا لكم. إِلى طَعامٍ متعلق بيؤذن ، لأنه متضمن معنى (يدعى) للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن بالدخول ، لقوله : غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ غير منتظرين نضجه أو وقته وإدراكه. وأنىّ : هو مصدر : أنى يأني ، أي أدرك وحان نضجه.

فَانْتَشِرُوا تفرقوا ولا تمكثوا. مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ أي مستمعين لحديث أهل البيت أو لبعضكم بعضا. إِنَّ ذلِكُمْ المكث أو اللبث. كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله واشتغاله فيما لا يعنيه.

فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ من إخراجكم. وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ أي لا يترك بيان الحق وهو الأمر بخروجكم.

ج ٢٢ ، ص : ٨٢

وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ أي سألتم أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم. مَتاعاً شيئا محتاجا إليه ينتفع به.

فَسْئَلُوهُنَّ المتاع مِنْ وَراءِ حِجابٍ. ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ من الخواطر الشيطانية المريبة. وَما كانَ لَكُمْ وما صح لكم. أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أن تفعلوا ما يكرهه.

كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ذنبا عظيما.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ من التحدث بزواجهن بعده. فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً يعلم ذلك ، فيجازيكم عليه. قال البيضاوي : وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ، ومبالغة في الوعيد.

لا جُناحَ لا إثم. وَلا نِسائِهِنَّ أي النساء المؤمنات. وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ من العبيد والإماء. وَاتَّقِينَ اللَّهَ فيما أمرتن به. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً لا تخفى عليه خافية.

سبب النزول : نزول الآية (٥٣) :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا :

أخرج أحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : « لما تزوج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم زينب بنت جحش ، دعا القوم ، فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا كأنه يتهيأ للقيام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام ، وقعد ثلاثة ، ثم انطلقوا ، فجئت ، فأخبرت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنهم انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، وذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بيني وبينه ، وأنزل اللّه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلى قوله : إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً.

و

أخرج الترمذي وحسنه عن أنس قال : كنت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأتى باب امرأة عرّس بها ، فإذا عندها قوم ، فانطلق ، ثم رجع ، وقد خرجوا ، فدخل ، فأرخى بيني وبينه سترا ، فذكرته لأبي طلحة ، فقال : لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء ، فنزلت آية الحجاب.

ج ٢٢ ، ص : ٨٣

و أخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت : كنت آكل مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قعب ، فمرّ عمر ، فدعاه ، فأكل ، فأصابت أصبعه أصبعي ، فقال : أوّه لو أطاع فيكنّ ، ما رأتكنّ عين ، فنزلت آية الحجاب. وفي رواية البخاري : أن عمر رضي اللّه عنه قال : يا رسول اللّه ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فنزلت.

و

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : دخل رجل على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأطال الجلوس ، فخرج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ثلاث مرات ليخرج ، فلم يفعل ، فدخل عمر ، فرأى الكراهية في وجهه ، فقال للرجل : لعلك آذيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : لقد

قمت ثلاثا لكي يتبعني فلم يفعل ، فقال له عمر : يا رسول اللّه ، لو اتخذت حجابا ، فإن نساءك لسن كسائر النساء ، وذلك أطهر لقلوبهن ، فنزلت آية الحجاب.

و

(٨٩/٢٢)

في رواية : « بقي ثلاثة نفر يتحدثون ، فأطالوا » .

قال الحافظ ابن حجر : يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب ، فلقربه منها أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب ، ولا مانع من تعدد الأسباب.

قوله تعالى : وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا : قال البيضاوي : الآية خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيدخلون ويقعدون ، منتظرين لإدراكه ، مخصوصة بهم وبأمثالهم ، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ، ولا اللبث بعد الطعام لمهمّ. أخرج عبد بن حميد عن أنس قال : كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام ، فأنزل اللّه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. الآية.

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت : حسبك في الثقلاء أن اللّه تعالى لم يحتملهم ، وقال : فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه في الثقلاء ، ومن ثم قيل : هي آية الثقلاء.

ج ٢٢ ، ص : ٨٤

و قوله تعالى : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ :

أخرج ابن زيد قال : بلغ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن رجلا يقول : لو قد توفي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تزوجت فلانة من بعده ، فنزلت : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ الآية.

وأخرج ابن زيد أيضا عن ابن عباس قال : نزلت في رجل همّ أن يتزوج بعض نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعده ، قال سفيان : ذكروا أنها عائشة. وأخرج عن السدّي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيد اللّه قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ، ويتزوج نساءنا ، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده ، فأنزلت هذه الآية.

(٩٠/٢٢)

و أخرج ابن سعد عن أبي بكر عن محمد بن عمرو بن حزم قال : نزلت في طلحة بن عبيد اللّه لأنه قال : إذا توفي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تزوجت عائشة.

و

أخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلا أتى بعض أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال : يا رسول اللّه : إنها ابنة عمي ، واللّه ما قلت منكرا ، ولا قالت لي ، قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

قد عرفت ذلك ، إنه ليس أحد أغير من اللّه ، وإنه ليس أحد أغير مني ، فمضى ، ثم قال : يمنعني من كلام ابنة عمي ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأنزل اللّه هذه الآية.

قال ابن عباس : فأعتق ذلك الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل اللّه ، وحج ماشيا ، توبة من كلمته.

والخلاصة : رويت روايات كثيرة في أسباب نزول هذه الآيات قال فيها أبو بكر بن العربي : إنها ضعيفة كلها ما عدا الذي ذكرنا- أي

رواية أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس- وما عدا الذي روي أن عمر قال : قلت :

يا رسول اللّه ، إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب.

ج ٢٢ ، ص : ٨٥

و قد كان سبب نزول أدب الطعام والجلوس وليمة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عند زواجه بزينب ، وسبب نزول الحجاب بسبب القعود في بيت زينب.

المناسبة :

بعد بيان حال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مع أمته بأنه المبشر المنذر الداعي إلى اللّه تعالى ، أبان اللّه تعالى حال المؤمنين مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكما أن دخولهم الدين كان بدعوته ، كذلك لا يكون دخول بيته إلا بدعوته ، إرشادا إلى الأدب معه واحترامه وتوفير راحته في بيته ، ثم تعظيمه بين الناس بالأمر بعد هذه الآيات بالصلاة والسلام عليه.

و لا يقتصر الأدب معه على الدخول إلى بيته ، بل يشمل الخروج منه بعد انتهاء الحاجة من استفتاء أو تناول طعام ، فذلك حق وأدب ، ثم ذكر اللّه أدبا آخر ، وهو طلب شيء من الحوائج من نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مع وجود حجاب أو ستر أو حائل. ومناسبة هذا لما قبله أنه لما منع اللّه الناس من دخول بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى استعارة بعض الحوائج ،

بيّن أن ذلك غير ممنوع منه ، وإنما يجب أن يكون السؤال والطلب من وراء حجاب.

التفسير والبيان :

تضمنت هذه الآيات آدابا عامة في الدخول إلى البيوت والخروج منها ، والحجاب وعدم الاختلاط وتحريم إيذاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وزواج نسائه من بعده.

وهي مما وافق الوحي فيها وتنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ، كما ثبت في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي عز وجل في ثلاث ، قلت : يا رسول اللّه ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل اللّه : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى [البقرة ٢/ ١٢٥]. وقلت : يا رسول اللّه ، إن نساءك يدخل

ج ٢٢ ، ص : ٨٦

عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل اللّه آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لما تمالأن عليه : عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ فنزلت كذلك.

وآية الحجاب هذه- كما ذكر قتادة والواقدي- نزلت في صبيحة عرس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بزينب بنت جحش التي تولى اللّه تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، وقد صدّرت الآية بأدب اجتماعي يدفع الحرج عن النبي ، فقال تعالى :

١- يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ أي يا أيها الذين صدقوا باللّه ربّا وبمحمد رسولا إياكم أن تدخلوا بيتا من بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في كل الأحوال إلا في حال كونكم مصحوبين بالإذن بأن دعيتم إلى وليمة طعام ، غير منتظرين وقت نضجه واستوائه ، فإذا تم النضج وتوافر الإعداد فادخلوا حينئذ.

وهذا قوله تعالى :

٢- وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إذا دعاكم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله ، فإذا تناولتم الطعام الذي دعيتم إليه فتفرقوا ولا تمكثوا فيه من أجل تبادل أطراف الحديث والتحدث في شؤون الدنيا.

وهذا دليل على حظر المؤمنين من دخول منازل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بغير إذن ، وعدم ارتقاب نضج الطعام ، وعلى حرمة التطفل ، وعلى عدم البقاء في البيوت بعد الأكل ، للاشتغال بلهو الحديث مع بعضكم أو مع أهل البيت ، فذلك أمر غير مرغوب فيه ، ونوع من الثقل غير محمود لأن أهل البيت بحاجة إلى التفرغ لتنظيف الأواني والراحة من عناء إعداد الطعام ، لذا

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيما
ج ٢٢ ، ص : ٨٧
رواه أحمد والشيخان والترمذي عن عقبة بن عامر : « إياكم والدخول على النساء » .
وعلل تعالى طلب مغادرة البيوت بعد الطعام بقوله :

(٢٢/٩٣)

إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ أي إن بقاءكم واشتغالكم بالحديث والدخول قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي- وإيذاؤه حرام- ويشق عليه ، لمنعه من قضاء بعض حاجته ، ولما فيه من المضايقة لأهل البيت ، ولكن كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حتى أنزل اللّه عليه النهي عن ذلك ، واللّه لا يترك بيان الحق وهو الأمر بالخروج ومنعهم من البقاء والمكث. وهذا أدب عام لا يقتصر على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإنما يشمل سائر المؤمنين. ويحرم اللبث إذا كان فيه إيذاء لصاحب البيت.
وقد نصت آيات سورة النور [٢٧- ٣١] على بيوت المؤمنين وآية الأحزاب [٥٩] في حجاب نسائهم في قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ.
٣- وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أي وكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من غير إذن ودون انتظار إدراك الطعام ، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإذا طلبتم منهن شيئا ينتفع به ، من ماعون وغيره ، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر ، وحائل مانع من النظر.
وسبب النهي عن ذلك ، والأمر بالحجاب كما قال تعالى :
ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ أي إن هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الدخول بالإذن ، والخروج عقب الطعام دون الاستئناس بالحديث ، والحجاب أطهر وأطيب للنفس ، وأبعد عن الريبة والتهمة والفتنة ، وأكثر طمأنينة للقلوب من الهواجس والوساوس الشيطانية.
ج ٢٢ ، ص : ٨٨

(٢٢/٩٤)

و لما علّم اللّه المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرّم ، أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال :

٤- وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أي ما صح وما ينبغي لكم أن تكونوا سببا في إيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو تفعلوا فعلا يضايقه ويكرهه ، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث ، فكل ما منعتم عنه مؤذ ، فامتنعوا عنه ، فإنه صلّى اللّه عليه وسلّم حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة ، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبدا بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، تعظيما له ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى :

إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً أي إن إيذاء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر ، وتشديد فيه وتوعد عليه ، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال :

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً أي إن تظهروا شيئا من الأذى أو تكتموه ، فإن اللّه عليم علما تاما دقيقا به ، يعلم ما تكنّه ضمائركم ، وتنطوي عليه سرائركم ، ولا تخفى عليه خافية : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر ٤٠/ ١٩] وهو مجاز كل إنسان بحسب ذلك العلم.

ثم استثنى اللّه تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء ، فقال :

(٩٥/٢٢)

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، وَاتَّقِينَ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً أي لا إثم على أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في ترك الحجاب أمام آبائهن

ج ٢٢ ، ص : ٨٩

و أجدادهن ، سواء من جهة النسب أم من جهة الرضاع ، أو أبنائهن من النسب أو الرضاع ، أو إخوانهن الأشقاء أو لأب أو لأم ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو أمام النساء المؤمنات القريبات أو البعيدات ، أو الأرقاء من الذكور والإناث ، إبعادا للحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة. ثم ختمت الآية بما ينبه على زيادة الحذر والتقوى ، فقال تعالى فيما معناه :

واخشين اللّه في السرّ والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبنه ، فإنه يجازي على كل عمل من خير أو شر لأنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينة كل شيء ، وفي ذلك منتهى التحذير من مخالفة الأوامر والنواهي.

ونساء المؤمنين كنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في ذلك ، بدليل آية النور : وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ ، أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ .. [٣١].

(٩٦/٢٢)

و أما السبب في عدم ذكر العم والخال في هاتين الآيتين فهو- كما ذكر عكرمة والشعبي- لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما ، أو لأن العم والخال بمنزلة الوالدين ، وقد يسمى العم أبا ، كما قال تعالى : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ [البقرة ٢/ ١٣٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية :

١- الأدب في أمر الطعام والجلوس ، فلا يجوز دخول بيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلا

ج ٢٢ ، ص : ٩٠

بالإذن ، والدخول حرام إلا لأجل الأكل ونحوه ، وظاهر الآية حرمة مكث المدعو بعد تناول الطعام إذا كان ذلك مؤذيا لصاحب البيت.

ودخل في النهي سائر بيوت المؤمنين ، فلا يجوز دخولها إلا بإذن عند الأكل ، لا قبله لانتظار الطعام.

٢- يجب التفرق والخروج من البيت والانتشار في أرض اللّه تعالى بعد تناول الطعام ، وانتهاء المقصود من الأكل ونحوه ، لقوله تعالى : فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا والمراد من الأمر : إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل ، بدليل أن الدخول من غير إذن حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح ، وعاد التحريم إلى أصله.

٣- قوله تعالى : بُيُوتَ النَّبِيِّ دليل على أن البيت للرجل ، ويحكم له به ، فإن اللّه تعالى أضافه إليه إضافة ملك. وأما الإضافة في قوله تعالى :

وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ [الأحزاب ٣٣/ ٣٤] فهي إضافة محل ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والإذن إنما يكون للمالك.

وأما سكنى نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في بيوته في حياته وبعد موته من غير تملك ، فهو حق لهن على الصحيح فإن ذلك من مؤونتهن التي كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم استثناها لهن ، كما استثنى لهن نفقاتهن حين

(٩٧/٢٢)

قال فيما رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر وعثمان وغيرهما : « لا تقتسم ورثتي دينارا ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤونة عاملي ، فهو صدقة »

ويدل لذلك أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثتهن ، ولو كان ذلك ملكا لهن كان لا شك قد ورثه عنهن ورثتهن ، وعدم الإرث دليل على أنها لم تكن ملكا لهن ، وإنما كان لهن سكنى حياتهن ، فلما توفّين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فزيد إلى أصل المال ، فصرف في منافع المسلمين مما يعمّ جميعهم نفعه.

ج ٢٢ ، ص : ٩١

٤- قوله تعالى : وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا خص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، قال ابن العربي : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا في الدخول « ١ » .

٥- في قوله تعالى : فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا دليل آخر في غير إلزام الخروج بعد انتهاء الأكل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف ، لا على ملك نفسه لأنه قال : فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقي الملك على أصله.

٦- قوله تعالى : وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ دليل على أن المكث في المنزل بعد الطعام للاستئناس بالحديث أمر غير مرغوب فيه ، وأدب يجب التزامه.

٧- وقوله تعالى : وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ أي لا يمتنع من بيانه وإظهاره دليل على ألا حياء في معرفة أحكام الدين وبيان الشرع.

جاء في الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت : يا رسول اللّه ، إن اللّه لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا رأت الماء » .

٨- وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً الصواب في المتاع كما قال القرطبي : أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا.

٩- فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ في هذه الآية دليل على أن اللّه تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض ، أو مسألة يستفتين فيها ، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى ، فلا يجوز كشف شيء من جسدها إلا لحاجة

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٦٥

ج ٢٢ ، ص : ٩٢

كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعيّن كون الجواب عندها. قال القاضي عياض : فرض الحجاب بما اختصصن به ، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين ، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها ولا إظهار شخوصهن ، وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه ضرورة.

١٠- استدل بعض العلماء من الأخذ عن أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها ، وهو رأي المالكية والحنابلة في قبول شهادته ، ولا تقبل شهادته في رأي الحنفية والشافعية.

١١- إن الحجاب وسيلة ناجعة في طهارة القلب من هواجس السوء وخواطر المعصية ، سواء بالنسبة للرجال أو النساء ، فذلك أنفى للريبة ، وأبعد للتهمة ، وأقوى في الحماية والتحصن. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله ، وأحصن لنفسه ، وأتم لعصمته.

١٢- قوله تعالى : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ دليل على تعليل الأحكام ، ثم إن بيان العلة وتأكيد إيرادها يقوي دلالة الأحكام الشرعية على المطلوب. وذكر النبي بوصف الرسالة هنا مشعر بتوبيخ من تحدثهم نفوسهم بإيذائه إذ ذلك يكون كفرانا بنعمة الرسالة الواجب شكرانها.

١٣- يحرم التزوج بنساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد مفارقتهن بطلاق أو موت ، تعظيما للنبي ، ولكونهن أمهات المؤمنين ، والمسلم لا يتزوج أمه.

واختلف العلماء في وجوب العدة عليهن بالموت ، فقيل : عليهن العدة لأن العدة عبادة ، وقيل : لا عدة عليهن لأنها مدة تربّص (انتظار) لا ينتظر بها إباحة الزواج ، قال القرطبي : وهو الصحيح لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما تركت بعد نفقة عيالي » وروي « أهلي »

وهذا اسم خاص بالزوجية ، فأبقى عليهن النفقة فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٢٢ ، ص : ٩٣

و السكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه ، وحرمن على غيره وهذا هو معنى بقاء النكاح. وإنما جعل الموت في حقه صلّى اللّه عليه وسلّم لهن بمنزلة المغيب في حق غيره لكونهن أزواجا له في الآخرة

قطعا ، بخلاف سائر الناس لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة ، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار فبهذا انقطع السبب في حق الخلق ، وبقي في حق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم و قد قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة »

و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر : « كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي ، فإنه باق إلى يوم القيامة » .

وأما النساء اللاتي فارقهن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبل الدخول ، فالصحيح جواز نكاحهن لغيره ، كالكلبية التي تزوجها عكرمة بن أبي جهل ، وقيل : تزوجها الأشعث بن قيس الكندي ، وقيل : إنه مهاجر بن أبي أمية.

١٤- إن إيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أو نكاح أزواجه من الذنوب الكبائر ، ولا ذنب أعظم منه.

(١٠٠/٢٢)

١٥- اللّه تعالى عالم بكل ما بدا وما خفي ، وما كان وما لم يكن ، لا يخفى عليه ماض انقضى ، ولا مستقبل آت ، فهو سبحانه يعلم ما يخفيه الإنسان من المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيه عليها. والتذييل بهذه الآية توبيخ ووعيد لمن يضمر السوء في مخاطبة أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأزواج المؤمنين أيضا.

١٦- استثنى اللّه تعالى من فرضية الحجاب على أزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الأقارب المحارم من النسب أو الرضاع ، وهم الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات والنساء المؤمنات ، وهو رأي ابن عباس ومجاهد ، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن ، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من الكافرات.

ويرى بعضهم أن المراد منهن النساء القريبات ، وتكون إضافتهن إليهن

ج ٢٢ ، ص : ٩٤

لمزيد اختصاصهن بهن ، لما لهن من صلة القرابة ، وكذلك الخادمات.

وأيضا ما ملكت أيمانهن من الذكور والإناث.

١٧- توّج اللّه تعالى آية الحجاب واستثناء المحارم بالأمر بالتقوى ، كأنه قال : اقتصرن على هذا ، واتقين اللّه فيه أن تتعدينه إلى غيره ، وخصّ النساء بهذا الأمر وعيّنهن ، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن ، ثم توعد تعالى بأنه رقيب على كل شيء بقوله : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً أي أنه يعلم علم

شهود وحضور ومعاينة ، فيجازي على ما يكون.

تعظيم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وجزاء إيذائه وإيذاء المؤمنين [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٥٦ الى ٥٨]

(١٠١/٢٢)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨)

البلاغة :

وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً إتباع الفعل بالمصدر للتأكيد.

المفردات اللغوية :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. والصلاة في اللغة : الدعاء ، يقال : صلى عليه ، أي دعا له. وهي من اللّه : الرحمة والرضوان ، ومن الملائكة : الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة : دعاء وتعظيم للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم. صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

ج ٢٢ ، ص : ٩٥

أي اعتنوا أنتم أيضا بالصلاة عليه ، فإنكم أولى بذلك ، وقولوا : اللهم صل وسلّم على محمد. والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة ، وتجوز الصلاة على غيره تبعا له ، وتكره استقلالا لأنه في العرف صار شعارا لذكر الرسل ، كما ذكر البيضاوي والشوكاني وغيرهما ، فلا يقال : صلّى اللّه على فلان ، أو فلان عليه السلام ، وقد اتفق العلماء على أن الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فرض على كل مسلم ، وأقلها في العمر مرة.

(١٠٢/٢٢)

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي وهم الكفار يصفون اللّه بما هو منزه عنه من الولد والشريك ، ويكذبون رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم. لَعَنَهُمُ اللَّهُ أبعدهم وطردهم من رحمته. عَذاباً مُهِيناً ذا إهانة وغاية في الإهانة مع الإيلام ، وهو النار. بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا يرمونهم بغير جناية استحقوا بها الإيذاء ، أو بغير ما عملوا. احْتَمَلُوا بُهْتاناً تحملوا كذبا. وَإِثْماً مُبِيناً أي ذنبا ظاهرا واضحا.

سبب النزول : نزول الآية (٥٧) :

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ الآية قال : نزلت في الذين طعنوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حين اتخذ صفية بنت حييّ زوجة له. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس :

أنزلت في عبد اللّه بن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة ، فخطب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقال :

« من يعذرني في رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني » ، فنزلت.

وروي أنها نزلت في منافقين يؤذون عليا رضي اللّه عنه ، وقيل : في أهل الإفك كما تقدم ، وقيل : في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات.

نزول الآية (٥٨) :

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ

قال ابن عباس : أنزلت في عبد اللّه بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي اللّه عنها ، فخطب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : « من يعذرني من رجل يؤذيني ، ويجمع في بيته من يؤذيني » .

ج ٢٢ ، ص : ٩٦

و قيل : نزلت في أناس من المنافقين كانوا يؤذون علي بن أبي طالب.

وقيل : نزلت فيمن آذى عمر لضربه جارية من الأنصار متبرجة. وقال جماعة :

نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن.

المناسبة :

(١٠٣/٢٢)

بعد أن أمر اللّه المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراما ، أكمل ذلك ببيان مكانة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الملأ الأعلى ، وما يجب له من احترام في الملأ الأدنى ، ثم أردفه بتبيين أضداد الاحترام ، فنهى عن إيذاء اللّه ، بمخالفة أوامره وارتكاب معاصيه ، وعن إيذاء رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بالطعن فيه أو في أهل بيته ، أو بنسبة عيب أو نقص فيه.

التفسير والبيان :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً أي إن اللّه يصلي على نبيه بالرحمة والرضوان ، والملائكة تدعو له بالمغفرة ورفعة الشأن ، لذا فأنتم أيها المؤمنون باللّه ورسوله قولوا : اللهم صلّ وسلّم على محمد ، أي ادعوا له بالرحمة ومزيد الشرف والدرجة العليا.

ويلاحظ الاهتمام بالحكم من طريق مجيء الخبر مؤكدا ب « إنّ » والإتيان بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وأن مجيء الجملة اسمية في صدرها : إِنَّ اللَّهَ فعليه في عجزها :

يُصَلُّونَ للدلالة على أن الثناء من اللّه على رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم يتجدد على الدوام.

وهذه الآية بمثابة العلة لما ذكر قبلها من أن شأن المؤمنين ألا يؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكأنه قيل : ما كان لكم أن تؤذوه لأن اللّه يصلي عليه والملائكة ، وما دام الأمر كذلك ، فهو لا يستحق إلا الاحترام والإكرام. وقد بدئت الآية بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وانتهت بالجملة الفعلية للإشارة إلى أن

ج ٢٢ ، ص : ٩٧

هذا الإكرام والتمجيد يتجدد مع مرور الزمان على الدوام.

(١٠٤/٢٢)

و يكون المقصود من الآية أن اللّه تعالى أخبر عباده بمنزلة نبيه وعبده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ، لذا أمر اللّه تعالى العالم الدنيوي بالصلاة والسلام عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين :

العلوي والسفلي جميعا.

والصلاة كما بينا من اللّه الرحمة ، ومن الملائكة : الاستغفار ، ومن المؤمنين الدعاء بالمغفرة والتعظيم لشأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

وكيفية الصلاة عليه تعرف بالأحاديث المتواترة التي منها :

ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهم عن كعب بن عجرة رضي اللّه عنه قال : « قال رجل :

يا رسول اللّه ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ ! قال :

قل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » .

و

أخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول اللّه ، كيف نصلي عليك ؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : قولوا : اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد.

و

أخرج الجماعة عن أبي سعيد الخدري قلنا : « يا رسول اللّه ، هذا السلام عليك ، قد علمنا ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم » .

وأما التسليم فهو بأن يقولوا : السلام عليك يا رسول اللّه ، ومعنى « السلام عليك » الدعاء له بالسلامة من الآفات والنقائص.

ج ٢٢ ، ص : ٩٨

و قد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصلاة والسلام على رسول اللّه ، منها :

(١٠٥/٢٢)

ما رواه أحمد وابن ماجه عن عامر بن ربيعة قال : سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى عليه ، فليقلّ عبد من ذلك أو ليكثر » .

ومنها :

ما رواه أحمد أيضا والنسائي عن عبد اللّه بن أبي طلحة عن أبيه : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جاء ذات يوم ، والسرور- أو البشر- يرى في وجهه ، فقالوا : يا رسول اللّه ، إنا لنرى السرور- أو البشرى- في وجهك ، فقال : « إنه أتاني الملك فقال : يا محمد ، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يصلّي عليك أحد من أمّتك إلا صلّيت عليه عشرا ، ولا يسلّم عليك أحد من أمتك إلا سلّمت عليه عشرا ، قلت : بلى » .

ومنها :

ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من صلى علي واحدة ، صلّى اللّه عليه بها عشرا » .

لذا أوجب الشافعي الصلاة على الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وجعلها ركنا في التشهد الأخير من الصلاة ، وتستحب عنده في التشهد الأول.

واتفق العلماء على وجوب الصلاة والتسليم على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مرة في العمر ، عملا بما يقتضيه الأمر صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام في ذلك ككلمة التوحيد لأن الصحيح أن الأمر لا يقتضي التكرار ، وإنما هو للماهية ، المطلقة عن قيد التكرار والمرة ، وحصوله مرة ضرورة لتحقيق مجرد الماهية. وأما القول بالوجوب كلما ذكر ، أو في كل مجلس مرة ، أو الإكثار منها من غير تقيد بعدد ، فهو استدلال بالأحاديث المرغبة في فعلها والمرهبة من

ج ٢٢ ، ص : ٩٩

تركها ، كقوله تعالى : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها [الأنعام ٦/ ١٦٠] الذي هو ترغيب في الإحسان.

(١٠٦/٢٢)

و يسن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في يوم الجمعة وعند زيارة قبره صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبعد النداء للصلاة ، وفي صلاة الجنازة ،

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أوس بن أوس الثقفي رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي » قالوا : يا رسول اللّه ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ – يعني وقد بليت– قال : « إن اللّه حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

و

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص يقول : سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى عليّ صلّى اللّه عليه بها عشرا ، ثم سلوا اللّه لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد اللّه ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة » :

وروى النسائي عن أبي أمامة أنه قال : من السنة في الصلاة على الجنازة :

أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ، ثم يصلي على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويخلص الدعاء للجنازة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ، ثم يسلم سرا في نفسه.

و

روى أبو داود ، وصححه النووي في الأذكار ، كما صحح الحديث المتقدم ، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما منكم من أحد يسلم علي إلا ردّ اللّه علي روحي حتى أردّ عليه السلام » .

ولا شك بأن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مجلبة للخير

ج ٢٢ ، ص : ١٠٠

و الثواب ، وسبب لدخول الجنة ، ومذهبة للهم والحزن ، وطرد للنسيان ،

(١٠٧/٢٢)

أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « رغم أنف رجل ذكرت عنده ، فلم يصلّ علي ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر ، فلم يدخلاه الجنة » .

وبعد الأمر بالصلاة والسلام على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، عاد الكلام إلى النهي عن إيذاء اللّه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بوصفه بعيب أو نقص فقال : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً أي إن الذين يصدر منهم الأذى للّه ورسوله بارتكاب ما لا يرضيانه من الكفر والعصيان ، كقول اليهود : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ [المائدة ٥/ ٦٤] وعُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣٠] وقول النصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣٠] وقول المشركين : الملائكة بنات اللّه ، والأصنام آلهة شركاء للّه ، وقولهم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : إنه شاعر ، أو ساحر أو كاهن أو مجنون ، إن هؤلاء الذين يؤذون اللّه ورسوله طردهم اللّه من رحمته في الدنيا والآخرة ، وهيأ لهم عذابا مهينا محقرا مؤلما في نار جهنم.

وهذا دليل على أنه تعالى لم يحصر جزاءهم في الإبعاد من رحمته ، بل أوعدهم وهددهم بعذاب النار الأليم. والآية عامة في كل من آذى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بشيء ، فمن آذاه فقد آذى اللّه ، كما أن من أطاعه فقد أطاع اللّه ، كما قال الإمام أحمد. وروي عن ابن عباس أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب.

وبعد بيان شأن الذين يؤذون اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، أبان اللّه تعالى ما يناسب ذلك ، وهو حكم الذين يؤذون المؤمنين ، فقال :

وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً أي والذين يؤذون أهل الإيمان من الرجال والنساء بوجه من وجوه الأذى من قول أو فعل ، وسواء أكان الإيذاء للعرض ، أو الشرف أو المال ، بأن ينسبوا إليهم ما هم برآء منه ، لم يعملوه ولم يفعلوه ، فهو إيذاء بغير حق ، كأن يشتم المؤمن أحدا ، أو يضربه ، أو يقتله ، فقد أتوا بالكذب المحض والبهتان الكبير : وهو نسبة شيء لهم لا علم لهم به ولم يفعلوه ، على سبيل العيب والإنقاص ، وارتكبوا ذنبا واضحا بينا. ونظير الآية : وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً [النساء ٤/ ١١٢].

والبهتان : الفعل الشنيع ، أو الكذب الفظيع.

ومن أشد أنواع الأذى : الطعن في الصحابة ، والغيبة ، واستباحة عرض المسلم ،

روى الإمام أحمد والترمذي عن عبد اللّه بن المغفّل المزني قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « اللّه اللّه في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى اللّه ، ومن آذى اللّه يوشك أن يأخذه » .

و

روى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة : أنه قيل : « يا رسول اللّه ، ما الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

و

روى ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأصحابه : « أي الربا أربى عند اللّه ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال : أربى الربا عند اللّه استحلال عرض امرئ مسلم » ثم قرأ : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً.

ج ٢٢ ، ص : ١٠٢

فإن كان الإيذاء بحق لم يحرم ، مثل الإيذاء بالقصاص ، والإيذاء بقطع اليد في السرقة ، والإيذاء بالتعزيرات المختلفة ، وقتال المرتدين ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث المتواتر الذي رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا اللّه ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » .

فهم أبو بكر رضي اللّه عنه من هذا الحديث أن الزكاة حق المال ، فقاتل مانعيه من أجله ، وقال : « و اللّه لو منعوني عناقا كانوا يعطونه لرسول اللّه ، لقاتلتهم عليه » وحاجه في ذلك عمر فقال : « إلا بحقها » والزكاة حق الأموال ، فانشرح صدره لما رآه أبو بكر.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- إن آية الصلاة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تشريف له حياته وموته ، وتنويه بمنزلته ومكانته

السامية ، والصلاة كما بينا من اللّه : الرحمة والرضوان ، ومن الملائكة :
الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة : الدعاء والتعظيم لأمره.
٢- أمر اللّه تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلّم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف في أنها فرض في العمر مرة ، وسنة مؤكدة في كل حين لا يسع المسلم تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.
وقد عرفنا صفة الصلاة والسلام على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهي صيغة الصلاة الإبراهيمية ، وبينا فضل الصلاة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو كما

(١١٠/٢٢)

ورد عنه فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة : « من صلّى علي واحدة ، صلّى اللّه عليه بها عشرا »
و
قال أيضا : « من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب » « ١ » .
وقال سهل بن عبد اللّه : الصلاة

---

(١) لكن قال عنه ابن كثير : ليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة.
ج ٢٢ ، ص : ١٠٣
على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم أفضل العبادات لأن اللّه تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليس كذلك. وقال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل اللّه حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم يسأل اللّه حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فإن اللّه تعالى يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما.
وأما الصلاة على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الصلاة فهي سنة مستحبة عند الجمهور ، فإن تركها فصلاته مجزية ، وواجبة لدى الشافعي ، فمن تركها فعليه الإعادة.
وأما الصلاة على غير الأنبياء : فإن كانت على سبيل التبعية مثل : اللهم صل على محمد وآله ، وأزواجه ، وذريته ، فهذا جائز بالإجماع ، فإن أفردوا فقال جماعة : يجوز ذلك لقوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ [الأحزاب ٣٣/ ٤٣] وقوله : أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ [البقرة ٢/ ١٥٧] وقوله : وَصَلِّ عَلَيْهِمْ [التوبة ٩/ ١٠٣] و

حديث الصحيحين عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال : « كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال :

« اللهم صلّ عليهم » فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللهم صلى على آل أبي أوفى »

و

حديث جابر أن امرأته قالت : يا رسول اللّه ، صلّ عليّ وعلى زوجي ، فقال :

« صلّى اللّه عليك وعلى زوجك » .

(١١١/٢٢)

و قال جمهور العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعارا للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : أبو بكر صلّى اللّه عليه ، أو قال عليّ صلّى اللّه عليه ، وإن كان المعنى صحيحا ، كما لا يقال : محمد عز وجل ، وإن كان عزيزا جليلا لأن هذا من شعار ذكر اللّه عز وجل. وأما ما ورد في الكتاب والسنة من ذلك ، فمحمول على الدعاء لهم ، ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته.

ج ٢٢ ، ص : ١٠٤

و الصحيح أن هذا المنع من الصلاة على غير الأنبياء مكروه كراهة تنزيه لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم.

والسلام هو في معنى الصلاة ، فلا يستعمل في الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : علي عليه السلام ، وهذا سواء في الأحياء والأموات. وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم ، أو السلام عليك أو عليكم ، وهذا مجمع عليه.

وقال النووي : إذا صلى على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما ، فلا يقول : صلّى اللّه عليه فقط ، ولا عليه السلام فقط لقوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً.

٣- إن من يؤذي اللّه ورسوله يستحق اللعنة والطرد من رحمة اللّه في الدنيا والآخرة ، وله عذاب محقر مؤلم في نار جهنم. وإيذاء اللّه : يكون بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ، كقول اليهود : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ [المائدة ٥/ ٦٤] ، وعُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣٠] ، وقول النصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبة ٩/ ٣٠] ، وقول المشركين : الملائكة بنات اللّه ، والأصنام شركاؤه.

و

جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « يقول اللّه عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر ، وأنا الدهر. أقلّب ليله ونهاره » ،

و

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال اللّه تبارك وتعالى :

« يؤذيني ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر ، أقلّب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما » .

هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبي هريرة في هذه الرواية. و

قد جاء مرفوعا عنه بلفظ آخر عند مسلم أيضا : « يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر ، وأنا الدهر أقلّب الليل

ج ٢٢ ، ص : ١٠٥

و النهار » .

وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا اللّه بنحت الصور وغيرها ، و

قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لعن اللّه المصوّرين » .

والطعن في تأمير أسامة بن زيد « ١ » لغزو « أبنى » قرية عند مؤتة أذية له صلّى اللّه عليه وسلّم ، من حيث إنه كان من الموالي ، ومن حيث إنه كان صغير السن لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ، ومات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد خروج هذا الجيش إلى ظاهر المدينة ، فنفّذه أبو بكر بعده صلّى اللّه عليه وسلّم.

جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعثا ، وأمّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن الناس في إمرته فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : « إن تطعنوا في إمرته ، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل ، وايم اللّه إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده » .

وفي هذا الحديث دلالة على جواز إمامة المولى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى ، ويؤكده أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قدّم سالما مولى أبي حذيفة على الصلاة بقباء ، فكان يؤمهم ، وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش.

٤- إن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حق بالأقوال أو الأفعال القبيحة بهتان وإثم واضح. ومن أنواع الأذى : التعيير بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه.

وقد ميّز اللّه بين أذاه سبحانه وأذى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وأذى المؤمنين ، فجعل الأول كفرا موجبا اللعن ، والثاني كبيرة ، فقال في أذى المؤمنين : فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً.

---

(١) كان أسامة رضي اللّه عنه يدعى : الحبّ ابن الحبّ ، وكان أسود شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيض. [.....]

ج ٢٢ ، ص : ١٠٦

آية جلباب النساء لستر العورة [سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٩]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩)

المفردات اللغوية :

يُدْنِينَ الإدناء : التقريب ، والمراد الإرخاء والسدل على الوجه والبدن ، وستر الزينة ، ولذا عدّي بعلى مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ جمع جلباب ، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق القميص ، أو الثوب الذي يستر جميع البدن. ومِنْ للتبعيض ، فإن المرأة تغطي بعض جلبابها وتتلفع ببعض ، والمراد : يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن إلا شيئا قليلا كعين واحدة ذلِكَ أي إدناء الجلابيب أَدْنى أقرب أَنْ يُعْرَفْنَ أي أقرب إلى أن يميزن بأنهن حرائر ، ويبعدن عن الإساءة فَلا يُؤْذَيْنَ أي فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف منهن لترك الستر رَحِيماً بعباده ، حيث يراعي مصالحهم بالأمر بالستر وغيره.

سبب النزول :

أخرج البخاري عن عائشة قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر ، فقال :

يا سودة ، أما واللّه ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ، قالت : فانكفأت راجعة ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في بيتي ، وإنه ليتعشى ، وفي يده عرق ، فدخلت ، فقالت : يا رسول اللّه ، إني خرجت لبعض حاجتي ، فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى اللّه إليه ، ثم رفع عنه ، وإن العرق في يده ما وضعه ، فقال : إنه قد أذن ، لكن أن تخرجن لحاجتكن.

ج ٢٢ ، ص : ١٠٧

و أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال : كان نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يخرجن بالليل لحاجتهن ، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن ، فيؤذين ، فشكوا ذلك ، فقيل للمنافقين ، فقالوا : إنما نفعله بالإماء ، فنزلت هذه الآية :

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ.

المناسبة :

بعد بيان أن من يؤذي مؤمنا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ، منعا وزجرا للمكلف من إيذاء المؤمن ، أمر اللّه تعالى المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم التي قد تؤدى إلى الإيذاء ، بالتستر وإرخاء الجلباب ، خلافا لما كان عليه الحال في الجاهلية من خروج النساء مكشوفات يتبعهن الزناة.

التفسير والبيان :

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ أي يطلب اللّه من رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم أن يأمر النساء المؤمنات وبخاصة أزواجه وبناته إذا خرجن من بيوتهن بأن يسدلن ويغطين من جلابيبهن ليتميزن عن الإماء. والجلباب : الرداء فوق الخمار. وهناك روايات في كيفية هذا التستر.

(١١٥/٢٢)

– قال ابن عباس : أمر اللّه نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطّين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة.

– وقال محمد بن سيرين فيما رواه ابن جرير عنه : سألت عبيدة السّلماني عن قول اللّه عز وجل : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ فغطّى وجهه ورأسه ، وأبرز عينه اليسرى.

ج ٢٢ ، ص : ١٠٨

– وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ خرج نساء الأنصار ، كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسنها.

والمقصود بالآية التي نزلت بعد استقرار الشريعة أن يكون الستر المأمور به زائدا على ما يجب من ستر العورة ، وهو أدب حسن يبعد المرأة عن مظان التهمة والريبة ، ويحميها من أذى الفساق.

واللباس الشرعي : هو الساتر جميع الجسد ، الذي لا يشف عما تحته ، فإن كانت المرأة في بيتها وأمام زوجها فلها أن تلبس ما تشاء.

ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أي إن إدناء الجلابيب أو التستر أقرب أن يعرفن أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ، فلا يتعرّض لهن بالأذى من أهل الفسق والريبة ، وكان اللّه غفورا لما سلف منهن من إهمال التستر ، ولمن امتثل أمره إذا أخل بالتستر خطأ بغير قصد ، واسع الرحمة بعباده حيث راعى مصالحهم وأرشدهم إلى هذا الأدب الحسن.

أما الإماء فلم يكلفهن الشرع بالتستر الكامل دفعا للحرج والمشقة في التقنع ، وتيسيرا لهن القيام بخدمات السادة. هذا رأي الجمهور. وقال أبو حيان :

والظاهر أن قوله : وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن- أي الإمام- من عموم النساء إلى دليل واضح « ١ » .

)

---

(١) البحر المحيط : ٧/ ٢٥٠

ج ٢٢ ، ص : ١٠٩

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١- الأمر بالتقنع والتستر عام يشمل جميع النساء ، وذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها ، إلا إذا كانت مع زوجها ، فلها أن تلبس ما شاءت لأن له أن يستمتع بها كيف شاء.

ومن المأمورات بالستر : زوجات الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وبناته. أما زوجاته فقال قتادة : مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن تسع : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وثلاث من سائر العرب : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية. وواحدة من بني هارون : صفية ، وأما أولاده : فكان للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم أولاد ذكور وإناث.

وأولاده الذكور : القاسم والطاهر وعبد اللّه والطيب أبناء خديجة.

وبناته : فاطمة الزهراء بنت خديجة زوجة علي رضي اللّه عنهما ، وزينب بنت خديجة زوجة ابن خالتها أبي العاص ، ورقيّة وأم كلثوم بنتا خديجة ، زوجتا عثمان ، كما تقدم سابقا.

ويلاحظ أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، لذا بدأ الأمر بالحجاب بنساء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وبناته.

٢- صورة إرخاء الجلباب : تغطية المرأة جميع جسدها إلا عين واحدة تبصر بها ، كما قال ابن عباس

وعبيدة السّلماني. وقال قتادة ، وابن عباس في رواية أخرى : أن تلويه فوق الجبين وتشدّه ، ثم تعطفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وقال الحسن البصري : تغطي نصف وجهها.

ج ٢٢ ، ص : ١١٠

٣- الحكمة من أمر الحرائر بالتستر هي ألا يختلطن بالإماء ، فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى معارضة ، مراعاة لرتبة الحرية ، فتنقطع الأطماع عنهن.

٤- وقوله : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

(١١٧/٢٢)

٥- في الطبقات الكبرى لابن سعد أن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن وإن لم يفعله السلف لأن فيه تمييزا لهم ، حتى يعرفوا ، فيعمل بأقوالهم.

هذا وقد استدل بالآية على لزوم تغطية وجه المرأة لأن العلماء والمفسرين كابن الجوزي والطبري وابن كثير وأبي حيان وأبي السعود والجصاص الرازي فسروا إدناء الجلباب بتغطية الوجوه والأبدان والشعور عن الأجانب ، أو عند الخروج لحاجة.

تهديد المنافقين وجزاؤهم [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

الإعراب :

مَلْعُونِينَ إما منصوب على الحال من واو لا يُجاوِرُونَكَ وإما منصوب على الذم ، أي أذمّ ملعونين.

ج ٢٢ ، ص : ١١١

سُنَّةَ اللَّهِ مصدر مؤكد.

البلاغة :

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ المرجفون هم من المنافقين ، ففيه ذكر الخاص بعد العام ، زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

ثُقِفُوا أُخِذُوا بينهما طباق.

وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا إتباع الفعل بالمصدر للتأكيد.

المفردات اللغوية :

(١١٨/٢٢)

لَئِنْ اللام لام القسم لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ عن نفاقهم وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه ، أو فسوق وعصيان وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ هم اليهود وغيرهم المشيعون للأكاذيب والأباطيل الملفقون أخبار السوء ونشرها بين جنود المسلمين قائلين : قد أتاكم العدو ، وسرايا المسلمين هزموا أو قتلوا أو غلبوا ، ونحو ذلك من الأخبار المتضمنة توهين جانب المسلمين ، من الإرجاف والرّجفان : الزلزلة والاضطراب الشديد.

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ لنسلطنك عليهم ولنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ يساكنونك ، والعطف ب ثُمَّ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أعظم ما يصيبهم مَلْعُونِينَ مبعدين عن الرحمة ، أي لا يجاورونك إلا ملعونين ثُقِفُوا وجدوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا أي أن هذا الحكم فيهم مأمور به.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا أي سنّ اللّه ذلك في الأمم الماضية ، وهو أن يقتل المنافقون الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا ، وخلوا : مضوا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أي لأنه لا يبدلها اللّه ، أو لا يقدر أحد أن يبدلها.

المناسبة :

هذا هو الصنف الثالث من المؤذين ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى حال المشرك الذي يؤذي اللّه ورسوله ، وأتبعه بذكر المجاهر الذي يؤذي المؤمنين ، ذكر حال المسرّ المبطن الذي يظهر الحق ، ويضمر الباطل ، وهو المنافق.

ثم ذكر مظاهر ثلاثة للنفاق في مواجهة الأقوام الثلاثة المؤذين : وهم المؤذون

ج ٢٢ ، ص : ١١٢

(١١٩/٢٢)

اللّه ، والمؤذون الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمؤذون المؤمنين ، وهذه المظاهر : هي المنافق الذي يؤذي اللّه سرا ، والذي في قلبه مرض الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه ، والمرجف الذي يؤذي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالإرجاف ، بقوله : غلب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وسيخرج من المدينة

وسيؤخذ أسيرا. وهذا كله من آثار النفاق العملي.

التفسير والبيان :

توعد اللّه المنافقين وحذرهم وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، فقال :

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا أي لئن لم يكف المنافقون عما هم عليه من النفاق ، والذين في قلوبهم ضعف إيمان وشك وريبة في أمر الدين ، وأهل الإرجاف في المدينة الذين يشيعون الأخبار الملفقة الكاذبة المتضمنة توهين جانب المسلمين ، وإظهار تفوق المشركين وغلبتهم عليهم ، لنسلطنك عليهم ونأمرنك بقتالهم وإجلائهم عن المدينة ، فلا يساكنونك فيها إلا زمنا قليلا.

وهذه الأوصاف الثلاثة : النفاق ، ومرض القلب ، والإرجاف هي لشيء واحد ، فإن من لوازم النفاق مرض القلب بضعف الإيمان ، والإرجاف بالفتنة وإشاعة أخبار السوء ، والمنافقون متصفون بهذه الأوصاف الثلاثة كلها.

وكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي ، سواء إبطان الكفر ، أو الفسوق والعصيان وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع ، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب ، وتضعف من معنويات الجماعة ، مما يسهل هزيمتهم ، وانتصار الأعداء عليهم.

ثم اللّه أبان تعالى جزاءهم في الدنيا والآخرة فقال :

مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا أي إنهم في حال مدة إقامتهم في المدينة فترة زمنية قليلة مطرودون من رحمة اللّه منبوذون ، وأينما وجدوا وأدركوا أخذوا لذلتهم وقلتهم ، وقتّلوا شر تقتيل ، فلن يجدوا أحدا يؤويهم ، بل ينكل بهم ويؤسرون ويقتّلون تقتيلا شديدا يستأصلهم.

وهذا دليل على أخذهم أسرى ، والأمر بقتلهم إذا ظلوا على النفاق ، وقد كان ذلك في أواخر حياة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم.

ثم أوضح اللّه تعالى أن هذا الجزاء عام في جميع المنافقين الغابرين واللاحقين فقال :

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أي إن هذا الحكم- وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم وتسليط المؤمنين عليهم وقهرهم- هو سنة اللّه وطريقته في المنافقين في كل زمان مضى ، إذا بقوا على نفاقهم وكفرهم ، ولم يرجعوا عما هم عليه ، وسنة اللّه في ذلك لا تبدل ولا تغير ،

لقيامها على الحكمة والمصلحة وصلاح الأمة ، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء على ممر التاريخ.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما هو آت :

١- اتفق أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة : النفاق ، ومرض القلب ، والإرجاف لشيء واحد كما تقدم ، أي إن المنافقين قد جمعوا هذه الأشياء « ١ » .

والآية دليل على تحريم الإيذاء بالإرجاف وعلى أن تتبع عورات النساء نفاق.

---

(١) قالوا : والواو مقحمة ، كما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

أي إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة.

ج ٢٢ ، ص : ١١٤

٢- إن جزاء هؤلاء المنافقين إن أصروا على نفاقهم تسليط أهل الحق والإيمان عليهم ، لاستئصالهم بالقتل ، وطردهم من البلاد ، فلا يساكنون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين في المدينة إلا مدة يسيرة حتى يهلكوا ، وطردهم من رحمة اللّه.

٣- إن هذا العقاب هو ما سنه اللّه عز وجل فيمن أرجف بالأنبياء ، وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل ، ولا تبديل ولا تغيير لسنة اللّه وحكمه ، فلا يغيره هو سبحانه ، ولا يستطيع أحد تغييره.

٤- لكن يجوز تأخير تطبيق هذا العقاب ، فليس هو على الفور ، قال القرطبي : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه- صلّى اللّه عليه وسلّم- حتى مات.

والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم « ١ » .

وقد تأخر بالفعل عقاب المنافقين إلى أواخر عهد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ،

فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « يا فلان قم فاخرج ، فإنك منافق ، ويا فلان قم »

فقام إخوانهم من المسلمين ، وتولوا إخراجهم من المسجد.

توعد الكفار بقرب الساعة وبيان نوع جزائهم [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٨]

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ

وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (٦٨)

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٢٤٨

ج ٢٢ ، ص : ١١٥

البلاغة :

يَقُولُونَ : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا تحسر وتفجع من طريق التمني.

سَعِيراً نَصِيراً كَبِيراً فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل ، لما فيها من وقع حسن.

المفردات اللغوية :

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ أي يسألك أهل مكة المشركون عن وقت يوم القيامة وحصوله استهزاء ، أو تعنتا ، أو امتحانا قُلْ : إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ أي لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا وَما يُدْرِيكَ ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أي وما يعلمك يا محمد ؟ أي أنت لا تعلمها ، فكيف بغيرك من الناس ؟ وربما توجد الساعة في زمن قريب. وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين.

لَعَنَ الْكافِرِينَ أبعدهم وطردهم عن رحمته وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً نارا شديدة الاتقاد والاستعار يدخلونها خالِدِينَ مقدرا خلودهم لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يواليهم ويحفظهم عنها وَلا نَصِيراً ينصرهم ويدفع العذاب عنهم يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ تصرّف من جهة إلى جهة أخرى ، كاللحم يشوى بالنار. يا لَيْتَنا يا : للتنبيه وَقالُوا أي الأتباع منهم سادَتَنا أي ملوكنا وقادتنا الذين لقنوهم الكفر ، وقرئ « ساداتنا » جمع الجمع ، للدلالة على الكثرة وَكُبَراءَنا علماءنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا أي أضلونا طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر باللّه ورسوله ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ مثلي ما أوتينا من العذاب لأنهم ضلوا وأضلوا وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً أي عذبهم وأبعدهم بلعن هو أشد اللعن وأعظمه ، وفوله كَبِيراً أي عدده ، أي عظيما.

المناسبة :

بعد بيان حال الفئات الثلاث في الدنيا (المشركين الذين يؤذون اللّه ورسوله ، والمجاهرين الذين يؤذون المؤمنين ، والمنافقين الذين يظهرون الحق ويضمرون الباطل) وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، ذكر حالهم في الآخرة ، فتوعدهم بقرب يوم القيامة ، وبين نوع عذابهم فيه.

ج ٢٢ ، ص : ١١٦

التفسير والبيان :

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ : إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ أي يتساءل الناس بكثرة عن وقت قيام القيامة ، فالمشركون يسألون عنها تهكما واستهزاء ، والمنافقون يسألون عنها تعنتا ، واليهود يسألون عنها امتحانا واختبارا ، فيجيبهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بتعليم اللّه له : إن علمها محصور باللّه تعالى ، لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا مرسلا ، فهو وحده الذي يعلم وقت حدوثها.

وأكد نفي علمها عن أحد غيره فقال :

وَما يُدْرِيكَ ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أي وما يعلمك بها ، فإنها من المغيبات المختصة باللّه تعالى ، وربما توجد في وقت قريب ، كما قال تعالى :

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر ٥٤/ ١] وقال عز وجل : أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل ١٦/ ١] و

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البخاري : « بعثت والساعة كهاتين » وأشار إلى السبابة والوسطى.

وفي هذا تهديد للمستعجلين ، وتوبيخ للمتعنتين ، كما تقدم. وكلمة قَرِيبٌ فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كما قال تعالى : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف ٧/ ٥٦] لذا لم يقل : لعل الساعة تكون قريبة.

ثم ذكر اللّه تعالى نوع جزاء الكفار الذي ينتظرهم يوم القيامة ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً أي إن اللّه تعالى طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ، وهيأ لهم في الآخرة نارا شديدة الاستعار والاتقاد.

(١٢٤/٢٢)

خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً أي إنهم في ذلك العذاب في نار جهنم مخلدون ماكثون فيه على الدوام ، ولا أمل لهم في النجاة منه ، فلا يجدون

ج ٢٢ ، ص : ١١٧

من يواليهم ويكون لهم مغيثا ومعينا ينقذهم مما هم فيه ، ولا من ينصرهم ويخلصهم منه. والمقصود أنه

لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب.

ثم ذكر وصف حال العذاب فقال :

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا أي إنهم يسحبون في النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، ويتقلبون فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى في النار ، وحينئذ يقولون ويتمنون : يا ليتنا لو كنا في الدار الدنيا ممن أطاعوا اللّه وأطاعوا الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وآمنوا بما جاء به ، لينجوا من العذاب كما نجا المؤمنون ، كما قال تعالى في آية أخرى : وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ : يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا [الفرقان ٢٥/ ٢٧] وقال أيضا مخبرا عنهم : رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ [الحجر ١٥/ ٢].

ثم اعتذروا بالتقليد ، فقال اللّه تعالى واصفا ذلك :

وَقالُوا : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا أي وقال الكافرون حينئذ وهم في عذاب جهنم : يا ربنا إنا أطعنا في الشرك والكفر رؤساءنا وقادتنا وعلماءنا ، وخالفنا الرسل ، واعتقدنا أنهم محقون فيما يقولون ، فأخطؤوا بنا سواء الطريق ، وأضلونا عن طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر باللّه ورسوله ، وعدم الإقرار بالوحدانية ، وإخلاص الطاعة للّه تعالى.

ثم صوّر تعالى ما يغلي في نفوسهم من الحقد الذي أدى بهم إلى طلب التشفي من القادة والأمراء والأشراف فقال :

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً أي يا ربنا عذّبهم مثل عذابنا مرتين : عذاب الكفر ، وعذاب الإضلال والإغواء إيانا ، وأبعدهم عن

رحمتك بعدا عظيما كثيرا شديد الموقع ، وهذا بمعنى

الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول اللّه ، علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ، قال : « قل : اللهم ، إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم »

يروى « كبيرا » و « كثيرا » وهما بمعنى واحد ، واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، قال ابن كثير : وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين ، أيتهما قرأ أحسن ، وليس له الجمع بينهما « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- لما توعد اللّه المؤذين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالعذاب ، سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكذيبا ، موهمين أنها لا تكون ، فأجابهم اللّه بأن علمها عند اللّه ، وليس في إخفائها عن رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ما يبطل نبوته ، فليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من اللّه عز وجل.

٢- إن وقت حصول الساعة (القيامة) في زمان قريب ، وقد أخفي وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها. وهذا إشارة إلى التخويف.

٣- إن اللّه عاقب الكافرين بالطرد والإبعاد من رحمته ، وبإعداد نار جهنم المستعرة الشديدة الاتقاد ، وهم فيها خالدون ماكثون على الدوام ، ولا شفيع لهم ينجيهم من عذاب اللّه والخلود فيه ، ويتقلبون في السعير ذات اليمين وذات الشمال كما يشوى اللحم في النار. وهذا يدل على أنهم ملعونون في الدنيا ، وملعونون عند اللّه ، وأن العذاب دائم مستمر لا أمل في الخروج منه.

(١٢٦/٢٢)

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٥١٩

ج ٢٢ ، ص : ١١٩

٤- يتمنى الكافرون في أثناء العذاب في نار جهنم أن لو كانوا أطاعوا اللّه وأطاعوا رسوله ، فآمنوا باللّه وحده لا شريك له ، وآمنوا برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم خاتم النبيين ، وأدوا فروض الطاعة والولاء ، وأخلصوا للّه في أعمالهم.

٥- إنهم يقولون أيضا على سبيل الأسف والاعتذار غير المفيد : إنا أطعنا القادة والأمراء والأشراف والعلماء بدل طاعة اللّه تعالى ، فبدّلنا الخير بالشر ، وأضلونا عن السبيل الصحيح وهو توحيد اللّه تعالى.

٦- لا يجدون بدا من المطالبة على سبيل التشفي والانتقام بمضاعفة العذاب على أولئك المضللين : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ، أي عذبهم مثلي ما تعذّبنا فإنهم ضلّوا وأضلوا.

بل إنهم يطلبون أيضا إبعادهم وطردهم من رحمة اللّه إبعادا كبيرا كثيرا لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار. وهذا في كلا الطلبين يتضمن معنى جديدا ، فإنهم طلبوا لهم ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم : ضِعْفَيْنِ وزيادة اللعن بقولهم : لَعْناً كَبِيراً.

تحريم الإيذاء الذي لا يؤدي إلى الكفر والأمر بالتقوى [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٩ الى ٧١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)

ج ٢٢ ، ص : ١٢٠

البلاغة :

لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى تشبيه مرسل مجمل ، ذكر فيه أداة الشبه ، وحذف وجه التشبيه.

المفردات اللغوية :

(١٢٧/٢٢)

لا تَكُونُوا مع نبيكم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى وهم اليهود ، كقولهم : ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، أو اتهامه بالفاحشة ، كما روي أن قارون حرض امرأة على قذف موسى بنفسها ، فعصمه اللّه وبرّأه مما قالوا فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا من كثير من التهم الباطلة ، منها أنه وضع ثوبه على حجر ليغتسل ، فطار الثوب مع الحجر ، حتى استقر أمام ملأ من بني إسرائيل ، فأدركه موسى ، فأخذ ثوبه ، فاستتر به ، فرأوه ولا أدرة به وهي نفخة في الخصية. وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ذا جاه وقدر وقربة ووجاهة عنده تعالى.

اتَّقُوا اللَّهَ في ارتكاب ما يكرهه ، فضلا عما يؤذي رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً قاصدا إلى الحق يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ويتقبلها وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي يسترها ويكفّرها بالاستقامة في القول والعمل وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أي في الأوامر والنواهي فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً نال غاية مطلوبة ، بالعيش في الدنيا حميدا وفي الآخرة سعيدا.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى أن من يؤذي اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم يلعن ويعذب ، مما يدل على أن إيذاءهما كفر ، أرشد المؤمنين إلى ضرورة الامتناع من إيذاء لا يؤدي إلى الكفر ، مثل عدم الرضا بقسمة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الفيء بين أصحابه.

أما إيذاء موسى فمختلف فيه ، قال بعضهم : هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب في بدنه ، أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال :

قال لموسى قومه : إنه آدر ، فخرج ذات يوم ليغتسل ، فوضع ثيابه على حجر ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، فخرج موسى يتبعها عريانا ، حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل ، فرأوه وليس بآدر.

ج ٢٢ ، ص : ١٢١

و قال بعضهم : إن قارون تآمر مع امرأة أن تقول عند بني إسرائيل : إن موسى زنى بي ، فلما جمع قارون القوم ، والمرأة حاضرة ، ألقى اللّه في قلبها أنها صدقت ، ولم تقل ما لقّنت.

قال الرازي : وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف ، وهو أنهم قالوا له :

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا [المائدة ٥/ ٢٤] وقولهم : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً [البقرة ٢/ ٥٥] وقولهم : لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ [البقرة ٢/ ٦١] إلى غير ذلك ، فقال للمؤمنين : لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم إلى القتال ، أي لا تقولوا : فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا [المائدة ٥/ ٢٤] ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه ،

« و إذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم » « ١ » .

التفسير والبيان :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا ، وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً أي يا أيها المؤمنون باللّه ورسوله ، لا تؤذوا الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بالقول أو العمل ، مما يكرهه ولا يحبه ، ولا تكونوا مثل الذين آذوا موسى ، كتعييبه كذبا وزورا ، أو تعجيزه برؤية اللّه جهرا ، أو تركه يقاتل وحده ، أو مطالبته بأنواع من الطعام ، فبرأه اللّه مما قالوا من الكذب والزور ، وكان ذا قدر وجاه ومنزلة عند ربه ، قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند اللّه ، وقال غيره من السلف : لم يسأل اللّه شيئا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل.

ومن مظاهر إيذاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

ما رواه البخاري ومسلم وأحمد عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : « قسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ذات يوم قسما ، فقال

---

(١)

تفسير الرازي : ٢٥/ ٢٣٣ والجملة الأخيرة حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ « و ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » .

ج ٢٢ ، ص : ١٢٢

رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه ، فاحمرّ وجهه ، ثم قال :

رحمة اللّه على موسى ، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

و

روى أحمد عن ابن مسعود أيضا قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لأصحابه : « لا يبلّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم ، وأنا سليم الصدر » .

وأما إيذاء موسى فالظاهر أنه كان بالطعن في تصرفاته ، لا بتعييبه في بدنه ، بدليل الحديث الأول عن ابن مسعود.

وبعد نهي المؤمنين عن إيذاء الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بالقول أو بالفعل ، أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر عنهم من الأقوال والأفعال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى اللّه ، ومن قال الصدق قالا قولا سديدا ، فقال :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً أي يا أيها المؤمنون باللّه ورسوله ، اتقوا اللّه في كل الأمور باجتناب معاصيه ، والتزام أوامره وعبادته عبادة من كأنه يراه ، وقولوا القول الصواب والحق في كل أموركم ، ويدخل فيه قول : لا إله إلا اللّه ، والإصلاح بين الناس ، كما يدخل فيه القول في شأن زيد وزينب ، ولا تنسبوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى ما لا يحل.

ثم وعدهم على الأمرين : الخير في الأفعال والصدق في الأقوال بأمرين فقال :

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي وعدهم على فعل الخيرات بإصلاح الأعمال ، أي بقبولها ، وجعل صاحبها في الجنة خالدا فيها أبدا ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب الماضية ، وأما ما قد يقع منهم في المستقبل فيلهمهم التوبة منها.

ج ٢٢ ، ص : ١٢٣

(١٣٠/٢٢)

ثم حرضهم على الطاعة ، فقال :

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً أي ومن يطع أوامر اللّه والرسول ويجتنب النواهي ، فقد نجا من نار الجحيم ، وصار إلى النعيم المقيم.

وبالرغم من أن طاعة اللّه هي طاعة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإنه تعالى جمع بينهما لبيان أن المطيع اتخذ عند اللّه عهدا ، وعند الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يدا.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- لم تقتصر عناية القرآن وتحذيره على فئة من الناس دون فئة ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى المنافقين

والكفار الذين آذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين ، حذّر المؤمنين من التعرّض للإيذاء ، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في إيذائهم نبيهم موسى عليه السلام.

ومظاهر إيذاء محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وموسى عليه السلام مختلف فيها ، فقيل : إن أذيّتهم محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم قولهم : زيد بن محمد ، أو أنه قسم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه ،

فغضب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : « رحم اللّه موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

وأما أذية موسى عليه السلام ، فقال ابن عباس وجماعة : هي اتهامه بالأدرة كما تقدم. و

قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه : آذوا موسى بأن قالوا : قتل هارون ، مع أنه مات في جبل في سيناء بعد خروج موسى وهارون من التيه (قلب شبه جزيرة طور سينا).

وقيل : إن أذية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون ، وقيل بغير ذلك. قال القرطبي : والصحيح الأول ، ويحتمل أن فعلوا كل ذلك ، فبرّأه اللّه من جميع ذلك.

ج ٢٢ ، ص : ١٢٤

و قد استدل بقصة اغتسال موسى عليه السلام على جواز وضع ثوبه على الحجر ، ودخوله في الماء عريانا في منطقة معزولة بعيدة عن الناس ، وهو مذهب الجمهور ، ومنعه ابن أبي ليلى ، واحتج بحديث لم يصح.

(١٣١/٢٢)

٢- كان موسى عليه السلام عند اللّه وجيها ، أي عظيم القدر ، رفيع المنزلة ، ويروى أنه كان إذا سأل اللّه شيئا أعطاه إياه.

٣- أوجب اللّه تعالى الخير في الأفعال أو التقوى ، والصدق في الأقوال وهو ما يقابل الأذى المنهي عنه بالنسبة للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين.

٤- وعد اللّه تعالى أنه يجازي على القول السديد ، وتقوى اللّه بإصلاح الأعمال (أي قبولها وجعلها صالحة لا فاسدة بتوفيقهم إليها) وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة.

٥- من يطع اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما أمر به ونهى عنه ، فقد نجا من النار وفاز بالجنة ، أو وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي.

أمانة التكاليف وأثرها في تصنيف المكلفين [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)

ج ٢٢ ، ص : ١٢٥

الإعراب :

وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً نصب رَحِيماً إما على الحال من ضمير غفور وهو العامل فيه ، وإما صفة لغفور ، وإما خبرا بعد خبر.

البلاغة :

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ استعارة تمثيلية ، مثّل الأمانة بما فيها من ثقل وشدة متناهية بشيء لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبت حمله وأشفقت منه.

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

(١٣٢/٢٢)

و بين بدء السورة : وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وبين ختمها : لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ ما يسمى في علم البديع : « رد العجز على الصدر » فالبدء في ذم المنافقين ، والختام لبيان سوء عاقبتهم.

المفردات اللغوية :

عَرَضْنَا أي عرضها على هذه الأجرام خلافا لما في الطبيعة الْأَمانَةَ أي التكاليف الشرعية كالصلوات وغيرها مما في فعلها من الثواب ، وتركها من العقاب ، وسماها أمانة لأنها واجبة الأداء عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها المعنى أن الأمانة لعظمة شأنها ، بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لامتنعت من حملها ، وأشفقت منه وخافت وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ آدم أبو البشر بعد عرضها عليه ، مع ضعف بنيته ورخاوة قوته ، فإن أدى حقوقها فاز بخير الدارين إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا أي إن الإنسان حينما التزم بحقوق الأمانة كان ظلوما لنفسه بما حمله ، جهولا به ، وهذا وصف لجنس الإنسان باعتبار الأغلب.

والمقصود بالآية تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً.

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ اللام متعلقة بعرضنا المترتب عليه حمل آدم ، فهي لام الصيرورة لأنه لم يحملها لأن يعذب ، لكنه حملها ، فآل الأمر إلى أن يعذب من خان الأمانة وكذب الرسل ونقض الميثاق ممن نافق وأشرك ، ويتوب على من آمن ، الذين أدوا ما حملوه من الأمانات من العبادة وغيرها.

ج ٢٢ ، ص : ١٢٦

و قال الزمخشري : اللام لام التعليل على طريق المجاز لأن نتيجة حمل الأمانة العذاب ، كما أن التأديب في قولك : « ضربته للتأديب » نتيجة الضرب. وقد جاراه القرطبي في ذلك.

(١٣٣/٢٢)

الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ المضيعين الأمانة. وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ المؤدين الأمانة. والوعد بالتوبة دليل على أن قوله : إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا موجه إلى حال جبلة الإنسان فهو ظلوم لنفسه جهول بربه.

وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً غفورا للمؤمنين رحيما بهم ، حيث تاب على ما فرطوا من ذنوب ، وأثاب على طاعاتهم.

المناسبة :

بعد بيان أن من أطاع اللّه ورسوله فاز فوزا عظيما ، أبان اللّه تعالى الوسيلة التي تنال بها الطاعة وهي فعل التكاليف الشرعية ، وأن تحصيلها شاقّ على النفوس يحتاج إلى مكابدة وجهاد ، ثم ذكر أن ما يحدث من صدور الطاعة من المكلفين ، وإباء القبول ، والامتناع من الالتزام إنما هو باختيار الإنسان دون جبر ولا إكراه.

التفسير والبيان :

يبين اللّه تعالى خطورة التكاليف وثقلها ، وأنها عظيمة ناءت بحملها السموات والأرض والجبال ، فقال :

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ ، إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا

أي إنا عرضنا التكاليف كلها من فرائض وطاعات على هذه الأجرام العظام ، فلم تطقها وأبت تحمل مسئوليتها ، وخافت من حملها ، لو فرض أنها ذات شعور وإدراك ، ولكن كلّف بها الإنسان ، فتحملها مع ضعفه ، وهو في ذلك ظلوم لنفسه ، جهول لقدر ما تحمله.

قال ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة والفرائض ، عرضها عليهم قبل أن

ج ٢٢ ، ص : ١٢٧

(١٣٤/٢٢)

يعرضها على آدم ، فلم يطقنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى : وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا.

والمراد جنس الإنسان بحسب الأغلب.

فالأمانة تشمل الطاعات والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب ، وبتضييعها العقاب ، وتشمل أمانة الأموال كالودائع وغيرها مما لا بيّنة عليه ، وغسل الجنابة أمانة ، والفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرّجل أمانة.

وقد حملها الإنسان بسبب جهله بما فيها ، وعلم هذه الأجرام ، وهو مع ذلك يتأثر بالانفعالات النفسية وبالشهوات الذاتية ، ولا يتدبر عواقب الأمور ، وكانت هذه التكاليف وسيلة للحد من سلطان الشهوة ، وتأثير النوازع ، والقوى الداخلية في نفسه.

ثم بيّن اللّه تعالى نتائج تلك التكاليف بين المكلفين ، فقال :

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أي إن عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة وهي التكاليف أن ينقسم الناس فريقين : فريق المنافقين والمنافقات (و هم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله) والمشركين والمشركات (و هم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك باللّه ومخالفة الرسل) الذين يعذبهم اللّه لخيانتهم الأمانة ، وتكذيب الرسل ، ونقض الميثاق ، وفريق المؤمنين والمؤمنات (و هم الذين آمنوا باللّه وملائكته وكتبه ورسله ، العاملين بطاعته)

ج ٢٢ ، ص : ١٢٨

(١٣٥/٢٢)

الذين يتوب اللّه عليهم إذا تابوا ، وأدوا ما حملوه من الأمانات من العبادة وغيرها لأن اللّه غفور لذنوبهم ، كثير الرحمة بهم.

والآية دليل على أن اللّه أعلم الإنسان بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ، ثم عرض عليه الأمانة ، فقبلها مع ظلمه وجهله ، لعلمه بما يجبرها من الغفران والرحمة. والمعنى أن هناك مرضا جبليا في الإنسان ، وأن هناك علاجا ودواء لهذا المرض وهو سعة المغفرة وكثرة الرحمة الإلهية إذا تعرض الإنسان لهما في الجملة بالتوبة والإنابة والطاعة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- ختمت السورة المشتملة على الأحكام بأمر إجمالي هو وجوب التزام الأوامر الإلهية ، والآداب الشرعية السامية ، والمواعظ الرائعة.

٢- الأمانة تشمل جميل تكاليف الشرع ووظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور ، ومنها الفرائض التي ائتمن اللّه عليها العباد ، وليست التكاليف سهلة هينة ، وإنما هي من عظائم الأمور التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال.

روى الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « قال اللّه تعالى لآدم : يا آدم ، إني عرضت الأمانة على السموات والأرض ، فلم تطقها ، فهل أنت حاملها بما فيها ؟ فقال : وما فيها يا رب ؟ قال : إن حملتها أجرت ، وإن ضيّعتها عذّبت ، فاحتملها بما فيها ، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر ، حتى أخرجه الشيطان منها » .

٣- العرض على السموات والأرض والجبال إما مجاز ، وإما حقيقة ، وإما

ج ٢٢ ، ص : ١٢٩

ضرب مثل ، فقام قوم : المعنى : إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ، فأبين أن يحملن وزرها ، مثل :

(١٣٦/٢٢)

وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف ١٢/ ٨٢] أي أهلها. فهذا مجاز مرسل. وقال قوم : إن الآية من المجاز- بنحو آخر- أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت. وهذا كما تقول :

عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنه.

وقال آخرون : الحسن وغيره : العرض حقيقة أي أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب ، أي أظهر لهن ذلك ، فلم يحملن وزرها ، وأشفقت ، وقالت : لا أبتغي ثوابا ولا عقابا ، وكل يقول :

هذا أمر لا نطيقه ، ونحن له سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخّرن له. ولكن قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلا بد من تقدير الحياة ، على القول الأخير. وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام.

وقال القفّال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أي إن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أي إن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلّفه الإنسان ، وهو ظلوم جهول

لو عقل.

وهذا كقوله : لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ [الحشر ٥٩/ ٢١] ثم قال :

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ (الآية نفسها) قال القفال : فإذا تقرر أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه.

وعلى أي حال ، المقصود بالآية بيان عظمة التكاليف وثقلها وتنبيه الإنسان

ج ٢٢ ، ص : ١٣٠

لخطورة التبعة (أو المسؤولية) عنها ، فلا يفرط فيها ، وهو بين خيارين : إما العصيان فالعذاب ، وإما الطاعة فالثواب ، واللّه غفور رحيم.

(١٣٧/٢٢)

٤- لقد تجشم الإنسان تحمل مسئولية الأمانة ، والتزم القيام بحقها ، وهو في ذلك ظلوم لنفسه أو للأمانة ، جهول بقدر ما دخل فيه أو جهول بربه.

والإنسان : هو النوع كله ، مراعاة لعموم الأمانة ، فيشمل الكافر والمنافق ، والعاصي ، والمؤمن. وقيل : المراد بالإنسان : آدم الذي تحمّل الأمانة.

٥- اللام في قوله تعالى : لِيُعَذِّبَ المتعلقة ب عَرَضْنَا أو ب حَمَلَهَا سواء قلنا : إنها لام الصيرورة أو لام التعليل ، فإن النتيجة انقسام الناس إزاء التكاليف إلى قسمين : عصاة وطائعين ، فقد حمل الإنسان الأمانة ، ثم كانت حالته أمامها ليست واحدة ، فهناك قوم التزموا القيام بحقها ، فأثابهم اللّه الجنة ، وهناك آخرون أهملوا القيام بحقها ، فعذبهم اللّه بالنار.

وإذا تعلقت اللام ب عَرَضْنَا يكون المعنى على أن اللام للتعليل :

عرضنا الأمانة على الجميع ، ثم قلدناها الإنسان ، ليظهر شرك المشرك ، ونفاق المنافق ، ليعذبهم اللّه ، وإيمان المؤمن ليثيبه اللّه. وإذا تعلقت ب حَمَلَهَا يكون المعنى على جعل اللام للتعليل : حملها ليعذّب العاصي ، ويثيب المطيع ، لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة.

وإذا كانت اللام لام الصيرورة يكون المعنى : حملها الإنسان ، فآل الأمر إلى أن يعذب من خان الأمانة ، ويتوب على من أداها حقها.

ج ٢٢ ، ص : ١٣١

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة سبأ

مكيّة ، وهي أربع وخمسون آية.

تسميتها :

سميت سورة سبأ للتذكير فيها بقصة سبأ ، وهم ملوك اليمن ، في قوله تعالى : لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتانِ .. [١٥- ١٦] فقد أنعم اللّه عليهم بالحدائق الغناء والأراضي الخصبة ، فلما كفروا النعمة ، أبادهم بسيل العرم.

مناسبتها لما قبلها :

(١٣٨/٢٢)

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة : الأول- أن هذه السورة افتتحت ببيان صفات الملك التام والقدرة الشاملة التي تناسب ختام السورة السابقة في تطبيق العذاب وتقديم الثواب : لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ....

الثاني- كان آخر الأحزاب : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ومطلع سبأ في فاصلة الآية الثانية : وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.

الثالث- في سورة الأحزاب سأل الكفار عن الساعة استهزاء ، وفي هذه السورة حكى القرآن عنهم إنكارها صراحة.

مشتملاتها :

تضمنت سورة سبأ المكية محور ما تدور عليه بقية السور المكية في إثبات

ج ٢٢ ، ص : ١٣٢

العقيدة : من توحيد اللّه ، والنبوة ، والبعث.

فابتدأت بحمد اللّه تعالى والثناء عليه لأنه خالق السموات والأرض ، ومرسل الملائكة رسلا بمهام عديدة إلى البشر.

ثم أعقب ذلك الحديث عن إنكار المشركين البعث بعد الموت ، وإثباته بالقسم العظيم باللّه تعالى من النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم على وقوع المعاد : قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ. وذكرت اتهامهم الباطل للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأنه مفتر أو مجنون ، ثم أكدت ثبوت قدرة اللّه تعالى بخسف الأرض وإسقاط السماء.

وتلاها تعداد النعم التي أنعم اللّه بها على داود وسليمان ، وأهل سبأ كتسخير الطير والجبال للتسبيح مع داود ، وتسخير الريح لسليمان عليهما السلام ، وجعل الحدائق والثمار الطيبة لملوك اليمن أهل سبأ.

ثم تحدثت السورة عن أدلة وجود اللّه ووحدانيته ، وتفنيد مزاعم المشركين في عبادة الأوثان ، وإظهار

صورة من الجدل العنيف بين الأتباع الكفرة والمتبوعين المخذولين يوم القيامة ، وإلقاء كل من الفريقين التبعة على الآخر.

(١٣٩/٢٢)

و أبانت عموم الرسالة الإسلامية- المحمدية لجميع الناس ، وهددت بالحساب العسير والجزاء الأليم يوم القيامة ، وأن المترفين في كل زمان هم أعداء الرسل لاغترارهم بأموالهم وأولادهم ، وأن اللّه راض عنهم فلا يعذبهم ، وأن اللّه سيسأل الملائكة يوم الحشر ، هل طلبوا من المشركين عبادتهم ؟ .

تم حكت السورة إنكار المشركين للقرآن وأنه في زعمهم مفترى ليس بوحي ، ووعظتهم بما عوقب به من قبلهم ، وطالبتهم بالتأمل والتفكر في أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بمفتر ولا مجنون ، وإنما هو نذير بين يدي عذاب شديد ، وأنه لا يطلب أجرا على دعوته ، بل أجره على ربه.

ج ٢٢ ، ص : ١٣٣

و ختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان باللّه الواحد الأحد ، قبل أن يأتي يوم القيامة ، فيطلبون العودة إلى دار الدنيا للإيمان بالقرآن وبالرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، والإتيان بصالح الأعمال ، ولكن يحال بينهم وبين ما يشتهون ، لفوات الأوان.

صفات الملك والقدرة والعلم للّه تعالى [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)

يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

الإعراب :

الَّذِي لَهُ ... إما في موضع جر على النعت أو البدل ، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أو في موضع نصب بمعنى أعني.

يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من اسم اللّه ، ويحتمل أن يكون مستأنفا لا موضع له من الإعراب.

البلاغة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ تعريف الطرفين لإفادة الحصر ، أي لا يستحق الحمد الكامل إلا اللّه.

(١٤٠/٢٢)

يَلِجُ يَخْرُجُ يَنْزِلُ يَعْرُجُ بين كل منهما طباق.

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ صيغة فعيل وفعول للمبالغة.

المفردات اللغوية :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمْدُ هو الثناء على اللّه بما هو أهله ، أو الثناء على اللّه بجميل صفاته

ج ٢٢ ، ص : ١٣٤

و أفعاله لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وخلقا ونعمة. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ للّه الحمد في الدنيا لكمال قدرته وتمام نعمته ، وله أيضا حمد عباده في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة ، للسبب السابق ذاته وَهُوَ الْحَكِيمُ في فعله وهو الذي أحكم أمر الدارين ودبره بمقتضى الحكمة الْخَبِيرُ بخلقه في الدارين ، وهو الذي يعلم بواطن الأمور.

يَلِجُ فِي الْأَرْضِ يدخل فيها كالماء ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات وَما يَخْرُجُ مِنْها كالزروع والنباتات والحيوان والفلزات وماء العيون وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والكتب والمقادير وَما يَعْرُجُ فِيها يصعد فيها من أعمال العباد وغيرها من الملائكة والأبخرة والأدخنة الرَّحِيمُ بعباده الْغَفُورُ لذنوبهم.

التفسير والبيان :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي إن الحمد المطلق الكامل للّه مالك السموات والأرض وما فيهما ، والمتصرف بشؤونهما ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وحمده على النعم التي أنعم بها على خلقه ، والمعنى : إن المستحق للحمد والثناء والشكر هو اللّه الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصرفا بما يشاء ، فهو صاحب القدرة الكاملة ، والنعمة التامة.

وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ أي للّه الحمد في الآخرة كالحمد في الدنيا لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، كما قال في آية أخرى : وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [القصص ٢٨/ ٧٠]. وقال تعالى في حكاية حمد أهل الجنة : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ [الزمر ٣٩/ ٧٤]. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ [فاطر ٣٥/ ٣٤- ٣٥].

وإذا كان هو المحمود على طول المدى ، فهو المعبود أبدا.

ج ٢٢ ، ص : ١٣٥

وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ أي واللّه هو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، يدبر شؤون خلقه على

مقتضى الحكمة ، والخبير ببواطن الأمور ، الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شي ء. قال مالك : خبير بخلقه حكيم بأمره.

يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها أي يعلم ما يدخل في الأرض كالغيث الذي ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، ويعلم ما يخرج من الأرض ، كالحيوان والنبات والماء والفلزّات.

وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها أي ما ينزل من السماء كالملائكة والكتب والأرزاق والأمطار والصواعق ، وما يعرج فيها كالملائكة وأعمال العباد والغازات والأدخنة ووسائل النقل الجوي والطيور.

وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ أي واللّه هو الرحيم بعباده ، فلا يعاجل عصيانهم بالعقوبة ، الغفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

(١٤٢/٢٢)

١- اللّه تعالى هو المستحق لجميع المحامد والحمد : الشكر على النعمة ، ويكون الثناء على اللّه بما هو أهله ، فالحمد الكامل والثناء الشامل كله للّه إذ النعم كلها منه ، وهو مالك السموات والأرض وخالقهما والمتصرف فيهما بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة.

٢- اللّه تعالى هو المحمود في الدنيا والآخرة لأنه المالك للأولى والثانية ، وهو الحكيم في فعله ، الخبير بأمر خلقه.

٣- اللّه عالم بكل شيء من الظواهر والخوافي ، يعلم ما يدخل في الأرض من قطر وغيره من الكنوز والدفائن والأموات ، ويعلم ما يخرج منها من نبات

ج ٢٢ ، ص : ١٣٦

و غيره ، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات ، وما يعرج فيها من الملائكة وأعمال العباد ، وهو الرحيم بعباده الغفور لذنوب التائبين منهم.

(١٤٣/٢٢)

و هذا ويلاحظ كما ذكر الرازي أن السور المفتتحة بالحمد خمس سور ، سورتان منها في النصف الأول : وهما الأنعام والكهف ، وسورتان في الأخير : وهما هذه السورة وسورة فاطر (سورة الملائكة) ،

والفاتحة التي تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير ، والحكمة فيها أن نعم اللّه منحصرة في قسمين : نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، ففي سورة الأنعام إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ [١] وفي سورة الكهف إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ، قَيِّماً [١- ٢] فإن بالشرائع البقاء. ثم في هذه السورة الْحَمْدُ لِلَّهِ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني في قوله : وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وفي سورة فاطر إشارة إلى نعمة الإبقاء الثاني وهو في يوم القيامة لأن الملائكة لا تكون رسلا إلا يوم القيامة يرسلهم اللّه مسلّمين ، كما قال تعالى : وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ [الأنبياء ٢١/ ١٠٣]. وفي فاتحة الكتاب إشارة إلى النعمة العاجلة بقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ [١] وإلى النعمة الآجلة بقوله : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [٤] لذا قرئت في الافتتاح والاختتام.

إنكار الكفار الساعة وموقف الناس من آيات اللّه وجزاؤهم [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣ الى ٦]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

ج ٢٢ ، ص : ١٣٧

الإعراب :

لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ عالِمِ بالجر : نعت لقوله تعالى : وَرَبِّي أو بدل منه ، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره : لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره :

هو عالم الغيب. وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ .. مرفوعان بالابتداء.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ .. اللام تتعلق بقوله : لا يَعْزُبُ. وأَلِيمٌ بالجر والرفع صفة لرجز أو عذاب.

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إما معطوف على لِيَجْزِيَ أو مستأنف.

هُوَ الْحَقَّ مفعول ثان ل يَرَى وهو : ضمير فصل ، ومن قرأ بالرفع جعل هُوَ مبتدأ ، والْحَقَّ خبره ، والجملة ثاني مفعولي يَرَى.

البلاغة :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ووَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ بينهما ما يسمى بالمقابلة ،

فالمغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين ، والعذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

المفردات اللغوية :

(١٤٥/٢٢)

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ القيامة والبعث ، وهذا منهم إنكار لمجيئها ، أو استبطاء استهزاء بالوعد به قُلْ : بَلى رد لكلامهم وإثبات لما نفوه « ١ » وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ

---

(١) « بلى » : لها موضعان : الأول- أن تكون ردّا لنفي يقع قبلها ، خبرا كان أو نهيا ، فينتفي بها ما قبلها من النفي وتحققه ، كما هنا. والثاني- أن تقع جوابا لاستفهام دخل على نفي تحققه ، فيصير معناها التصديق لما قبلها ، مثل : ألم أكن صديقك ؟ فيقول الرادّ : بلى ، إذا صدقه ، والمعنى : بلى كنت صديقي ، فهي إذن لإثبات المنفي. وأما « نعم » : فهي في الأصل : تصديق لما قبلها في كل كلام وإيجاب له ، وعدة ، مثل : هل تحسن إلي ؟ فيقول الرادّ : نعم ، فيعده بالإحسان ، فإن أراد ترك الإحسان قال : لا ، ولا يحسن هنا : بلى.

و « لا » نفي لما قبلها وردّ له. وأما « كلا » فتكون بمعنى « لا » ومعناها الرد والإنكار لما تقدم قبلها من الكلام وذلك في حال الوقف عليها. وقد تأتي بمعنى « حقّا » وهو مذهب الكسائي خلافا لحذّاق النحويين. وفي حال الابتداء ب « كلا » تكون بمعنى « ألا » مثل كَلَّا ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (شرح « كلا ، وبلى ، ونعم » للعلامة مكي بن أبي طالبالقيسي).

ج ٢٢ ، ص : ١٣٨

تكرار لإثباته ، مؤكدا بالقسم ، مقررا وصف المقسم به بصفات تثبت إمكانه ، وتنفي استبعاده لا يَعْزُبُ عَنْهُ لا يغيب عنه مِثْقالُ ذَرَّةٍ وزن أو مقدار أصغر نملة وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ المثقال وَلا أَكْبَرُ منه إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أي إلا وهو مثبت في كتاب بيّن واضح وهو اللوح المحفوظ.

وقوله : وَلا أَصْغَرُ إلخ جملة مؤكدة لنفي العزوب.

(١٤٦/٢٢)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. علة لقوله : لَتَأْتِيَنَّكُمْ وبيان لما يقتضي إتيانها ، أي إن إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب والكافرين بالعقاب مَغْفِرَةٌ لذنوبهم ، أي محوها من قبل اللّه تعالى بسبب غلبة إيمانهم وأعمالهم الصالحة على ذنوبهم وَرِزْقٌ كَرِيمٌ حسن لا تعب فيه ولا منّة عليه ، وهو ما يقيض لهم من ملاذ

الأطعمة وغيرها في الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح تفضلا من اللّه تعالى عليهم.
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا بإبطال آياتنا المنزلة على الرسل ، وتزهيد الناس فيها مُعاجِزِينَ مسابقين لنا يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، لاعتقادهم ألا بعث ولا عقاب ، وقرئ : معجّزين ، أي مثبّطين عن الإيمان بآيات القرآن من أراده رِجْزٍ سيء العذاب أو عذاب شديد أَلِيمٌ مؤلم.
وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أي ويعلم أولو العلم من الصحابة ومشايعوهم من الأمة ، أو من مسلمي أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام وأصحابه الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ القرآن هُوَ الْحَقَّ الثابت الصحيح وغيره باطل وَيَهْدِي إِلى صِراطِ أي يوصل إلى طريق اللّه ودين اللّه وهو التوحيد والتقوى الْعَزِيزِ ذي العزة الذي يغلب ولا يغلب الْحَمِيدِ المحمود في جميع شؤونه.
ج ٢٢ ، ص : ١٣٩
المناسبة :
بعد بيان أن للّه الحمد في الدنيا والآخرة ، أبان اللّه تعالى أن الكفار ينكرون حدوث القيامة أشد الإنكار ، أو يستعجلون بها استهزاء بوعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بها ، ثم أوضح تعالى أن الناس من آيات القرآن فريقان : فريق المنكرين الجاحدين المعاندين الساعين في إبطالها ، وجزاؤهم العذاب الأليم ، وفريق العالمين المؤمنين بأنها الحق الصراح الأكيد الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.
التفسير والبيان :

(١٤٧/٢٢)

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ أي وقال الكافرون بالرسالات السماوية إنكارا منهم أو استعجالا على سبيل الاستهزاء بالوعد : لن يكون هناك قيامة ولا بعث ولا حساب. وهم بذلك جاحدون الأخبار الواردة من ربهم بحدوث الساعة ، والتي تضمنتها كتبه وما فيها من الحجج والبينات.
فرد اللّه عليهم مؤكدا بطلان اعتقادهم :
قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ أي قل لهم أيها النبي : بلى واللّه إنها لآتية لا ريب فيها. ويلاحظ في ذلك إثبات وجودها ونفي مزاعمهم ، مؤكدا ذلك بالقسم باللّه وبالتأكيد في الفعل باللام ونون التوكيد.
وهذه الآية- كما ذكر ابن كثير- إحدى آيات ثلاث أمر اللّه تعالى فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، للرد على المنكرين من أهل الشرك والنفاق والعناد ، فإحداهن في سورة يونس : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ : إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [٥٣] والثانية هذه : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ والثالثة في سورة التغابن : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ ، وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [٧].

ج ٢٢ ، ص : ١٤٠

ثم وصف اللّه تعالى نفسه بصفة العلم الشامل الدال على إمكان البعث ، فقال :

(١٤٨/٢٢)

عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أي إن اللّه تعالى القادر على البعث لا يغيب عنه ولا يستتر عليه شيء من الموجودات ولو كان بقدر أصغر نملة ، ولا أصغر من المثقال ولا أكبر منه إلا وهو محفوظ ومثبت في كتاب بيّن وهو اللوح المحفوظ. فالعلم بالغيبيات موجود ، فاقتضى إمكان البعث.

ثم بيّن اللّه تعالى حكمته في إعادة الأجساد وقيام الساعة بقوله :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أي إن يبعثهم من قبورهم في البر والبحر وأي مكان يوم القيامة ليثيب المؤمنين باللّه ورسله واليوم الآخر ، الذين عملوا صالح الأعمال وهو ما أمروا به ، واجتنبوا ما نهوا عنه ، وأولئك لهم مغفرة أي محو لذنوبهم ، ونعيم في الجنة لا تعب ولا منة فيه ، والمقصود أن إثابة المؤمنين حق وعدل.

هذا هو فريق المؤمنين ، والفريق الثاني :

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ أي إن الكفار المعاندين الذين حاولوا إبطال آيات القرآن وأدلة إثبات البعث ، ظانين أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، لهم عذاب شديد في نار جهنم هو أسوأ العذاب وأشده ، وهو مؤلم شديد الألم. وهذا التعذيب أيضا حق وعدل ، حتى لا يتساوى المسيء مع المحسن ، كما قال تعالى : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [سورة ص ٣٨/ ٢٨] وقال سبحانه : لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ [الحشر ٥٩/ ٢٠].

ج ٢٢ ، ص : ١٤١

(١٤٩/٢٢)

و الخلاصة : أن الغاية من القيامة هي أن ينعم السعداء من المؤمنين بالجنة ، ويعذب الأشقياء من الكافرين بالنار.

ثم أورد اللّه تعالى حكمة أخرى معطوفة على ما قبلها فقال :

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ أي إن

المؤمنين بما أنزل على الرسل من المسلمين وأهل الكتاب ، مثل عبد اللّه بن سلام وكعب وأصحابهما وغيرهم إذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار ، وتحققوا مما علموه من كتب اللّه تعالى في الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين وتيقنوا أن القرآن حق ، ويقولون يومئذ : إن الذي جاءت به رسل اللّه لحق ثابت صدق لا شك فيه ، وأن القرآن يرشد من اتبعه إلى طريق اللّه ذي العزة الذي لا يغلب ولا يمانع ، وهو القاهر كل شيء ، وهو المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ولا يليق به صفة العجز.

والصحيح أن وَيَرَى مرفوع على الاستئناف.

ونظير الآية : هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس ٣٦/ ٥٢] لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ [الروم ٣٠/ ٥٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- أنكر الكفار من أهل مكة وغيرهم مجيء البعث والقيامة ، قال أبو سفيان لكفار مكة : واللّات والعزّى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث ، وهذا يعني أنهم مقرون بابتداء اللّه الخلق منكرون الإعادة ، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث ، وقالوا : وإن قدر لا يفعل.

٢- أكد اللّه تعالى حدوث الساعة بقسم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بربه العظيم لتأتينهم ،

و أخبر على ألسنة الرسل عليهم السلام أنه يبعث الخلق ، وإذا ورد الخبر بشيء ، وهو ممكن في الفعل مقدور ، فتكذيب من وجب صدقه محال.

٣- اللّه عالم بأصغر شيء وأكبره في السموات والأرض ، فهو العالم بما خلق ، ولا يخفى عليه شيء ، فوجد المقتضي لوجود البعث وهو إقامة العدل بين الناس ، وارتفع المانع من حصوله.

٤- إن الحكمة من البعث والقيامة والحساب هي إثابة المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، وعقاب الكافرين المكذبين بوحدانية اللّه وبالرسل والملائكة والكتب الإلهية واليوم الآخر.

٥- إن الكفار الذين سعوا في إبطال أدلة الوحدانية والبعث والنبوة ، والتكذيب بآيات اللّه مسابقين يحسبون أنهم يفوتون ربهم ، وأن اللّه لا يقدر على بعثهم في الآخرة ، وظنوا أنه يهملهم ، هؤلاء لهم عذاب مؤلم هو أسوأ العذاب وأشده.

٦- وفي مقابل موقف أولئك الكفار الذين سعوا في إبطال النبوة ، وجد آخرون هم الذين أوتوا العلم

من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ومن مؤمني أهل الكتاب يرون أن القرآن حق وإن لم تأتهم الساعة ، والرؤية بمعنى العلم ، وأن القرآن يهدي إلى طريق الإسلام الذي هو دين اللّه.

ج ٢٢ ، ص : ١٤٣

استبعاد الكفار قيام الساعة واستهزاؤهم بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والاستدلال على البعث [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٧ الى ٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

الإعراب :

إذا مُزِّقْتُمْ العامل في إذا فعل دلّ عليه قوله تعالى : إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ وتقديره : إذا مزّقتم كلّ ممزّق بعثتم. وتقديم الظرف للدلالة على البعد.

البلاغة :

هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ الاستفهام للسخرية والاستهزاء ، ومرادهم الاستهزاء بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يذكروا اسمه تجهيلا له.

المفردات اللغوية :

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : قال بعض الكفار لبعض على جهة التعجيب هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يعنون محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم. يُنَبِّئُكُمْ يخبركم أنكم إذا مُزِّقْتُمْ قطّعتم قطعا صغيرة. كُلَّ مُمَزَّقٍ أي كل تمزيق ، أي تقطيع. إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي إنكم تنشؤون وتخلقون خلقا جديدا بعد التمزيق والتفريق بحيث تصير ترابا. قالوا ذلك استهزاء.

أَفْتَرى الهمزة للاستفهام ، واستغني بها عن همزة الوصل ، والافتراء : اختلاق الكذب.

ج ٢٢ ، ص : ١٤٤

جِنَّةٌ جنون وزوال عقل يوهمه ذلك ويجعله يتخيل البعث. بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ المشتملة على البعث والعذاب فيها فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ عن الحق والصواب في الدنيا ، والعذاب في الآخرة. والمقصود الردّ من اللّه عليهم لإثبات ما هو أفظع من القسمين وهو الضلال والعذاب.

أَ فَلَمْ يَرَوْا ينظروا. إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ما فوقهم وما تحتهم. نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ نغيبهم فيها.

كِسَفاً قطعا جمع كسفة. إِنَّ فِي ذلِكَ المرئي. لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ المنيب : الراجع إلى ربه المطيع له ، والمعنى : إن فيما رأوا لدلالة على قدرة اللّه على البعث وما يشاء.

المناسبة :

(١٥٢/٢٢)

بعد الإخبار عن إنكار الكفرة الساعة ، والرّد عليهم ، وبيان جزائهم وجزاء المؤمنين بها ، ذكر اللّه تعالى مقال الكافرين في شأن الساعة على سبيل التعجب والتهكم والاستهزاء ، ووصفهم لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم بأنه مفتر أو مجنون ، ثم أقام الدليل على البعث بقدرته على خلق السموات والأرض ، ثم هددهم بالعذاب الشديد ، لعلهم يرجعون عن كفرهم.

التفسير والبيان :

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي قال بعض الكفار لبعض على سبيل التعجب والاستهزاء والتهكم : هل ندلكم على شخص اسمه محمد يخبركم بنبإ غريب وهو أنكم إذا بليتم وصرتم ترابا وصارت أجسادكم في الأرض متفرقة موزعة قطعا قطعا ، تعودون بعدئذ أحياء كما كنتم مرة أخرى.

ونظير الآية : وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا ، وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس ٣٦/ ٧٨].

ج ٢٢ ، ص : ١٤٥

أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ أي إن حاله لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يكون قد تعمّد الافتراء على اللّه كذبا أنه قد أوحى إليه ذلك ، أي أنه كاذب فيما قاله ، أو أن به جنونا جعله لا يعقل ما يقول ، ويتوهم البعث ويتخيله.

فردّ اللّه عليهم بإثبات ما هو أخطر وأشنع من الأمرين فقال :

بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل إن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم هو الصادق الرشيد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء المنكرون للآخرة ، الذين كفروا ، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة ، وهم اليوم في الدنيا في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

(١٥٣/٢٢)

ثم نبههم تعالى على قدرته في خلق السموات والأرض ، فهو القادر على البعث ، فقال :
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أي وبخهم لعدم التفكر والتدبر في خلق السماء والأرض ، فقال لهم : أفلم ينظروا خلفهم وأمامهم إلى العجائب الدالة على قدرة اللّه تعالى ووحدانيته ، فإنهم يرون السماء ناطقة بوجود القادر ، والأرض كذلك تنطق بمثل ما تشير به السماء من الدلالة ، فلو نظروا إليهما لعلموا أن خالقهما قادر على تعجيل العذاب لهم ، فإن نرد نخسف بهم الأرض ، كما خسفنا بقارون ، أو نسقط عليهم قطعا من السماء ، كما أسقطنا على أصحاب الأيكة.
والمراد : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر العقاب عنهم لحلمنا وعفونا.
ج ٢٢ ، ص : ١٤٦
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى اللّه ، على قدرة اللّه تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرض في انخفاضها وطولها وعرضها ، قادر على إعادة الأجسام كما كانت ، كما قال تعالى : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [غافر ٤٠/ ٥٧] ، وقال سبحانه : أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى [يس ٣٦/ ٨١].
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآيات على ما يلي :

١- لم يكتف المشركون بإعلان إنكارهم البعث والقيامة ، وإنما تغالوا في ذلك فأخذوا يقولون قولا يقصد به الطعن بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم والتعجب منه والهزء والسخرية من إخباره بالبعث ، وجعلوا ذلك أداة ضحك وتلهي ، واستغربوا أن الناس إذا فرقوا كل تفريق في أجزاء التراب ، كيف يمكن إعادة الحياة لهم ؟ ! ٢- وقال المشركون : إن محمدا في إخباره بالبعث لا يخلو إما أن يكون كاذبا مفتريا على اللّه ، وإما أنه مجنون.
٣- ردّ اللّه عليهم ردّا يثبت عليهم ما هو أشنع من التهمتين السابقتين : وهو أنهم بسبب إنكارهم البعث واقعون في الآخرة في العذاب الشديد ، واليوم في الضلال البعيد عن الصواب ، حين صاروا إلى تعجيز الإله ، ونسبة الافتراء إلى من أيّده اللّه بالمعجزات.
٤- ثم أقام اللّه تعالى عليهم الدليل على صحة البعث ، فأعلمهم أن الذي قدر على خلق السموات

والأرض وما فيهن قادر على البعث ، وعلى تعجيل العقوبة لهم ، ومنها الخسف والكسف ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.

ج ٢٢ ، ص : ١٤٧

٥- وإن في هذا المذكور من قدرة اللّه الباهرة لدلالة ظاهرة لكل عبد تائب رجّاع إلى اللّه بقلبه على قدرة اللّه تعالى على البعث ووقوع المعاد. وخصّ المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالتفكر في حجج اللّه وآياته.

نعم اللّه على داود عليه السلام [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

الإعراب :

وَالطَّيْرَ إما منصوب بالعطف على موضع المنادي وهو النصب في قوله : يا جِبالُ أو على أنه مفعول معه ، أي مع الطير ، أو بفعل مقدر ، أي وسخرنا له الطير ، ودلّ عليه قوله تعالى :

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا. ويقرأ بالرفع وَالطَّيْرَ عطفا على لفظ يا جِبالُ أو عطفا على الضمير المرفوع في أَوِّبِي وحسن ذلك لوجود الفصل ب مَعَهُ والفصل يقوم مقام التوكيد. والقراءة بالنصب أقوى في القياس من الرفع.

أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ أَنِ : إما مفسرة بمعنى (أي) أو في موضع نصب بتقدير حذف حرف جر ، وتقديره : لأن أعمل. وسابِغاتٍ : أي دروعا سابغات ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

البلاغة :

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا تنكير فَضْلًا للتفخيم ، أي فضلا عظيما. وتقديم داود على المفعول اهتمام بالمقدم وتشويق إلى المؤخر.

المفردات اللغوية :

فَضْلًا هو النبوة والملك والجنود وكتاب الزبور والصوت الحسن. أَوِّبِي مَعَهُ رجّعي وردّدي معه التسبيح ، والتأويب : التسبيح. وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ جعلناه في يده كالعجين

ج ٢٢ ، ص : ١٤٨

أو الشمع يصرّفه من غير نار ولا طرق. أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ أي وقلنا له اعمل دروعا كوامل تامة ، وهو أول من اتخذها. وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ أي اجعل النسج متناسبا في الحلق على قدر الحاجة غير مختلفة.

وقَدِّرْ : اقتصد ، والسَّرْدِ : النسج ، يقال لصانع الدروع : سرّاد وزرّاد. وَاعْمَلُوا صالِحاً يعود الضمير لداود وأهله أي آل داود. إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ مطلع على كل أعمالكم ، فأجازيكم عليها.

المناسبة :

لما ذكر اللّه تعالى من ينيب من عباده ، ذكر نماذج ممن أنابوا إلى ربّهم ومنهم داود عليه السلام ، وبيّن ما آتاه اللّه على إنابته ، من النبوة والملك والجنود والزبور والصوت الحسن ، فكانت الجبال والطيور إذا سبّح تسبّح معه ، وعلّمه تعالى صناعة الدروع الحربية للوقاية من الضربات في الحروب.

التفسير والبيان :

(١٥٦/٢٢)

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ يخبر تعالى عما أنعم به على رسوله داود عليه السلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك العظيم المتمكن والجنود ، ومنحه من الصوت الرخيم القوي المؤثر ، الذي كان إذا سبّح سبّحت معه الجبال الراسيات ، والطيور السارحات : الغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات.

والمعنى : لقد أعطينا داود فضلا عظيما ونعما جليلة ، فقلنا للجبال والطير :

رددي معه التسبيح إذا سبّح.

جاء في صحيح البخاري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه ، يقرأ من الليل فوقف ، فاستمع لقراءته ، ثم قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود » .

ج ٢٢ ، ص : ١٤٩

وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ أي جعلنا الحديد في يده لينا يصنع به ما يشاء ، من غير حاجة إلى نار ولا مطرقة ، بل كان يفتله في يده مثل الخيوط ، ليعمل به الدروع الكاملات الواسعات التي تقي من ويلات الحروب ، وعلمه كيفية نسج الدروع بحيث تكون متناسبة الحلق ، وعلى قدر الحاجة ، فلا هي صغيرة ضيقة لا تحقق الهدف ، ولا كبيرة ثقيلة على لابسها ، فيعجز عن لبسها. ولا شك أن إلانة الحديد من غير نار ولا طرق معجزة لنبي اللّه داود ، لا تنطبق على غيره. وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع ، قال قتادة رحمه اللّه : « كانت الدروع قبله صفائح ثقالا » فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة ، أي قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه ، أي لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة.

(١٥٧/٢٢)

وَ اعْمَلُوا صالِحاً ، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أي اعملوا يا آل داود عملا صالحا فيما أعطاكم اللّه تعالى من النعم فإني مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى عليّ شيء منها. وقوله : إِنِّي بِما .. تعليل للأمر.

وهذا تحريض على إصلاح العمل لشكر النعمة ، والعمل الصالح يقوّم النفوس ، ويصقل الروح ، ويحصنها من المزالق والانحرافات.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- لقد منح اللّه تعالى عبده المنيب ورسوله داود عليه السلام فضلا عظيما ، فضّله به على سائر الأنبياء من قبله ، من الجمع بين النبوة والملك والزبور والعلم والجنود وتسبيح الجبال والطيور مع تسبيحه ، قال تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ [ص ٣٨/ ١٨].

ج ٢٢ ، ص : ١٥٠

قال أبو ميسرة في تفسير التأويب : هو التسبيح بلغة الحبشة ، ومعنى تسبيح الجبال : هو أن اللّه تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة ، فيسمع منها ما يسمع من المسبّح ، معجزة لداود عليه السلام.

وقيل : المعنى : سيري معه حيث شاء من التأويب الذي هو سير النهار أجمع ، والنزول ليلا.

وقيل : المعنى تصرفي معه على ما يتصرف فيه داود بالنهار ، فكان إذا قرأ الزبور صوّتت الجبال معه ، وأصغت إليه الطير.

٢- ومن فضائل اللّه على داود ومعجزاته : إلانة الحديد بيده ، حيث يصير كالعجين أو الشمع من غير نار ولا مطرقة.

قال القرطبي : في هذه الآية دليل على مشروعية تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان. و

في الصحيح عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبي اللّه داود كان يأكل من عمل يده » .

٣- علّم اللّه تعالى داود عليه السلام صناعة الدروع السابغات ، أي الكوامل التامات الواسعات ، المحكمة الحلق المتناسبة فيما بينها ، ليست بالصغيرة فلا تحقق الغرض منها وهو الدفاع ، ولا بالكبيرة التي تثقل كاهل لابسها.

٤- لم يستثن اللّه نبيا ولا رسولا من إلزامه بالعمل الصالح ، لذا أعقب بيان نعمه وأفضاله على داود بأمره مع أهله بصالح العمل وهو فعل الأوامر وترك النواهي ، كما قال تعالى : اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً [سبأ ٣٤/ ١٣]. وعلل الترغيب بالعمل الصالح بأنه تعالى بصير بأعمال عباده وأقوالهم ، لا يغيب عنه شيء ، فيجازيهم عليها.

ج ٢٢ ، ص : ١٥١

نعم اللّه على سليمان عليه السلام [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤)

الإعراب :

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ الرِّيحَ : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وسخرنا لسليمان الريح ، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر ، والجار والمجرور خبر مقدم ، أو مرفوع بالجار والمجرور على مذهب الأخفش.

غُدُوُّها شَهْرٌ مبتدأ وخبر. وَرَواحُها شَهْرٌ معطوف عليه ، أي غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر ، وإنما وجب هذا التقدير لأن الغدو والرواح ليس بالشهر ، وإنما يكونان فيه.

وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ مِنَ : إما منصوب بتقدير فعل ، تقديره : وسخّرنا من الجن من يعمل بين يديه ، وإما مرفوع بالابتداء ، والجار والمجرور خبره ، أو مرفوع بالجار والمجرور على مذهب الأخفش.

وَمَنْ يَزِغْ مِنَ : شرطية في موضع رفع بالابتداء ، ونُذِقْهُ : الجواب ، وهو خبر المبتدأ.

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً شُكْراً : منصوب لأنه مفعول لأجله ، ولا يكون منصوبا ب اعْمَلُوا لأن « شكروا » أفصح من : « اعملوا شكرا » .

ج ٢٢ ، ص : ١٥٢

مِنْسَأَتَهُ يقرأ بالهمز على الأصل ، ومن لم يهمزه أبدل من الهمزة ألفا.

أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ أَنْ : إما بالرفع على البدل من الْجِنُّ وهو بدل اشتمال ، مثل : أعجبني زيد عقله ، وإما بالنصب على تقدير حذف حرف جر ، وهي اللام.

البلاغة :

غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ أي غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر.

وَجِفانٍ كَالْجَوابِ تشبيه مرسل مجمل ، لذكر أداة الشبه ، وحذف وجه الشبه.

المفردات اللغوية :

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ فيه تقدير ، أي وسخرنا لسليمان الريح. غُدُوُّها شَهْرٌ أي جريها بالغداة مسيرة شهر ، والغداة : من الصباح إلى الزوال. وَرَواحُها شَهْرٌ أي وجريها بالعشي مسيرة شهر ، والعشي : من الزوال إلى الغروب. وَأَسَلْنا أذبنا. الْقِطْرِ النحاس المذاب.

بِإِذْنِ رَبِّهِ بأمر ربه. وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا أي ومن يعدل منهم عن طاعة سليمان بأمرنا له بطاعته. نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ أي من عذاب النار في الآخرة ، أو الحريق في الدنيا.

(١٦٠/٢٢)

مَحارِيبَ هي الأبنية العالية والقصور الرفيعة الحصينة ، سميت بذلك لأنه يحارب عليها ، وقيل : المراد بالمحاريب هنا : المساجد. وَتَماثِيلَ جمع تمثال ، وهو كل شيء مجسّم صوّرته بصورة الحيوان من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك. قيل : إن التصوير كان مباحا في شرع سليمان ، ثم نسخ ذلك في شرع نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. وَجِفانٍ جمع جفنة ، أي صحاف تشبه في العظم حياض الإبل ، يجتمع على القصعة الواحدة جمع كبير كألف ، يأكلون منها. كَالْجَوابِ كالحياض الكبار ، جمع جابية. وَقُدُورٍ راسِياتٍ أي ثابتات ، ولها قوائم لا تتحرك عن أماكنها ، تتخذ من الجبال باليمن ، يصعد إليها بالسلالم.

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً أي وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة اللّه ، شكرا له على ما آتاكم. وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ العامل بطاعة اللّه ، المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته ، ومع ذلك لا يوفي حقه لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكرا آخر إلى ما لا نهاية.

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ أي حكمنا على سليمان ، بأن مات ومكث قائما متكئا على عصاه ، وبقي الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة على عادتها ، لا تشعر بموته ، حتى أكلت الأرضة عصاه ، فخرّ ميتا. ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ أي ما دلّ الجن على موته إلا الأرضة : وهي التي تأكل

الأخشاب ونحوها ، مأخوذة من أرضيت الخشبة : أكلتها الأرضة ، ويقال : أرضيت الأرضة الخشبة

أرضا. تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ عصاه لأنها ينسأ بها ، أي يطرد ويزجر بها. فَلَمَّا خَرَّ سقط ميتا. تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ انكشف لهم. أَنْ لَوْ كانُوا أَنْ : مخففة من الثقيلة ، أي أنهم.

(١٦١/٢٢)

يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ كما زعموا ، لعلموا بموته. ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ ما أقاموا في الأعمال الشاقة التي كلّفوا بها ، لظنهم حياته. قيل : وقد أرادوا أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت يوما وليلة مقدارا ، فحسبوا ذلك ، فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. وقال كما ذكر الماوردي بعد الانتهاء من بناء المسجد الأقصى : « اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه ، ولا خائف إلا أمّنته ، ولا سقيم إلا شفيته ، ولا فقير إلا أغنيته ، والخامس : ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه إلا من أراد إلحادا أو ظلما ، يا ربّ العالمين » .

المناسبة :

بعد بيان ما أنعم اللّه به على داود عليه السلام من النبوة والملك ، ذكر تعالى ما أنعم به على سليمان من تسخير الريح له ، حيث كانت تجري من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس كإذابة الحديد لأبيه داود ، وتسخير الجن لبناء القصور الشامخة وصناعة الجفان الكبيرة كالأحواض ، والقدور الثابتة التي لا تتحرك لسعتها وكبرها. وهذه الأشياء الثلاثة تقابل الثلاثة في حقّ داود وهي تسخير الجبال الذي هو من جنس تسخير الريح لسليمان ، وتسخير الطير الذي هو من جنس تسخير الجن لسليمان ، وإلانة الحديد كإلانة النحاس لسليمان.

التفسير والبيان :

ذكر اللّه تعالى في هذه الآيات نعما ثلاثا كبري أنعم بها على سليمان عليه السلام وهي :

١- تسخير الريح : وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ ، غُدُوُّها شَهْرٌ ، وَرَواحُها شَهْرٌ

ج ٢٢ ، ص : ١٥٤

(١٦٢/٢٢)

أي وسخّرنا لسليمان الريح التي كانت تحمل بساطا له غدوها (أي سيرها وقت الغداة من أول النهار إلى منتصف النهار) مسيرة شهر ، ورواحها (جريانها وقت الرواح من منتصف النهار إلى الغروب) مسيرة شهر.

قال الحسن البصري : كان يغدو على بساطه من دمشق ، فينزل بإصطخر يتغدى بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل (في أفغانستان) وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

٢- إذابة النحاس : وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ أي وأذبنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود ، فكان يصنع منه ما يشاء دون نار ولا مطرقة. وسمي عينا ، لأنه سال من معدنه سيلان الماء من الينبوع.

٣- تسخير الجن : وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ أي وسخرنا له من الجن من يعمل لديه من المحاريب وغيرها ، بأمر ربّه وقدرته وتيسيره وتسخيره إياهم لسليمان ، ومن يعدل ويخرج منهم عن طاعة سليمان نذقه عذابا أليما من الحريق في الدنيا ، أو من عذاب النار في الآخرة.

يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ ، وَجِفانٍ كَالْجَوابِ ، وَقُدُورٍ راسِياتٍ أي يعمل الجن لسليمان ما يريد من الأبنية الرفيعة والقصور العالية والمساجد والصور المجسمة المصنوعة من النحاس أو الزجاج أو الرخام ونحوها ، والصحاف أو القصاع الكبيرة التي تكفي لعدد كبير من الناس وتشبه حياض الإبل ، والقدور الثابتات في أماكنها ، لا تتحرك ولا تتحول عن مواضعها لعظمها وثقلها.

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ أي وقلنا : اعملوا يا آل داود بطاعة اللّه ، شكرا له على ما آتاكم من النعم في الدين والدنيا ، وقليل

ج ٢٢ ، ص : ١٥٥

(١٦٣/٢٢)

من عبادي من يشكرني ، فيستعمل جميع جوارحه فيما خلقت له من المنافع المباحة. والشكور : هو الذي يشكر في جميع أحواله من الخير والضرّ. كما قال تعالى : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ [ص ٣٨/ ٢٤] وهذا إخبار عن الواقع.

ورد في الصحيحين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « إنّ أحبّ الصلاة إلى اللّه تعالى صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحبّ الصيام إلى اللّه تعالى صيام داود ، كان يصوم يوما ، ويفطر يوما ، ولا يفرّ إذا لاقى » .

و

أخرج مسلم في صحيحة عن عائشة رضي اللّه عنها « أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقوم من الليل حتى تفطّر قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا ، وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا » .

و

أخرج الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم صعد المنبر ، فتلا هذه الآية ، ثم قال : « ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود ، فقلنا : ما هنّ ؟

فقال : العدل في الرّضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية اللّه في السّرّ والعلانية » .

ومع هذه النعم وعظمة سليمان عليه السلام ذكر تعالى كيفية موته وتعميته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فقال :

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ، ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت وألزمناه إياه ، مات ، وهو قائم متكئ على عصاه ، ولم تعلم الجن بموته ، وبقوا يعملون خوفا منه ، ولم يدلّهم على موته إلا الأرضة التي أكلت عصاه من الداخل ، فلما سقط بعد ما وقعت عصاه ، ظهر للجن أنهم

لا يعلمون الغيب كما زعموا ، ولو صحّ ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب ، لعلموا بموته وهو أمامهم ، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العمل الشاق الذي سخرهم فيه ، ظانين أنه حيّ. أما المدة التي مكث فيها سليمان متكئا على عصاه فلم يرد خبر صحيح في شأنها ، ونترك الأمر في تقديرها للّه عزّ وجلّ ، وربما يستأنس

بالحديث المرفوع الذي رواه إبراهيم بن طهمان عن ابن عباس وفيه : « أن سليمان نحت عصا الخرنوبة ، فتوكأ عليها حولا لا يعلمون ، فسقطت ، فعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب ، فنظروا مقدار ذلك ، فوجدوه سنة » « ١ » .

قال الرازي : وقوله : ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين « ٢ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- امتنّ اللّه تعالى على سليمان عليه السلام بما أنعم عليه من النعم الجليلة أهمها ثلاث : تسخير

الريح ، وإذابة النحاس ، وتسخير الجنّ للعمل بأمره.
أما تسخير الريح فكانت تحمل بساطه تنقله من مكان إلى آخر ، فتقطع مسافة في نصف يوم تقدر بمسيرة شهر للمسافر العادي ، وهذا معنى : غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ.
٢- والنعمة الثانية هي إذابة النحاس في يده.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٢٧٩
(٢) تفسير الرازي : ٢٥/ ٢٥٠
ج ٢٢ ، ص : ١٥٧
قال القرطبي : والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه ، دلالة على نبوته « ١ » .

٣- والنعمة الثالثة هي تسخير الجنّ له شغلة عملة لمختلف الحرف والصناعات الثقيلة ، من المساجد والقصور الشامخة ، والقصاع الكبيرة كحياض الإبل وقدور النحاس الثوابت التي لا تحرك لعظمها.
والتماثيل : وهي كل ما صوّر على مثل صورة من حيوان أو غيره. ذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا ،
قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصّور »
أي ليتذكروا عبادتهم ، فيجتهدوا في العبادة.
والآية صريحة في أن نبي اللّه سليمان عليه السلام كان يتخذ التماثيل. وهذا يدلّ على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان ، ونسخ جوازه بشرع محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. وعلة النسخ سد الذّرائع ومحاربة ما كانت العرب تفعله من عبادة الأوثان والأصنام ، كما أن التعظيم لا يكون لغير اللّه تعالى.
ذكر ابن العربي خمسة أحاديث في منع التصوير ، منها
ما رواه مسلم عن أبي طلحة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة » زاد زيد بن خالد الجهني : « إلا ما كان رقما في ثوب »
ثم ثبتت كراهية الرّقم أيضا ونسخه المنع منه في أحاديث أخرى ، فاستقرّ الأمر فيه على المنع كما ذكر القرطبي ، ومنها :
ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود وابن عباس : « أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون »

و

منها ما رواه مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « حوّلي هذا ، فإني كلما دخلت ، فرأيته ذكرت الدنيا »

و

عنها

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٢٧٠

ج ٢٢ ، ص : ١٥٨

قالت : دخل عليّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأنا مستترة بقرام « ١ » فيه صورة ، فتلوّن وجهه ، ثم تناول السّتر فهتكه ، ثم قال : « إنّ من أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبّهون بخلق اللّه عزّ وجلّ » .

هذا ما يراه ابن العربي والقرطبي « ٢ » في أن المنع من التصوير عام ، ثم استثنيت منه أشياء ، مثل لعب البنات ، بالحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي اللّه عنها. واستبعد جماعة من العلماء هذا الاتجاه لأن النسخ يشترط فيه العلم بالتاريخ ، والأولى في الجمع بين الأحاديث : أن يقال : تحمل النصوص التي فيها الحظر بإطلاق على ما كان منها مجسدا لذي روح ، بدليل

حديث « أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق اللّه »

و

من طريق آخر : « يقال لهم : أحيوا ما خلقتم »

فيكون المنع متجها إلى صور الأجسام ذات الروح إذا كانت على حالة بحيث يمكن أن يقال : إن صاحبها يضاهي بها خلق اللّه ، وذلك إذا كانت كاملة الخلق ، بحيث لا ينقصها إلا نفخ الروح.

وأما حديث الأمر بتحويل السّتر الذي فيه تمثال طائر ، فلاستقبال المارة له ، مما يشعر بتعظيمه ، فإذا وضع للاستعمال فلا بأس.

أما تصوير الجمادات ، كالجبال والأنهار ، والأشجار ونحوها ، فليست مما يتناولها النص بإشارة :

« يشبّهون خلق اللّه »

وبإشارة

« يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

وكذلك كل ما وضع في حالة لا تشعر بالتعظيم كالاستعمال في الأرض لا يكون ممنوعا.

---

(١) القرام : السّتر الرقيق.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٥٨٩- ١٥٩٠ ، تفسير القرطبي : ١٤/ ٢٧٢- ٢٧٤

ج ٢٢ ، ص : ١٥٩

(١٦٧/٢٢)

هذا وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري شرح البخاري آراء العلماء في اتخاذ الصور ، نقلا عن ابن العربي ، وهي أن اتخاذ الصور ذات الأجسام أو ذات الظل لكل ما فيه روح من إنسان أو حيوان حرام بالإجماع إلا لعب البنات. أما الرّقم على الثياب ففيه أربعة أقوال :

الأول- يجوز مطلقا ، عملا

بحديث : « إلا رقما في ثوب » .

الثاني- المنع مطلقا.

الثالث- إن كانت الصورة باقية الهيئة ، قائمة الشكل ، حرم ، وإن كانت مقطوعة الرأس أو تفرقت الأجزاء ، جاز ، قال : وهذا هو الأصح.

الرابع- إن كانت مما يمتهن جاز ، وإلا لم يجز.

وأجاز جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب اتخاذ الصور إذا كانت مما يوطأ ويداس أو يمتهن بالاستعمال كالمخاد والوسائد.

أما التصوير الشمسي أو الفوتوغرافي فحكمه حكم الرقم في الثوب ، وهذا مستثنى بالنّص ، بل إن هذا في الحقيقة ليس تصويرا بالمعنى الذي جاءت به الأحاديث بل حبس للصورة أو الظل ، فيكون مثل الصورة في المرآة أو الماء ، وليس فيه محاكاة صنع الخالق أو تشبيه خلق اللّه تعالى.

٤- أمر اللّه آل داود بشكره ، وأخبر أن الشاكرين من عبادة قلة قليلة ، مما يدل على وجوب شكر اللّه تعالى على ما أنعم على الإنسان ، وحقيقة الشكر :

الاعتراف بالنعمة للمنعم ، واستعمالها في طاعته ، والكفران استعمالها في المعصية.

وظاهر القرآن والسّنّة : أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان.

ج ٢٢ ، ص : ١٦٠

٥- ليس لأحد من الملائكة والجنّ والأنبياء والناس ادعاء العلم بالغيب ، وإنما ذلك مختص باللّه

تعالى ، كما قال : عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ [الجن ٧٢/ ٢٦- ٢٧].

(١٦٨/٢٢)

و في قصة موت سليمان متكئا على عصاه ، دون أن تعلم الجن بموته ، بدليل استمرارهم بما كلّفوا به من الأعمال الشاقة : مثل واقعي فذّ لجهلهم بالغيب ، فإنه ظلّ مدة متكئا على عصاه ، ثم سقط بسقوط العصا التي تآكلت بفعل الأرضة ، وحينئذ علموا أنه ميّت.

قصة سبأ وسيل العرم [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٥ الى ٢١]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

ج ٢٢ ، ص : ١٦١

الإعراب :

لِسَبَإٍ من قرأ بالتنوين جعله منصرفا ، وقال : هو اسم بلد أو حي ، وليس فيه تأنيث ، ومن لم ينونه ، جعله غير منصرف للتعريف (العلمية) والتأنيث ، وقال : هو اسم بلدة أو قبيلة.

(١٦٩/٢٢)

فِي مَسْكَنِهِمْ من قرأ بالإفراد ففيه لغتان بفتح الكاف وكسرها ، والفتح على القياس لأن مضارعه « يسكن » . والكسر على خلاف القياس ، مثل : مطلع ومغرب ومسجد ومسقط ومنبت ومجزر. ومن قرأ بالجمع جعله جمع مسكن.

جَنَّتانِ إما بدل من قوله آيَةٌ أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي جنتان ، أو مبتدأ على تقدير : هنا جنتان ، أو هناك جنتان.

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ خبر مبتدأ أي هذه بلدة طيبة ، وكذلك : وَرَبٌّ غَفُورٌ أي وهذا رب غفور.
لَيالِيَ وَأَيَّاماً منصوبان على الظرف. والليالي جمع (ليلة) على خلاف القياس. وأيام جمع يوم.
آمِنِينَ حال.
أُكُلٍ خَمْطٍ من قرأ بالتنوين جعل (الخمط) عطف بيان على (الأكل) ولا يجوز أن يكون صفة لأنه اسم شجرة بعينها ، ولا بدلا لأنه ليس هو الأول ولا بعضه. ومن لم ينون أضاف (الأكل) إلى الخمط لأن الأكل هو الثمرة ، والخمط هو الشجرة ، فأضاف الثمرة إلى الشجرة ، مثل تمر نخل ، وعنب كرم.
ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا ذلِكَ : في موضع نصب لأنه مفعول ثان ل جَزَيْناهُمْ والمفعول الأول : الهاء والميم ، وما : مصدرية أي بكفرهم.
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ من قرأ صدق بالتخفيف ، كان ظَنَّهُ إما منصوب انتصاب الظرف ، أي في ظنه ، وإما منصوب انتصاب المفعول به على الاتساع ، وإما منصوب على المصدر. ومن قرأ بالتخفيف ونصب إبليس ورفع ظنه ، جعل الظن فاعلا وإبليس مفعولا. ومن قرأ بالتشديد نصب ظَنَّهُ لأنه مفعول صَدَّقَ.

البلاغة :

يَمِينٍ وَشِمالٍ بينهما طباق.
وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا بين الكلمتين الأخيرتين جناس اشتقاق.

ج ٢٢ ، ص : ١٦٢

صَبَّارٍ شَكُورٍ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعول.
وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ وإِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ بينهما ما يسمى بمراعاة الفواصل ، من أنواع الجمال في اللفظ.

المفردات اللغوية :

لِسَبَإٍ اسم قبيلة من قبائل العرب العاربة في بلاد اليمن ، وتعد أصلا تفرع منها عدة فروع في جزيرة العرب. وقد سميت باسم جدّ لهم من العرب : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. فِي مَسْكَنِهِمْ موضع السكنى وهو مأرب في بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. آيَةٌ علامة دالة على وجود اللّه ووحدانيته وقدرته على إيجاد أمور عجيبة. جَنَّتانِ بستانان. عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ عن يمين واديهم وشماله. كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ أي قيل لهم ذلك ، والرزق : ثمار الجنتين. وَاشْكُرُوا لَهُ على ما رزقكم من هذه النعم في أرض سبأ ، واعملوا بطاعته ، واجتنبوا معاصيه. بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ استئناف للدلالة

على موجب الشكر ، أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور. وكون البلد طيبة : أنه ليس فيها سباخ ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية لطيب هوائها.

فَأَعْرَضُوا انصرفوا عن شكر هذه النعم وكفروا باللّه. فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ أي دمّره اللّه ، وفتق عليهم سد مأرب حتى انتقض ، فدخل الماء بساتينهم فغرقها ، ودفن السيل بيوتهم ، فهذا هو سيل العرم. والعرم : جمع عرمة : وهي الحجارة المركومة والمباني القائمة ، وسيل العرم : هو السيل الذي لا يطاق لقوته وشدّته. أُكُلٍ خَمْطٍ مرّ ، والأكل بمعنى المأكول : الثمر ، والخمط :

كل شجرة مرّة ذات شوك وليس له ثمر. وَأَثْلٍ هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء ، ولا ثمر له. سِدْرٍ شجر النبق له ثمر يؤكل. أهلك اللّه أشجارهم المثمرة ، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر ، ووصف السدر بالقلة لأن ثمره مما يطيب أكله.

(١٧١/٢٢)

ذلِكَ التبديل. جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا أي بكفرانهم النعمة ، أو بكفرهم بالرسل ، إذ بعث إليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم. وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ أي لا نجازي بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في كفران النعم أو الكفر بالرسل. وقرئ : يجازي.

وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ سبأ باليمن. وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها بالماء والشجر وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة. قُرىً ظاهِرَةً مرتفعة على الآكام ، متواصلة من اليمن إلى الشام ، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا. وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أي كانت القرى على مقادير للمسافر ، بحيث يكون المقيل في قرية ، والمبيت في أخرى ، إلى انتهاء سفرهم ووصولهم إلى الشام ، دون أن يحتاجوا في الطريق إلى حمل زاد وماء. سِيرُوا فِيها أي وقلنا :

ج ٢٢ ، ص : ١٦٣

سيروا فيها. لَيالِيَ وَأَيَّاماً متى شئتم من ليل أو نهار. آمِنِينَ لا تخافون في ليل ولا في نهار.

فَقالُوا : رَبَّنا باعِدْ وفي قراءة : بعّد. بَيْنَ أَسْفارِنا إلى الشام فإنهم بطروا النعمة كبني إسرائيل ، فسألوا اللّه أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر وبطر النعمة. فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ لمن بعدهم في ذلك ، جمع أحدوثة : وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب ، فإن اللّه أجابهم بتخريب القرى المتوسطة. وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ فرقناهم في البلاد غاية التفريق. إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور. لَآياتٍ عبرا ودلالات واضحات. لِكُلِّ صَبَّارٍ كثير

الصبر عن المعاصي وعلى الطاعات. شَكُورٍ كثير الشكر على النعم.
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ أي صدق إبليس على الكفار ومنهم سبأ ظنه ، والمعنى :

(١٧٢/٢٢)

ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه. فَاتَّبَعُوهُ أي فصدق في ظنه ، أو صدّق ظنه بأن وجده صادقا.
إِلَّا فَرِيقاً بمعنى لكن. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أي لكن فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه ، ومِنَ :
للبيان.
وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ أي لم يكن له على المتبعين تسلط واستيلاء بوسوسة واستغواء. إِلَّا لِنَعْلَمَ علم ظهور وانكشاف. مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ أي لنتعرف ونتميز المؤمن بالآخرة من الشاك. وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ محافظ رقيب.
سبب النزول :
أخرج ابن أبي حاتم أن فروة بن مسيك الغطفاني رضي اللّه عنه قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : يا نبي اللّه ، إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز ، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال : ما أمرت فيهم بشيء بعد ، فأنزلت هذه الآية : لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ الآيات.
المناسبة :
بعد بيان حال الشاكرين لنعم اللّه المنيبين إليه ، وهم داود وسليمان عليهما السلام ، بيّن اللّه تعالى حال الكافرين بأنعمه ، بحكاية قصة أهل سبأ ، تحذيرا لقريش ، ووعيدا لكل من يكفر بنعم اللّه تعالى.
ج ٢٢ ، ص : ١٦٤
اضواء على سبأ وسد مأرب :
كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وثمارهم ، وبعث اللّه تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء اللّه تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، والتفرق في البلاد « ١ » .
روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي عن ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن سبأ ما هو ، أرجل أم امرأة أم أرض ؟

(١٧٣/٢٢)

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « بل هو رجل ، ولد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسّان »

وإسناده حسن.

قال علماء النسب كمحمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ- أي تفرق- في العرب ، وكان يقال له : الرائش لأنه أول من غنم في الغزو ، فأعطى قومه ، فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشا ورياشا.

وأرض سبأ : طيبة الثمار والهواء ، كثيرة الخيرات والبركات ، أنعم اللّه على أهلها بنعم كثيرة ليوحدوه ويعبدوه. والسابئيون : قوم سكنوا اليمن ، وأقاموا المدن العظام ذات الحصون والقلاع والقصور الشامخة.

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال : أحدها- أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، والثاني- أنه من سلالة عابر وهو هود عليه السلام ، والثالث- أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٣٠

ج ٢٢ ، ص : ١٦٥

و أما سد مأرب : فكأن الماء يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدا عظيما محكما ، حتى ارتفع الماء ، وبلغ حافة الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار.

وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب. وقد جدد بناؤه عام ١٩٨٧ م.

التفسير والبيان :

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ « ١ » فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ كان لقبيلة سبأ باليمن التي كان منها ملوك اليمن في مسكنهم : مأرب آية هي بستانان عن يمين واديهم وشماله ، وكانت مساكنهم في الوادي ، وفي البستانين جميع الثمار ، فقيل لهم : كلوا من رزق ربكم ، أي من ثمار الجنتين ، والقائل لهم نبيهم ، أو القول بلسان الحال أو الدلالة

لأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك. وقيل لهم أيضا : واشكروا ربكم على ما رزقكم من هذه النعم ، ووحدوه واعبدوه ، واعتدال هوائها ، وصحة مناخها ، واللّه المنعم عليكم بهذه النعم رب غفور لذنوبكم إن استمررتم على التوحيد والطاعة.

فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ، وَأَثْلٍ ، وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ أي فأعرضوا عن توحيد اللّه ، وعبادته وطاعته ، وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون اللّه ، كما حكى القرآن عن قول الهدهد لسليمان عليه السلام : وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَها عَرْشٌ

---

(١) منصرف على أنه اسم حي ، وهو في الأصل اسم رجل ، كما تقدم بيانه.

عَظِيمٌ ، وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ [النمل ٢٧/ ٢٢- ٢٤].

فأرسل اللّه عليهم سيل العرم ، أي المياه الكثيرة الغزيرة ، بأن تحطم سد مأرب ، فملأ الماء الوادي ، وغرّق البساتين الخضراء ثم يبست ، ودفن البيوت ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد ، وأعطوا بدل تلك الجنان والبساتين المثمرة الأنيقة النضرة بساتين لا خير فيها ولا فائدة منها ، وإنما أشجار ذات ثمر مرّ هي الأراك ، وأثل هو الطرفاء ، والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وهو شجر النبق.

قال القشيري : وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستانا ، ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ، وهو كقوله تعالى : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى ٤٢/ ٤٠].

وسبب هذا العقاب كما قال تعالى :

ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ أي إن ذلك التبديل من الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال الوارفة والأنهار الجارية إلى أشجار ذات أشواك وثمار مرة ، كان بسبب كفرهم وشركهم باللّه ، وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ، لقد عاقبناهم بكفرهم ، ولا يعاقب اللّه إلا المبالغ في كفران النعم ، والكفر بالرسل.

وبعد تعداد نعم اللّه على السابئيين في مساكنهم ، ذكر تعالى باقة أخرى من النعم أثناء تنقلهم في البلاد ، ومتاجرتهم مع بلاد الشام ، فقال :

وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً أي وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التي باركنا فيها بالمياه والأشجار والخيرات الكثيرة قرى مرتفعة

ج ٢٢ ، ص : ١٦٧

معروفة ، متواصلة ، متقارب بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل ماء ولا زاد ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، وهي قرى ظاهرة ، أي بينة واضحة يعرفها المسافرون ، لبنائها على هضاب عالية.

(١٧٦/٢٢)

وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أي جعلناها محطات متعاقبة ذات مقادير متناسبة بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، فيقيلون في بلد ، ويبيتون في آخر ، إلى أن يصلوا إلى الشام.

سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ أي وقيل لهم بلسان المقال أو الحال :

سيروا في تلك القرى ليالي وأياما آمنين مما تخافون في السير ليلا ونهارا ، لا تخشون جوعا ولا عطشا ولا عدوا يهددكم.

ثم بطروا تلك النعمة ، فقال تعالى :

فَقالُوا : رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أي سئموا النعمة ، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار ، وقالوا : ربنا اجعل بيننا وبين البلاد التي نسافر إليها مفاوز وقفارا ، ليركبوا فيها الرواحل ، والتزود بالزاد والماء ، إظهارا للتمايز الطبقي والتكبر والتفاخر على الفقراء والعاجزين ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج اللّه لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد بالمن والسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ، كما طلبوا أن يفصل بين القرى بمفاوز وقفار لأغراض حربية ، وهذا غاية الانتكاس على الفطرة ، والإمعان في تدمير مظاهر الحضارة والتمدن والحياة الهانئة ، لذا وصفهم اللّه بأنهم ظلموا أنفسهم إذ عرضوها للسخط والعذاب ، وعاقبهم اللّه على بطرهم النعمة وكفرهم باللّه ، فقال :

فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أي جعلناهم عبرة لمن يعتبر ،

ج ٢٢ ، ص : ١٦٨

(١٧٧/٢٢)

و حديثا للناس يسمرون به في مجالسهم ، وفرقنا شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، وفرقناهم في البلاد كل تفريق ، فصارت العرب تضرب بهم المثل ، فتقول : « تفرق القوم أيدي سبأ » وأيادي سبأ ، أي مذاهب سبأ وطرقها ، فنزلت الأوس والخزرج بيثرب ، وغسان آل جفنة بن عمرو بالشام ، والأزد بعمان والسّراة ، وخزاعة بتهامة ، فمزقهم اللّه كل ممزق ، وهدم السيل بلادهم.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أي إن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة ، وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم.

وفي هذا إشادة بالصبر ،

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « عجبت من قضاء اللّه تعالى للمؤمن : إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته » .

و

روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّه عنه : « عجبا للمؤمن ، لا يقضي اللّه تعالى له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » .

وكان مطرّف بن الشّخير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر.

وبعد بيان قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان ، أخبر تعالى بأنهم وأمثالهم هم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالفوا الرشاد والهدى ، فقال :

فقال :

ج ٢٢ ، ص : ١٦٩

(١٧٨/٢٢)

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أي ظن إبليس بهؤلاء السابئيين أنه إذا أغواهم اتبعوه ، فكان كما ظن بوسوسته ، فانقادوا لإغوائه وعصوا ربهم وعبدوا الشمس من دون اللّه ، إلا فريقا مؤمنا منهم قاوموا وسوسة الشيطان وعصوا أمره ، وثبتوا على طاعة اللّه تعالى.

وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أي لم يكن لإبليس على هؤلاء القوم من حجة وبرهان لإضلالهم ، ولم يقهرهم على الكفر ، وإنما كان منه الوسوسة والتزيين ، قال الحسن البصري : واللّه ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء ،

وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها ، فأجابوه.

ولكن ابتليناهم بوسوسته وسلطانه عليهم لنعلم علم ظهور- وإلا فاللّه بكل شيء عليم- أمر من يؤمن بالآخرة وقيامها ، والحساب فيها ، والجزاء بالثواب والعقاب ، ممن هو منها في شك ، فلا يؤمن بحدوثها ولا بما اشتملت عليه من ثواب وعقاب. وربك أيها الرسول محافظ ورقيب على كل شيء ، ومنه أعمال هؤلاء الكفار ، وسيجازيهم عليها يوم الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- لقد كان لقبيلة سبأ باليمن بساتين خضراء ومناظر رائعة حسناء ، وخيرات وفيرة عن يمين واديهم التي يسكنون فيها وعن شمالهم في مأرب ، وتلك علامة دالة على قدرة اللّه تعالى على أن لهم خالقا خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة ، لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها ، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر.

٢- كان جديرا بهم أن يشكروا نعم اللّه وما رزقهم بالطاعة ، فضلا عن أن الرسل قالت لهم ذلك ، فهذه أي مأرب بلدة طيبة ، أي كثيرة الثمار ، معتدلة المناخ ، لطيفة الهواء ، بعيدة عن المؤذيات ، والمنعم بهذه النعم عليهم ربّ غفور يستر ذنوبهم ، فجمع اللّه تعالى لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه.

٣- لقد خيبوا ما يظن بهم ، فأعرضوا عن أمر ربهم واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين ، فأرسل عليهم سيل العرم ، أي نقض سدّ مأرب ، فتدفقت المياه المدرارة الغزيرة ، فغرّقت بساتينهم ، ودفنت بيوتهم ، فيبست الأشجار المثمرة ، ونبت مكانها أشجار مرّة لا خير فيها من الخمط أي الأراك ، والأثل : وهو كما قال الفراء : شجر شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا ، والسّدر وهو نوعان : نوع له ثمر عفص لا يؤكل ، وهو الذي يسمى الضّال ، ونوع ينبت على الماء وثمره النّبق ، وورقه يشبه شجر العنّاب.

قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيّره اللّه تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المثمرة ، وأثبت بدلها الأراك والطّرفاء والسّدر.

٤- هذا التبديل من النعمة إلى النقمة جزاء كفرهم ، ولا يعاقب بهذا إلا المبالغ في كفران النعمة والكفر باللّه تعالى.

وتساءل الزمخشري والقرطبي : لم خص اللّه تعالى المجازاة بالكفور ، ولم يذكر أصحاب المعاصي ؟
والجواب أن المراد : هو الجزاء الخاص وهو العقاب بالاستئصال والإهلاك ، وليس المراد : الجزاء العام الذي يشمل الكافر والمؤمن. هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة
فقالت عائشة رضي اللّه عنها : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « من حوسب هلك « ١ » ، فقلت : يا نبي اللّه ، فأين قوله جلّ وعزّ :
فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً قال : إنما ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب

---

(١) و
رواه الترمذي عن أنس : « من حوسب عذب » .
.....]

(٢٢/١٨٠)

[
ج ٢٢ ، ص : ١٧١
هلك »
والمعنى : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير.
٥- ومن النعم على أهل سبأ جعل طرقاتهم وممراتهم التجارية بين اليمن والشام مأهولة ، لا تحتاج إلى حمل ماء وزاد ، فقد جعل لهم محطات يستريحون فيها بالقيلولة والمبيت هي القرى الكثيرة على طول الطريق إلى الشام ، قيل :
إنها كانت أربعة آلاف وسبع مائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. والمسافات بين تلك القرى منتظمة ، إذ جعل بين كل قريتين نصف يوم ، حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى.
كما أن تلك الطرقات كانت آمنة غير مخوفة ليلا ونهارا ، ولا يحتاجون إلى طول السفر ، لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان ، لا يحرّك بعضهم بعضا ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحرّكه ، فلم يشكروا النعمة ، بل طلبوا التعب والكدّ.
٦- بطروا النعمة أيضا ، وطغوا ، وسئموا الراحة ، ولم يصبروا على العافية ، فتمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة ، فتبددوا في الدنيا ، وتفرقوا في البلاد كل تفرق ، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ، ويتزودون الأزواد ، وظلموا أنفسهم بكفرهم ، وأصبحوا مدار القصص

والتحدث بأخبارهم ، وعبرة للمعتبر.
٧- إن في هذا التبديل والتدمير وتغير نمط الحياة من رفاه ونعومة إلى تعب وكدّ وشظف وخشونة لعبرة ودلالة لكل صبار يصبر عن المعاصي ، شكور لنعم اللّه تعالى.
٨- كانوا في كفرانهم النعم ، وجحودهم وجود اللّه وعبادتهم الشمس ،
ج ٢٢ ، ص : ١٧٢
و إعراضهم عن طاعة الرسل ، واتباعهم أهواءهم ، كما توقع إبليس الذي سوّل له ظنه فيهم شيئا ، فصدق ظنه أنه يغويهم ، فأغواهم فاتبعوه ، إلا قوما منهم أطاعوا اللّه تعالى ، وآمنوا برسلهم.

(١٨١/٢٢)

٩- لا سلطان لإبليس على قلوب الناس ، ولا حجة يضلهم بها ، ولا قدرة له على قهرهم على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والتزيين والوسواس ، وكان منهم أنهم اتبعوه بشهوة وتقليد ، وهوى نفس ، لا عن حجة ودليل ، وكان هو مجرد آية وعلامة خلقها اللّه لتبيين ما هو في علمه السابق.
وتوضيح ذلك : لقد سلطه اللّه على الناس ، كما يسلط الذباب على العيون القذرة ، والأوبئة على من أهمل النظافة ، فتكون الفريسة من لا قدرة له على المقاومة ، وينجو الأقوياء الأصحاء المجاهدون.
وهو تسليط قصد به الابتلاء والاختبار ، وإظهار الواقع ، مع أن اللّه يعلم بكل شيء ، وتكون النتيجة ظهور أمر المؤمن باللّه وبالآخرة ، وتمييزه عن الشاك بوجود اللّه وبالقيامة ، وتنصب في النهاية أعمال العباد في الحافظة الإلهية ، فهو سبحانه يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.
إبطال شفاعة آلهة المشركين [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)
ج ٢٢ ، ص : ١٧٣
الإعراب :
ما ذا قالَ رَبُّكُمْ ما في موضع نصب ب قالَ وذا : زائدة.
قالُوا الْحَقَّ الْحَقَّ : منصوب ب قالُوا أيضا ، ليكون الجواب على وفق السؤال.
البلاغة :
قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع.
المفردات اللغوية :

قُلِ أيها الرسول للمشركين في مكة وغيرها ، وهو أمر للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يقول لكفار قريش : هؤلاء الأصنام الذين زعمتموهم آلهة من دون اللّه ، ادعوهم ليكشفوا عنكم الضرّ الذي نزل بكم في سنين الجوع. ادْعُوا نادوا. زَعَمْتُمْ زعمتموهم آلهة. مِنْ دُونِ اللَّهِ غيره ، لينفعوكم بزعمكم. ثم أجاب تعالى عنهم إشعارا بتعين الجواب دون مكابرة : وهو لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو شر.

وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ أي ليس لتلك الآلهة المزعومة من شركة ، لا خلقا ولا ملكا.

وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ أي ليس له تعالى من الآلهة من معين يعينه على تدبير أمرهما.

وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ تعالى ، فلا تنفعهم شفاعة آلهتهم كما يزعمون ، وهو رد لقولهم : إن آلهتهم تشفع عنده. إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ أذن له أن يشفع. فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ كشف عنها الفزع بالإذن فيها ، والفزع : انقباض بسبب الخوف. قالُوا قال بعضهم لبعض استبشارا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ ؟ في الشفاعة. قالُوا : الْحَقَّ قالوا : قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ، وهم المؤمنون. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ذو العلو فوق خلقه بالقهر ، وذو الكبرياء العظيم ، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه.

المناسبة :

بعد بيان حال الشاكرين كداود وسليمان ، وحال الكافرين كسبا وما فعله بهم حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل ، عاد اللّه تعالى إلى خطاب المشركين ومناقشتهم ومطالبتهم على سبيل التهكم بهم بأن يستعينوا بآلهتهم المزعومة ليكشفوا

ج ٢٢ ، ص : ١٧٤

عنهم الضر ، ثم بيّن أنهم لا يملكون شيئا ولا تنفع شفاعتهم ، فكيف يعبدونهم ، وشأن المعبود تحقيق النفع للعابد ؟

التفسير والبيان :

قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين من قريش : نادوا تلك الآلهة المزعومة كالأصنام ، والتي عبدت من دون اللّه ، ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع ، أو يجلبوا لكم النفع.

ثم أجاب سبحانه عنهم الجواب المتعين دون مكابرة ، مبينا خطأهم ، فقال :

لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ أي إن تلك الآلهة المزعومة لا يملكون شيئا أبدا ، ولو كان وزن ذرة في السموات والأرض ، وليس لهم قدرة على خير ولا شر في أمر من الأمور ، كما قال تعالى : وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [فاطر ٣٥/ ١٣].

ثم نفى اللّه تعالى وجود الشريك والمعين له ، فقال :

وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ ، وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ أي لا تستطيع الأصنام شيئا أصلا ، لا استقلالا ، ولا شركة في الخلق أو الملك ، فليس للّه شريك ولا معين على خلق شيء ولا على حفظه ، كما قال تعالى : ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً [الكهف ١٨/ ٥١] بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه.

ثم نفى إمكان شفاعتهم ، فقال :

وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ أي لا تنفعهم شفاعة تلك الأصنام لأنه لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا لمن أذن اللّه له أن يشفع ، من الملائإِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [الأنبياء ٢١/ ٢٨] وقال عز اسمه :

لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً [النبأ ٧٨/ ٣٨].